
علي بن موسى الرضا
والقرآن الحكيم
آية الله عبد الله جوادي الطبري الآملي
دار الإسراء للنشر


علي بن موسى الرضا
والقرآن الحكيم

اسم الكتاب : علي بن موسى الرضا والقرآن الحكيم (جلد ١) ....

تأليف : الفقيه المتألّه آية الله عبدالله الجوادي الطّبري الآملي (دام ظلّه) ....

الناشر : دار الإسراء للنّشر ....

المطبعة : الأسوه ....

الطبعة : الأولىٰ..

عدد المطبوع : ٣٠٠٠..

السعر : ٦٥٠ تومان ....

قم: شارع امين. زقاق ٨ . تلفون: ٧١٦١٦٨ ـ ٧١٦١٦٧

فهرس المحتويات الإجمالية

المدخل

روضة:

الجنّة الأولىٰ:

الجنّة الثانية:

الجنّة الثالثة:

الجنّة الرابعة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الّذي حمد في الكتـاب نفسه، وافتتح بالحمد كتابـه، وجعل الحمد آخر دعـوىٰ أهل جنّتـه، وصلّىٰ الله علىٰ من جعل لـواء الحمد بيـده، وبعثه مقـاماً محمـوداً، وعلىٰ عترتـه الّذيـن بهم يبين القـرآن، إذ عطفـوا الهوىٰ علىٰ الهدىٰ، حين عطف النّـاس الهدىٰ علىٰ الهوىٰ، واللّعن علىٰ أعـدائهم أجمعين مـن الآن إلىٰ قيام يوم الدِّين.

المدخل

أمّـا بعـد، فيقـول العبد المفتـاق إلىٰ مـولاه الجواد عبـدالله الجوادي الطبري الآملي: هذه وجيزة حـول القرآن الحكيم عند مولانـا ثامن الحجج عليّ بـن موسىٰ الرضا (عليهما السلام)، ليتبيّن بها مقامه السامي في ضوء القرآن الكريم، ويتبيّن معارفه الراقية ببيان القـرآن الناطق ـ حيث إنّ مبدأهما واحـد، ومسيرهما واحد، ومنتهاهما واحد، ومعيتهما بـالحقّ واحدة، فلـن يفترقا أبـداً ـ حرّرتها للمؤتمر العـالمي الثاني، المنعقد بمناسبة ذكرىٰ ميلاده (عليه السلام) (ذي القعدة الحرام عام ١٤٠٦) في جوار روضته المغـروسة بطـوبىٰ المعـرفة الّتـي تؤتي أُكلهـا كلّ حين بـإذن ربّها، ونظمتها في روضةٍ وجنان.

تنظيم الكتاب في روضة و جنان

أمّا الروضة: فهي لبيان ما يرجع إلىٰ القرآن نفسه.

وأمّا الجنان: فهي لبيـان شرائط معرفـة القرآن ومـوانعها عنهـا، وكذا بيـان المعارف المستفادة من القرآن، مقتصراً في ذلك كلّه علىٰ مـا صدر عن مولانا الرضا (عليه السلام) إلاّ في مواضع خاصّة.

فها أنا أغوص في هذا البحر اللّجيّ، معتمـداً عليه سبحانه، وثقةً به تعالىٰ، ومستنداً إليه تعالىٰ، ومسلّماً له تعالىٰ، راجياً أن يكـون فيضه سبحانه قلبي الّذي به أعقل، ولسـاني الّذي به أنطـق، وبصري الّتي بها أبْصُرُ، وسمعي الّتـي بها أسمع، ويدي الّتي بها أكتب، نائباً في ذلك كلّه عن بقيّة الله، أرواح من سواه فداه، مُهدياً ثواب هـذه النيابـة إلىٰ أهل بيـت الوحـي والعصمة (عليهم السلام) الّذيـن هم أولىٰ بحسناتنا منّا. إذ بولايتهم كمـل نصاب ديننا، وتمّت نعمة ربّنا، ورضي الله الإسلام لنا ديناً، فهؤلاء السادة (عليهم السلام) أولىٰ بنا من أنفسنا، فضـلاً عن حسناتنا؛ لأنّ الأحسن من الحسنة هو فاعلها، حيث إنّها أثر منه، والمؤثّر أفضل وجوداً من الأثر، كما قال أميرالمؤمنين (عليه السلام): «خير من الخير فاعله»[1].

---

١. بحارالأنوار، ج ٦٦ تهران، باب ٣٨، ص ٤٠٤.

روضة:
في العلوم الّتي تحوم حول القرآن نفسه

إنّ القرآن له وجودٌ علميّ ووجود عينيّ، لم يفترقا قط ولن يفترقا بعد، وكانا لدىٰ الله سبحانه نوراً واحداً صدرا من عنده تعالىٰ، بأن أرسل وجوده العيني، وأنزل معه وجوده العلمي، لا ﴿ليقوم النّاس بالقسط﴾ [١] فقط، بل ﴿ليخرجوا من الظلمات إلىٰ النّور﴾ [٢] ذاتاً وصفةً وفعلاً، فتحقيق المقال في مقامين: أحدهما: حول القرآن العلميّ، والآخر: حول القرآن العينيّ.

المقام الاوّل: حول القرآن العلمي

إنّ القرآن كلام الله سبحانه، وكتابه الّذي تجلّىٰ لعباده فيه من غير أن يكونوا رأوه، وحبل الله المرتبط به تعالىٰ الّذي أمر النّاس بالاعتصام به، فله طرفان: أحدهما بيد الله سبحانه، والطرف الآخر بأيدي النّاس. فله مراتب بعضها فوق بعض، يتنزّل من عال إلىٰ دان بالحق نزولاً، ويترقّىٰ من دان إلىٰ عال كذلك صعوداً، كما قال سبحانه: ﴿إنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وإنّه في أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنا لَعَلِيّ حَكِيْمٌ﴾ [٣]، والمراتب الوسطىٰ الّتي هي بين عالم الطبيعة

---

١. الحديد، ٢٥.
٢. كما أشار إليه في سورة إبراهيم ١ و الحديد ٩.
٣. الزخرف، ٤ ـ ٣.

وكسوة اللفظ وبين عالم العقل والتجرّد التامّ، المعبَّر عنه بقوله تعالىٰ: ﴿ أُمّ الكتاب﴾ و ﴿صحف مكرّمة بأيدي سفرة كِرام بررة﴾ [١].

مصاحبة الحقّ للقرآن

وحيث إنّه من مبدأ ظهوره وصدوره إلىٰ منتهىٰ نزوله وهبوطه، مصاحب بالحقّ ومحفوف به، فلا يتطرّقه الضلال من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتسرَّب إليه البطلان من يمينه ولا شماله، كما قال قائله سبحانه: ﴿عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِر عَلىٰ غَيْبِهِ أحَداً إلاّ مَنْ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ فإنّه يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفه رَصَداً لِيَعْلَم أن قَدْ أبْلَغُوا رِسٰالاتِ رَبِّهم وَأحٰاطَ بِمٰا لَدَيْهِم وَأحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ [٢]، فهو معصوم عن الجهل والخطأ حدوثاً، ومصون عن الضلال والبطلان بقاءاً، وهو الحقّ لا غير، وماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال، فالتقدّم عليه كالتأخّر عنه ضلالة، والانحراف عنه إلىٰ اليمين كالانحراف عنه إلىٰ الشمال مضلّة. إذ الجادّة هي الوسطىٰ لا جانباها، والصّراط هو سبيل القصد لا حاشيتاها.

وإليك بعض ما عن مولانا الرضا (عليه السلام) في ذلك: «قال الريّان بن الصلت للرضا (عليه السلام): ما تقول في القرآن؟ فقال (عليه السلام): كلام الله لاتتجاوزوه ولا تطلبوا الهدىٰ في غيره فتضلّوا» [٣]، يعني أنّ القرآن كلام الله وظهور فعله، فهو دون الذّات المتكلّم به، وآيةٌ له، فلا يصحّ التجاوز عن حدّه الوجودي، كما أنّه هدىً للنّاس وبصائر من الله، فلا يجوز التعدّي عنه وطلب الهدىٰ والبصيرة في غيره؛ ولذا قال (عليه السلام) في شأنه: «هو حبل الله المتين وعروته الوثقىٰ وطريقته المثلىٰ المؤدّي إلىٰ الجنّة، والمنجي من النّار لا يخلق علىٰ الأزمنة ولا يغثّ علىٰ

---

١. عبس، ١٦ ـ ١٣.
٢. الجنّ، ٢٦ إلى آخر.
٣. مسندالإمام الرضا «ع»، ج١، كتاب التفسير، ص ٣٠٧، ح ٤ و١٠.

الألسنة؛ لأنّه لم يُجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان والحجّة علىٰ كلّ إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»[١].

فهو ـ أي القرآن ـ حيٌّ لا يموت، كما أنّه حقّ لا يبطل؛ لأنّه المظهر التامّ لله سبحانه الّذي هو حياة لا موت فيها، وحقّ لا يحوم حوله البطلان؛ «لأنّ الله تعالىٰ لم ينزله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس، فهو في كلّ زمان جديد، وعند كلّ قوم غَضّ إلىٰ يوم القيامة»[٢].

خلود القرآن و بيان سرّه

والسرّ في خلود حياته ـ عدا ما تقدّم من كونه ظهوراً وتجلّياً للحيّ الّذي لايموت من ناحية مبدئه الفاعلي ــ هو كونه موافقاً للفطرة الإنسانية وهادياً لها ومزكّياً إيّاها من حيث مبدئه القابلي، وهي ــ أي الفطرة ـ طالبة إيّاه ومشتاقة له بلاتبديل ولا تغيير، كما قال فاطرها تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلْدِّينِ حَنِيْفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾[٣].

وحيث إنّ الرسالة العامّة ضروريّة لا محيص عنها، كما قال سبحانه: ﴿مٰا كُنّا مُعَذِّبِيْنَ حَتّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاّ يَكُونَ للنّاسِ عَلىٰ اللهِ حُجّة بَعْدَ الرسل وَكٰانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمٰا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هٰاد﴾[٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنّا أَهْلَكْنٰاهُمْ بِعَذٰابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقٰالُوا رَبَّنٰا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيٰاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نذل وَنَخْزىٰ﴾[٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، باب فضل القرآن، ص ٣٠٩، ح ١٣.

٢. نفس المصدر، ح ١٢.
٣. الروم، ٣٠.
٤. الإسراء، ١٥.
٥. النساء، ١٦٥.
٦. الرّعد ٧.
٧. طه، ١٣٤.

مُنفَكّينَ حَتّىٰ تَأتِيهُمُ البَيِّنَة رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيهٰا كُتبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [١]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالّة علىٰ ضرورة النبوّة ودوامها، وإنّ ذلك سنّة إلهيّة لاتجد لها تحويلاً ولا تبديلاً، وإنه لا يؤدّي شيء من الاستكبار والاستهزاء وقتل الأنبياء واضطهادهم ونحو ذلك أن يمسك الله سبحانه فيضه، ولا يرسل رسولاً، ويذر الناس علىٰ حالهم بلا حجّة، كما قال سبحانه: ﴿أفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذّكْر صَفْحاً أن كُنتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ وَكَمْ أرْسَلنا مِنْ نَبِيّ في الأوّلينَ وَمٰا يأتيهم من نَبِيّ إلاّ كانوا به يَسْتَهْزِؤونَ﴾ [٢].

البرهان على صيانة القرآن عن التحريف

وقد ثبت بالنص القطعي أنّه لا نبي بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولا كتاب بعد القرآن، وقد ارتحل الرّسول (صلى الله عليه وآله) بشخصه، حيث إنّه ميّت ونحن ميّتون، وما جعل الله لبشر من قبله الخلد، بل جعل كلّ نفس ذائقة الموت، فلو جاز ـ والحال هذه ـ تطرّق البطلان إلىٰ القرآن، وتسرّب الضلال إلىٰ محتواه، ونفوذ التحريف إلىٰ شيء من معارفه، لزم انقراض النبوّة رأساً وانقطاع الرسالة أصلاً، مع أنّها ضروريّة التحقّق دائماً كما تقدّم.

وهذا هو البرهان العقليّ علىٰ صيانة القرآن الكريم عن التحريف، ويمكن استنباطه أيضاً من بيان مولانا الرضا (عليه السلام) ، حيث قال (عليه السلام): «... لأنّه لم يجعل لزمان دون زمان بل جُعل دليل البرهان والحجّة علىٰ كلِّ إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...» [٣].

فلو أمكن زواله بنفسه من ناحية فقدان المقتضي للبقاء، بأن لا يكون صالحاً

---

١. البيّنة، ٣ ـ ١. ٢. الزخرف، ٧ ـ ٥.

٣. مسندالإمام الرضا «ع»، باب فضل القرآن، ص ٣٠٩، ح ١٣.

له، ورافعاً لمشاكل الحياة الإنسانيّة، ومجيباً للشبهات العلميّة، وهادياً إلىٰ ما هو المقصد الأسنىٰ الإلٰهي، أو أمكن زواله من ناحية وجود المانع عن البقاء بالدسّ والتصحيف والتحريف ونحو ذلك، لما كان حبلاً متيناً وعروة وثقىٰ حسبما أفاده(عليه السلام)، بل كان حبلاً موهوناً وعروةً مفصومة بلا متانة ولا وثاقة، إمّا لسبب داخلي هو فقد اقتضاء البقاء، وإمّا لسبب خارجي وهو وجود المانع عن الدوام.

كما أنّه لو كان القرآن كذلك ــ أي لم يكن صالحاً للبقاء الأبدي، إمّا لفقد اقتضاء الخلود، وإمّا لوجود المانع عن التأبيد ـ لما كان نوراً ظاهراً علىٰ الأديان كلّها ولو كره المشركون، بل كان نوراً ضعيفاً منطمساً بنفسه أو مطموساً بعاصفة الشرك ولو كره المؤمنون، والتلازم بيّن وبطلان التالي كامتناع المقدّم واضح، حسبما أفاده الله المتكلّم بهذا الكلام سبحانه، حيث قال في غير مورد: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَاللهِ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ اللهُ إلاّ أَنْ يُتِمّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكٰافِرُونَ﴾ [1] و ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدىٰ وَدِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلىٰ الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [2]، يعني أنّ النّور الإلٰهي الّذي من أظهر مصاديقه القرآن الكريم ـ كما قال سبحانه: ﴿يٰا أَيّها النّاسُ قَدْ جٰاءَكُمْ بُرهٰانٌ مِنْ رَبّكُمْ وَأَنْزَلْنٰا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيْناً﴾ [3] ـ أبديّ البقاء ببقاء الله لوجود اقتضاء الخلود؛ لأنّ الله الّذي أنزله يمدّه ويُتمّه ويمسكه ويفيض عليه فيض وجوده ولفقد المنع عنه؛ لأنّ أفواه الشرك والنفاق والكفر والعناد غير قادرة علىٰ إطفائه نهائياً، لا بإلقاء الشبهات وطرح المتشابهات، ولا بإتيان المثل وإيجاد النظير؛ لعجزهم عن ذلك كلّه، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الانْسُ وَالْجِنّ عَلىٰ أَنْ يأتُوا بِمِثْلِ هٰذا القُرآنِ لا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كٰانَ

---

١. التوبة، ٣٢. ٢. التوبة، ٣٣. ٣. النساء، ١٧٤.

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [١]، فأيّة شبهة أو أيّ شبيه ألقاها المشركون، أو أتىٰ به الكافرون من الانس والجن، يلقفه القرآن الكريم ويحطمه، ويبقىٰ وحده لا شريك له، حيث إنّ العلّة التامّة لبقائه متحقّقة، فبقاؤه ضروريٌّ وزواله ممتنعٌ، كما قال سبحانه: ﴿وإنّه لكتاب عَزِيْزٌ لاٰ يَأتِيْهِ البٰاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاٰ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ﴾ [٢].

وحيث إنّه موجود ممكن، وكلّ ممكن فهو ربط محض وفقر صرف إلىٰ قيومه المستقل المحض والغني الصرف، ولاشأن من شؤونه ذاتياً بل تبعيّاً، فيكون دوامه بإدامة متكلّمه المتجلّي للنّاس فيه، وبقاؤه بإبقاء الله الّذي أنزله؛ فلذا قال سبحانه: ﴿إنّا نَحْنُ نَزَّلْنٰا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحٰافِظُونَ﴾ [٣]، أي يكون حفظه في عالم الطبيعة بأيدي النّاس مستنداً إليه سبحانه لا بالذات، كما أنّ حفظه في اللوح المحفوظ عن أيّ تغيّر طبيعي بحفظ الله الّذي هو الحفيظ بالذات أيضاً كذلك.

والسرّ هو أنّ مقتضىٰ التوحيد، هو أن يكون وجود أيّ شيء أو ظهوره مستنداً إلىٰ الهويّة البحتة المطلقة، حتّىٰ عن قيد الإطلاق المقابل للتقييد؛ فلذا قال مولانا الرضا (عليه السلام) في جواب ابن الصلت ـ ما تقول في القرآن؟ ـ: «كلام الله لاتتجاوزوه...» أي لا تتجاوزوا عن حدّه الوجودي ولا تعدوا عنه، إذ الكلام قائم بمتكلّمه، باق ببقائه، فهو ـ أي القرآن ـ قائم بمتكلّمه، ودائم بدوامه، لا بذاته.

تنبيه: في ازدياد غضاضة القرآن في كلّ عصر

إنّ الّذي قدّمناه لا يثبت أزيد من ضرورة بقاء القرآن وأبديّته، وأمّا ازدياد غضاضته ومزيد نضارته في كلّ عصر وعند كلّ جيل بالنشر والدراسة، فلا والّذي يدلّ عليه، هو أنّ رقيّ العلم وحاجة النّاس إلىٰ المعارف العميقة يوجب استعداداً

---

١. الإسراء، ٨٨. ٢. فصّلت، ٤٢ ـ ٤١. ٣. الحجر، ٩.

خاصّاً راقياً لطرح مسائل غضّة، لم تكن مسبوقة في الأعصار الغابرة، وحيث إنّ السؤال بلسان الاستعداد مستلزم للجواب، ضرورة أنّ المبدأ الجواد دائم الفضل علىٰ البرية، كما أفاد سبحانه: ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوه﴾ [١]، فلابدّ وأن يكون القرآن ـ الّذي هو المرجع الوحيد لكافّة النّاس إلىٰ الأبد دون غيره من الكتب ـ كافلاً لجميع ما يحتاج إليه النّاس من المشاكل. ولمّا كانت الأسئلة حادثة، كانت الأجوبة جديدة نضرة غضّة.

فالقرآن وإن شُبّه بالشمس والقمر في بعض النصوص، إلاّ أنّه من الناحية المبحوث عنها كالعين النضّاحة والكوثر الفوّار الّذي ينبع منه كلّ يوم ماء طري يصير ظاهراً بعد ما كان باطناً، فكما أنّ أصل نظام الكيان من السّماوات والأرض كذلك بالنسبة إليه سبحانه، يعني أنّه يسأله كلّ موجود في كلّ آن، ويجيبه سبحانه بإفاضة بعد إفاضةٍ في كلّ حين، وقد جمع بين هذين الأمرين ـ أي السؤال المستمر والجواب المتّصل الدائم ـ قوله تعالىٰ: ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْن﴾ [٢]، هكذا المجتمع البشري في ساحة القرآن الكريم، يعني أنّ كلّ درس وبحث يوجب سؤالاً جديداً ويستوجب جواباً طريّاً لم يكن معهوداً، فينبع من كوثر القرآن مطلب غض لم يكن مسبوقاً.

هذا أصل عقليّ يؤيّده النقل في غير مورد، كما ورد «لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً» [٣]، «فإنّ فضلك لا يغيض وإنّ خزائنك لا تنقص بل تفيض» [٤]؛ لأنّ معناه هو ازدياد الجود بكل عطيّة وسخاء لا أنّه لا ينفد فقط، وكم فرق بين عدم النفاد بالإعطاء وبين ازدياد الجود والكرم بكلّ عطاء وإفاضة.

وهذا المعنىٰ المعقول المؤيّد بالمنقول، هو المستفاد ممّا نقله مولانا الرضا

---

١. إبراهيم، ٣٤. ٢. الرحمن، ٢٩. ٣. دعاء الافتتاح.

٤. الصحيفة السجادية، دعاء وداع شهر رمضان.

(عليه السلام) عن أبيه موسىٰ بن جعفر (عليهما السلام): «أنّ رجلاً سأل أبا عبدالله (عليه السلام) ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراسة إلاّ غضاضة؟ فقال: لأنّ الله لم ينزله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس، فهو في كلّ زمان جديد وعند كلّ قوم غضّ إلىٰ يوم القيامة»[١]، لدلالته علىٰ أنّه في كلّ عصر غضّ، لا أنّه باق فقط كالحجر الراكد، بل نابع كالكوثر النضّاح، فهو كلّ يوم في شأن جديد ولا يشغله شأن عن شأن؛ لأنّه مظهر تام للمتكلّم الّذي هو كذلك بالذات، فلابدّ وأن يكون مثالاً للظاهر فيه، وآية تامّة له تعالىٰ في هذه الجهة.

فضيلة الظروف الزمانيّة و المكانيّة الّتي تحقّق فيها القرآن

ثمّ أنّ فضيلة هذا الكلام السامي توجب أن تكون ظروفه الزمانيّة والمكانيّة الّتي تحقّق فيها هي أفضل الظروف، فلذا أُنزل في ليلة مباركة هي ﴿خير من ألف شهر﴾[٢] ، وفي جوار ﴿أوّل بيت وُضع للنّاس﴾[٣]، وكفىٰ في شرف ذلك البيت انتسابه إلىٰ الله المنزَّه عن أيّ مكان، المبرأ عن أيّ زمان، حيث قال تعالىٰ: ﴿طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطّٰائِفِيْنَ وَالْعٰاكِفِيْنَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٤].

وكذا توجب أن يكون مهبط نزوله قلباً هو خير القلوب؛ لكونه صادقاً أميناً لا يكذب ما يرىٰ ولا يخون ما اؤتمن، كما قال سبحانه: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأىٰ﴾[٥]، بلا خصيصة له بما شاهده في المعراج، كما أنّ لسان غير واحد من الأنبياء هو ﴿إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا الله وَأَطِيْعُونِ﴾[٦]، فلا مجال لكذبه (صلى الله عليه وآله) فيما نزل به الروح الأمين علىٰ قلبه، كما لا مجال لخيانته، فجميع ما ينزل في قلبه غيب إلٰهي أنبأه الله به، وليس هو (صلى الله عليه وآله) علىٰ شيء من الغيب بضنين،

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج١، كتاب التفسير، ص ٣٠٩، ح ١٢.

٢. القدر، ٣. ٣. آل عمران، ٩٦. ٤. البقرة، ١٢٥.

٥. النجم، ١١. ٦. الشعراء، ٨ـ١٠٧, ٤ـ١٤٣, ٣ـ١٦٢, ٩ـ١٧٨.

حتّىٰ يكتم ما أُوحي إليـه، كما أنّ جميع ما ينطق ـ مما يرجع إلىٰ الدّين ـ وحي إلٰهي، فهو (صلى الله عليه وآله) لا يكتم شيئاً ممّـا أمر بإبلاغه، كما لا ينطـق بشيء لم يوحِ إليه، فعليه يكون القرآن وحيـاً محضاً، لا يحوم حوله الريب أصـلاً، فلذا لا تصحّ المماراة فيما رأىٰ فؤاده ونطق لسانه، حيث قال سبحانه: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[١]. إذ الشاهد يرىٰ ما لا يراه الغائب، والـرّسول يسمع ما لا يسمعه غيره، فلا يجوز المراء فيما شاهده عياناً وأخبر الناس به.

وهذا هـو المستفاد من قـول مولانا الـرضا (عليه السلام): «المراء في كتـاب الله كفر»[٢]؛ لأنّ الجدال في الحقّ المحض بعـدما تبيّن رشده عن غـيّ مقابله كفـر له وإلحاد عنه. إذ ماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال؛ فلذا قال (عليه السلام): «ولا تطلبوا الهدىٰ في غيره فتضلّوا»[٣].

تذكرة: في أنّ للقرآن علوماً جمّة

إنّ للقرآن من حيث نفسه علوماً جمّة، لا مجال للبحث عنها هنا، إذ المقصود هو التعـرُّض لخصوص ما وصـل إلينا من النصوص الـرضويّة علىٰ مـن صدع بها وأفـاضها آلاف السّـلام والتّحيّـة، مـع أنّ لنا رسـالـة أُخـرىٰ حول تلـك العلـوم القرآنيّة، حسب الطاقة الضعيفة والبضاعة المزجاة، فلا وجه للتكرار؛ فلذا نعطف المقـال عن هـذا المقام البـاحث حـول القرآن العلمـيّ إلىٰ المقام البـاحث حـول القرآن العيني.

المقام الثاني: حول القرآن العيني

إنّ للشيء وجوداً اعتبـاريّاً ووجـوداً حقيقيّاً، أمّا الأوّل فكـالوجـود اللّفظي

---

١. النجم، ١٢.
٢. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٠٧، ح ٢.
٣. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٠٧، ح ٤ و ١٠.

والكتبي، حيث إنّه يختلف باختلاف اللّغات والأقوام ونحو ذلك، وأمّا الثاني فكالوجود الخارجي الأعم من الطبيعي والمثالي والعقلي، حيث إنّه لا يختلف باختلاف شيء من الألسن والألوان والأقوام ونحو ذلك.

ولكلّ واحد من الوجودين ـ الاعتباري والحقيقي ـ حكم يختصّ به، كما أنّ لكلّ قسم من أقسام النوعين أيضاً حكماً يخصّه وأثراً يترتّب عليه، والقرآن أيضاً له وجود لفظي يُتلىٰ بالألسن، ووجود كتبي يضبط في المصاحف، ولكلٍّ منهما حكم فقهي وغير فقهي يختصّ به، وله أيضاً وجود خارجي من تخوم عالم الطبيعة إلىٰ عنان عالم العقل، يتحقّق كلّ من ذلك في موطنه، وله حكم يخصّه.

حيث إنّ المراد من الوجود الخارجي، هو الوجود الحقيقي المترتّب عليه الآثار، سواء كان في موطن النفس الإنسانيّة كالعلوم والأوصاف النفسانيّة، أو في موطن آخر، فلابدّ وأن يكون الوجود الخارجي لكلٍّ شيء بحسبه، مثلاً إنّ للشجر وجوداً خارجيّاً وللعلم أيضاً وجوداً خارجيّاً، والميز بينهما بأنّ العلم أمر خارجي يتحقّق في موطن النفس الإنسانيّة وراء الوجود الذهني، المقابل للوجود الخارجي الفاقد لأيّ أثر عيني، وإنّ الشجر أمر خارجي متحقّق في الخارج عن النفس.

الانسان الكامل قرآن ناطق ممثّل

وحيث إنّ القرآن مشتمل علىٰ العقائد والأخلاق والأعمال، وكلّ ذلك أمر متعلّق بالإنسان، بحيث لولا الإنسان لما كان للعقيدة وجود، ولا للخلق تحقّق، ولا للعمل بالقرآن حصول، فالوجود الخارجي لمضامين القرآن إنّما يكون في موطن النفس الإنسانيّة الّتي هي في وحدتها كلّ القوىٰ المدركة والمحرّكة.

فمن علم بظاهر القرآن وباطنه، وعرف تفسيره وتأويله، واطّلع علىٰ متشابهه ومحكمه، ورَدّ المتشابه منه إلىٰ محكمه، وعمل بعزائمه وفرائضه وبسُنَنه ورخصه،

وكان مؤمنا بجميع حِكَمه وأحكامه، وقال: كلّ من عند الله، فهو القرآن الناطق ـ أي القرآن التكويني المتحقّق خارجاً، كالعترة الطاهرة (سلام الله عليهم أجمعين) ـ لأنّ علوم القرآن ومعارفه قد تحقّقت في نفوسهم الشريفة، إذ الإيمان قد خالطهم من القَرْنِ إلىٰ القدم، فالإنسان الكامل ـ أي الإمام المعصوم (عليه السلام) ـ قرآن ممثّل، كما أنّه صراط مستقيم وميزان قسط، كلّ ذلك علىٰ منهج الحقّ لا المجاز.

ويشهد له ما رواه مولانا الرضا (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) عن الحسين بن علي (عليهما السلام)، أنّه قال: «اتّفق في بعض سِنِي أميرا لمؤمنين (صلوات الله عليه) الجمعة والغدير فصعد المنبر، فحمد الله وأثنىٰ عليه، حمداً لم يسمع بمثله، وأثنىٰ عليه ثناءً لم يتوجّه إليه غيره، فكان مما حُفِظ من ذلك قوله: الحمدُ لله الّذي جعل الحمد من غير حاجة منه إلىٰ حامديه طريقاً من طرق الاعتراف بلا هويته وصمدانيّته وربّانيّته... هذا يوم النصوص علىٰ أهل الخصوص، هذا يوم شيث، هذا يوم ادريس، هذا يوم يوشع، هذا يوم الأمن المأمون، هذا يوم إظهار المصون من المكنون، هذا يوم إبلاء السرائر...» إلىٰ أن قال (عليه السلام): «أفتدرون الاستكبار ما هو؟ هو ترك الطاعة لمن أُمروا بطاعته، والترفُّع علىٰ من ندبوا إلىٰ متابعته، والقرآن ينطق من هذا عن كثير إن تدبّره متدبّر، واعلموا ـ أيّها المؤمنون ـ إنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿إنّ الله يحب الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص﴾ [(١)]، أتدرون ما سبيل الله ومَن سبيله ومَن صراط الله ومَن طريقه؟ أنا صراط الله الّذي من لم يسلكه بطاعة الله فيه هوىٰ به إلىٰ النّار، وأنا سبيله الّذي نصبني للاتباع بعد نبيّه، أنا قسيم الجنّة والنّار، وأنا حجّة الله عزّ وجلّ علىٰ الفجّار والأبرار، وأنا نور الأنوار فانتبهوا من رقدة الغفلة وبادروا بالعمل قبل حلول الأجل» الحديث [(٢)].

حيث إنّه عَرّف نفسه النفيس بالصراط والسبيل، يعني أنّ الصراط العلمي

---

١. الصف، ٤.

٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الدعاء، ص ٢٤، ح ٢٨.

هو الدِّين الإلٰهي، والصراط العينـي هو الإمام المعصوم (عليه السلام)، وهكذا في غيره من المعارف كالميزان القسط، حسبما ورد في نصوص أُخر.

الانسان نوع أخير عند الجمهور و نوع متوسط عند أصحاب الحكمة المتعالية

والسرّ في ذلك، هو أنّ الحركة والمسافة والمتحرّك في الحركة الجوهريّة في العين متّحدة، وإن كانت في تحليل الذهن متغايرة، والإنسان وإن كان نوعاً أخيراً عند الجمهور، ولكنّه نوع متوسّط تحته أنواع حقيقيّة كثيرة عند أصحاب الحكمة المتعالية، فالنفس في باديء الأمر بمنزلة المادّة للكمالات الوجوديّة، فإذا رسخت تلك الكمالات فيها وصارت ملكة، تصوّرت تلك النفس بها وصارت إيّاها حقيقة بعدما كانت مستعدّة لها واجدة إيّاها بالقوة.

والإنسان سالك بتمام وجوده وذاته إلىٰ الله سبحانه، وكادح إليه، فيلاقيه، كما قال سبحانه: ﴿يا أيُّها الإنْسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلىٰ رَبّكَ كدحاً فَمُلاقِيْهِ﴾ [١]، فإن سار علىٰ الصراط المستقيم وصار صراطاً مستقيماً، فيلاقي جمال رحمة ربّه، كما قال تعالىٰ: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلىٰ ربّها ناظرة﴾ [٢]، وإن انحرف عنه وبغاه عوجاً وصار بنفسه سبيلاً غيّاً ووقوداً للنّار أو حطباً لها، فيلاقي جلال قهر ربّه، كما قال سبحانه حاكياً عن هؤلاء الّذين ينادون من مكان بعيد: ﴿رَبَّنا أبْصَرْنا وَسَمِعْنا﴾ [٣]، مع أنّهم يُحشرون عُمياً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُره يَومَ القِيامَةِ أعْمىٰ﴾ [٤]؛ لأنّهم عمي عن مشاهدة الجمال والرحمة، لا عن شهود الجلال والقهر، تدبَّر.

---

١. الإنشقاق، ٦.　٢. القيامة، ٣ ـ ٢٢.　٣. السجدة، ١٢.
٤. طه، ١٢٤.

الامام ميزان قسط يوزن به عقائد الناس و أخلاقهم و أعمالهم

حيث إنّ القرآن صراط مستقيم يسير عليه السالك، فإذا تلاه حقّ تلاوته، وآمن بجميع ما فيه، وعرف ذلك كلّه وعمل به، ولم يبخس منه شيئاً، يصير هو بعينه صراطاً مستقيماً وميزاناً قسطاً، يوزن بعقيدته عقائد الناس وبخلقه العظيم أخلاق الناس وبأعماله الصالحة أعمال النّاس، فهو القرآن الممثّل بجميع ما فيه من المعارف، فيصير قرآناً عينيّاً تجاه القرآن العلمي ولا ينفكّ عنه، كما لم يفترق القرآن العلمي عنه أبداً.

معيّة القرآن و العترة

فالمعيّة ـ الّتي هي المتسالم عليها بين القرآن والعترة ـ تكون حقيقة ذات مراتب حسب مراتب الوجود الخارجي، ففي عالم الطبيعة بنحو يقتضي الكثرة العينيّة ويستلزمها، وفي عالم المثال بنحو يمتضيها أيضاً، ولكن بلا تزاحم مادّي وتطارد عينيّ، وفي عالم العقل والتجرّد التامّ بنحو يقتضي الوحدة العينيّة ويستلزمها، وإن كان التغاير التحليلي منحفظاً مادام هناك ذهن ومفهوم وتحليل مفهومي أو ماهوي.

ولعله إلىٰ ذلك يشير ما عن الصادق (عليه السلام)، حين سأله المفضّل بن عمر عن الصراط، فقال (عليه السلام): «هو الطريق إلىٰ معرفة الله عزّ وجلّ، وهما صراطان صراط في الدُّنيا وصراط في الآخرة، وأمّا الصراط الّذي في الدُّنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدُّنيا واقتدىٰ بهداه مرّ علىٰ الصراط الّذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدُّنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة، فتردّىٰ في نار جهنّم»[1].

---

١. بحار، ج ٨، باب ٢٢، ص ٦٦، ح ٣ وج ٢٤، باب ٢٤، ص ١١، ح ٣.

حيث إنّ القرآن كلام إلهي مصون عن تعرّض الشيطان في شيء منه، بالزيادة أو النقص أو التصحيف أو التحريف حسبما تقدّم، فإذا تكلّم السالك إلىٰ الله به، وباشره بروحه وجسمه قلباً وقالباً، ولم ينفك عن هداه ولم يعطف هداه علىٰ هوىٰ نفسه، بل عاكسه وعطف هواه علىٰ هداه، يصير هو بعينه قرآناً ممثلاً مصوناً عن وسوسة الشيطان، فلا يطمع فيه بالضلالة ولا بالغواية ولا باتّباع الهوىٰ ولا بالزيغ والطغوىٰ، وهذا هو المستفاد ممّا رواه مولانا الرضا (عليه السلام) عن آبائه المعصومين (عليهم السلام) أنّه قال النبي (صلى الله عليه وآله) لعليٍّ (عليه السلام): «ما سلكت طريقاً ولا فجّاً إلاّ سلك الشيطان غير طريقك وفجّك»[1].

اهتداء الله و هدايته من الاوصاف الفعليّة

حيث إنّ اهتداء الله سبحانه بذاته، وهدايته لغيره من أوصافه الفعليّة، وكلّ صفة فعليّة فإنّها ينتزع من مقام الفعل المستند إلىٰ الذات، لا من نفس الذات، فلابدّ لها ـ أي للهداية ـ من مظهر خارجي، فكما أنّ القرآن الكريم مظهر لله سبحانه في هذين الاسمين ـ أي كونه مهتدياً بنفسه وهادياً لغيره ـ كذلك الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) العالم به والعامل بمقتضاه مظهر لله سبحانه في ذينك الاسمين.

هذا هو المستفاد من حديث مولانا الرضا (عليه السلام) في الإمامة حيث قال: «إنّ الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم يوفّقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق علم أهل الزمان في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلىٰ الْحَقِّ أَحَقّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّي إِلاّ أَنْ يُهْدىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ١٣٣، ح ١٤٢.

تَحْكمونَ﴾ (١)» (٢)، يعني أنّ الإنسان المتكامل المعصوم (عليه السلام) مهتدٌ بنفسه لا يحتاج إلىٰ هداية غيره من أيّ موجود إمكاني آخر؛ لأنّه مظهر تام لله الّذي فعله، هو نفس الصراط المستقيم، كما قال: ﴿إنَّ رَبِّي عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾ (٣)، فلا ينتزع الاهتداء إلاّ من متن فعله الخارجي بلا حاجة إلىٰ هداية غيره، فهو الحَري بأن يكون هادياً لغيره.

فمن عدا المعصوم (عليه السلام) يحتاج في هداه إليه، كما أنّ جميع الكتب الّتي ألّفتها أيدي الناس للهداية إلىٰ الحقّ تحتاج إلىٰ كتاب الله سبحانه؛ لأنّه مظهر لله المهتدي بالذات الهادي لما سواه، فالقرآن العيني كالقرآن العلمي مظهر له تعالىٰ في هذين الاسمين.

بيان كون القرآن شفاء و مرضاً

والسرّ هو ما تقدّم من أنّ الإنسان الكامل قرآن ممثّل، كما أنّ القرآن إنسان كامل مدوّن، حيث إنّ الشفاء ومقابله من الأوصاف الفعليّة لله سبحانه، وينتزع من مقام فعله لا من الذات؛ لتعاليه عن ذلك، فيمكن أن يكون فعل واحد خارجي نوراً لقوم وعَمىً لقوم آخرين، أو شفاءً لطائفة ومرضاً لطائفة أُخرىٰ، بلا محذور في الجمع بينهما؛ لتعدّد الإضافة، وقد ورد في حقّ القرآن العلمي، أنّه نور لبعض وعمى لبعض آخر وشفاء لقوم ومرض وهلاك لقوم آخرين، كما قال سبحانه: ﴿وَنُنَـزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَلاٰ يَزِيْدُ الظّٰالِمِيْنَ إلاّ خساراً﴾ (٤)، وقال تعالىٰ: ﴿قُل هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاء وَالَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ في آذانِهِمْ وقر وَهُوَ عَلَيْهِم عمى أُولئِكَ يُنٰادَون مِنْ مَكانٍ بَعِيْدٍ﴾ (٥).

---

١. يونس، ٣٥. ٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١ كتاب الإمامة، ص ١٠٠، ح ٤٥.
٣. هود، ٥٦. ٤. الإسراء، ٨٢. ٥. فصّلت، ٤٤.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

يبلغ معرفة الإمام أو يمكنه اختياره، هيهات هيهات، ضلّت العقول وتاهت الحلوم وحارت الألباب وخسئت العيون وتصاغرت العظماء وتحيّرت الحكماء وتقاصرت الحلماء وحصرت الخطباء وجهلت الألباء وكلّت الشعراء وعجزت الأُدباء وعييت البلغاء عن وصف شأن من شأنه أو فضيلة من فضائله، وأقرّت بالعجز والتقصير، وكيف يوصف بكلّه أو ينعت بكنهه أو يفهم شيء من أمره أو يوجد من يقوم مقامه ويغني غناه، لا كيف، وأنّىٰ وهو بحيث النجم من أيدي المتناولين ووصف الواصفين، فأين الاختيار من هذا، وأين العقول عن هذا، وأين يوجد مثل هذا؟»[1].

الامامة بالولاية لا الوكالة

إذ المستفاد من هذا البيان الجامع، هو عجز الناس جميعاً عن معرفة كنه الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام)، وعجزهم نهائيّاً عن اختياره ونصبه وانتخابه وتوكيله حتّىٰ تكون الإمامة بالوكالة، لا الولاية، بل الإمام المعصوم (عليه السلام) بمنزلة النجم الفائق الّذي لا تصل أيدي المتناولين إليه حتّىٰ يرشّحوه وينصبوه لهم سراجاً مُنيراً، بل الله سبحانه هو الّذي ينصب بالذات الإمام المعصوم (عليه السلام) لهم سراجاً منيراً. وهذه الميزات والمؤهّلات ـ كما تقدّم ـ مشتركة بين القرآنين ـ العلمي والعيني ـ المعبّر عنهما بالثقلين.

إنكار القرآن و الاعراض عنه جاهلية

ومنها ـ أي من تلك الآثار المشتركة بينهما ـ إنّ إنكار القرآن العلمي، والاعراض عنه، والتعرُّض له جاهلية جَهْلاء، بعيد عن العقل والعدل، كما قال

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ٩٨، ح ٣٥.

سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١)، وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَه عَلىٰ رَسُولِهِ وَعَلىٰ المُومِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٢).

إذ العقل هو ما يعبد به الرّحمان ويكتسب به الجنان، فما لا يعبد به الرّحمان فهو ليس بعقل، بل هو جهل وسفاهة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّة إبْرَاهِيْم إلاّ مَنْ سفه نَفْسه﴾ (٣)، فالحياة الفاقدة رشد العقل جهالة وسفالة، سواء صحبها الرُقي الصناعي، كما هو المشهود في الملل الراقية صنعةً، الطاغية الظالمة حكومةً، أو لا، كما في الملل التابعة لهم القائلة يوم القيامة: ﴿إنّا أطَعْنا سَادَتَنا وَكُبَرائنا فَأضَلّونا السَّبِيْلا﴾ (٤).

فمن ينكر القرآن ويعرض عنه ويتعرّض له جاهل سفيه، وحياته جاهلية، وفي قلبه تعصّب باطل جاهلي، ولا مجال لإنزال السكينة والطمأنينة فيه، كما لا مجال لإعطاء التقوىٰ مع الطغوىٰ. إذ التقوىٰ عبوديّة حقّة، وتذلّل في ساحة قدس الله سبحانه، والطغوىٰ ربوبيّة باطلة، وتمرّد واستكبار في قبال الله تعالىٰ، كما تقدّم نقله عن مولانا علي الرضا (عليه السلام) عن جدّه علي المرتضىٰ (عليه السلام) أنّه قال: «... أفتدرون الاستكبار ما هو؟ هو ترك الطاعة لمن أُمروا بطاعته والترفّع علىٰ من نُدبوا إلىٰ متابعته» (٥)، فحياة منكر القرآن العلمي والمعرض عنه جاهليّة جهلاء، كذلك حياة منكر القرآن العيني والمعرض عنه جاهلية، كما نقل محمّد بن اسماعيل عن مولانا الرضا (عليه السلام) أنّه قال: «من مات وليس له إمام، مات ميتةً جاهلية، فقلت له: كلّ من مات وليس له إمام، مات ميتةً

---

١. المائدة، ٥٠. ٢. الفتح، ٢٦. ٣. البقرة، ١٣٠.
٤. الأحزاب، ٦٧. ٥. مسندالإمام الرضا «ع»، ج٢، كتاب الدعاء، ص ٢٥، ح ٢٨.

جاهلية؟ قال: قال: نعم، والواقف كافر والناصب مشرك»[١].

الموت على وزان الحياة

إذ المستفاد من هذا البيان الرضوي،وإن كان هو أن ذلك الموت موت جاهلي، إلاّ أنّ الموت لمّا كان علىٰ وزان الحياة؛ لأنّ الناس كما يعيشون يموتون، فإذا كان الموت جاهلية يكشف عن كون الحياة كانت جاهلية، تطوّرت بالميتة الجاهليّة. إذ الحياة العقليّة تستعقب موتاً عقليّاً؛ لأنّ الّذي ينتقل من الدُّنيا إلىٰ روضة من رياض الجنّة فهو عاقل قطعاً، حيث إنّه عبد ربّه واكتسب جنّته، وكلّ من كان كذلك فهو عاقل. إذ العقل ما يعبد به الرّحمان و يكتسب به الجنان.

والحاصل، أنّ الموت الجاهلي إنّما هو بظهور الحياة الجاهليّة، فإذا كان موت مُنكِر الإمام المعصوم (عليه السلام) ميتة جاهليّة، يلزمه أن تكون حياته أيضاً كذلك.

والسرّ في ذلك، هو أنّ القرآن بوجوده العلمي أو العيني حياة طوبىٰ عقليّة، كما أفاده سبحانه بقوله: ﴿يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرسُولِ إذٰا دَعٰاكُمْ لِما يُحييكُمْ﴾[٢]، وبقوله: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيّاً وَيَحِقّ القَوْل عَلىٰ الكٰافِرينَ﴾[٣].

عدم انفكاك القرآن العيني عن العلمي في الاوصاف الكمالية

والقرآن العيني لا ينفك عن القرآن العلمي في وصف من الأوصاف الكماليّة الوجوديّة أصلاً؛ لأنّ دعوة القرآن العيني هي نفس دعوة القرآن العلمي، ولذا أفرد الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿... لله وِلِلْرسُولِ إذٰا دَعاكُمْ﴾[٤] ولم يثنِّ؛ لأنّ الرّسول ـ الّذي هو من أظهر مصاديق القرآن العيني ـ لا يدعو إلاّ بما دعا الله النّاس إليه.

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج١، كتاب الإمامة، ص ٩٠، ح ١٤.

٢. الأنفال، ٢٤. ٣. يس، ٧٠. ٤. الأنفال، ٢٤.

فإذا كان القرآن بوجوده العلمي أو العيني ممثّلاً للحياة الطيّبة العقليّة، فمن فَقَدَ أي واحدٍ منهما فقد فقدها، وصار ميّتاً جاهليّاً، يؤخذ بما عمل في الجاهليّة والإسلام، أي لا يغفر شيء من ذنبه، سواء ما تقدّم منه وما تأخّر، كما هو المستفاد ممّا رواه مولانا الرضا (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) عن أميرالمؤمنين (عليه السلام) أنّه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «من مات وليس له إمام من ولدي مات ميتة الجاهليّة، يؤخذ بما عمل في الجاهلية والإسلام»[١].

إذ لم يَعْقِل ولم يَتُب ولم يسلم، حتّىٰ يَجُبَّ الإسلام ما قبله، ويعفو الله عمّا سلف منه، بل إذا القبور بعثرت، علمت نفس هؤلاء الجهلاء ما قدّمت من ذنب وما أخّرت، ومن أعظم تلك الذنوب هو إنكار الإمام (عليه السلام).

القرآن العلمي و العيني مظهر تام للاسم المهيمن

ومن تلك الآثار المشتركة بين القرآن العلمي والعيني، هو أنّ القرآن العلمي مظهر تام للإسم المهيمن، حيث إنّ المهيمن من الأسماء الحُسنىٰ لله سبحانه، ومن الأوصاف الكماليّة للقرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿المَلِكُ القدُّوسُ السَّلام المؤمن المُهَيْمِنُ﴾[٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتابِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[٣].

والهيمنة الوجوديّة، إنّما هي بكون المهيمن واجداً لجميع الكمالات الّتي هي لما في حوزة هيمنته وسيطرته ونفوذه، كما أنّ الله سبحانه كذلك بالذات بالقياس إلىٰ جميع ما سواه، والقرآن الكريم أيضاً مسيطر بالقياس إلىٰ جميع الكتب السماوية. إذ له ـ عدا التصديق والتأييد ـ هيمنة علىٰ تلك الكتب، وإحاطة علىٰ

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص، ٩٠، ح ١٥.

٢. الحشر، ٢٣.   ٣. المائدة، ٤٨.

المعارف السامية الّتي لم تحتو تلك الكتب عليها، بحيث ليس في وسع الإنسان المتكامل أن يصل إلىٰ رتبة وجوديّة بالعلم، إلاّ وقد اشتمل عليها القرآن، وإلاّ لما كان خاتم الكتب، ولما كان خالداً بحياله أبديّاً. إذ المفروض أنّ هناك مقاماً وجوديّاً لا يهدي إليه القرآن لعدم احتوائه، فلابدّ وأن يأتي كتاب آخر، وهو محال بعد فرض ختم الكتب بالقرآن.

الاسماء الحسنىٰ بعضها محيطة ببعض

فالقرآن العلمي مظهر تامّ لله سبحانه من حيث كونه مهيمناً علىٰ غيره من الكتب، كما أنّ للإسم المهيمن أيضاً هيمنة علىٰ غيره من الأسماء الجزئيّة المحاطة به؛ لأنّ بعض الأسماء الحسنىٰ محيط ببعض حتّى ينتهي إلىٰ أُمّ الأسماء المحيطة بها، وهو الاسم «الله» جلّ جلاله.

وإن احتمل بعض أصحاب المعرفة أنّ الإسم «الرّحمان» أيضاً كذلك؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أو ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أيّاً ما تَدْعُو فَلَهُ الأسْماءُ الحُسْنىٰ﴾ [١]، أي فلكل واحد من هذين الاسمين ـ أحدهما هو «الله» والآخر هو «الرّحمان» ـ إحاطةٌ علىٰ سائر الأسماء الحسنىٰ الجزئيّة بالقياس إليهما، وإن كان بعضها بالنسبة إلىٰ بعضها الآخر كلّيّاً محيطاً.

ولعلّه لذا قال الفاضل الهندي (رحمه الله) في مقدّمة كشف اللّثام: «فالمحقّقون علىٰ انّ الرّحمان أيضاً إسم للذات كالله، وإنّ لفظه هنا ـ بسم الله الرّحمان الرّحيم ـ بدل من الله؛ ولذا قدّم علىٰ الرّحيم؛ لكونه صفة، فاندفع السؤال عن جهة تقديمه مع أنّه أبلغ، إنتهىٰ» [٢].

ولبعض أهل التحقيق مقال آخر، حيث قال ـ بعد نقل كون الرّحمان جامعاً

---

١. الإسراء، ١١٠.
٢. كشف اللثام، ص ٦.

كالله ـ: هـذا وإن كان حقّاً من وجـه، لكن كون الرّحمان تحت حيطـة الإسم «الله» يقضي بتغايـر المرتبتين، ولولا وجـه المغايـرة بينهما ما كـان تابعـاً للإسـم «الله» في «بسم الله الرّحمٰن الرحيم»[١].

وكيف كان، فالإسـم المهيمن له إحاطة وجوديّـة علىٰ غير واحد من الأسماء الّتي تحت حيطته، والقرآن العلمـي أيضاً لكونه مظهراً لذلك الإسـم، فله إحاطة علميّة بغيره من الكتب السماويّة فضلاً عـن غيرها، وهكذا القرآن العيني المعادل له، له هيمنة علىٰ غيره من الكتب العينيّة، كالأنبياء والأوصياء الماضين (عليهم السلام) كما أنّ له سيطرة وإحاطة علميّة بمعارف جميع تلك الكتب السماويّة.

ولذا قـال مولانا الـرضا (عليه السلام): «يـا نـوفلي، تحبّ أن تعلم متـىٰ ينـدم المأمون؟ قلـت: نعم، قال: إذا سمع احتجـاجي علىٰ أهل التـوراة بتوراتهم، وعلىٰ أهل الانجيل بإنجيلهـم، وعلىٰ أهل الزّبور بزبورهـم، وعلىٰ الصابئين بعبرانيتهم، وعلىٰ الهرابـذة بفارسيّتهـم، وعلىٰ أهـل الروم بـروميّتهـم، وعلىٰ أصحاب المقـالات بلغاتهم، فإذا قطعـت كلّ صنف ودحضت حجّتـه وترك مقالته ورجـع إلىٰ قولي، علم المأمون أنّ الموضع الّـذي هو بسبيله ليس هو بمستحقّ لـه، فعند ذلك تكون الندامة منه، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»[٢].

انحاء دعوة القرآن العيني و العلمي

ممّا يؤيّد ذلك اقتداء الأنبياء بخاتمهم (صلى الله عليه وآله) ليلة الإسراء في المسجد الأقصىٰ، وكـذا اقتداء الأولياء بخـاتمهم (عليه السلام) بقيّـة الله ـ أرواحنا فـداه ـ عند ظهوره، حيث إنّ ذلك يشعر بكون رتبة كـلّ قرآن وكتاب عيني علىٰ وزان رتبة كلّ

١. مقدمة شرح الفصوص للقيصري، ص ١٢.

٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٧٥، ح ٣.

قرآن وكتـاب علمي، فكما أنهّما في أصل الـوجود متكـافئان لا ينفك أحـدهما عن الآخر، كذلك في رتبة الوجود أيضاً لا يفترق أحدهما عن الآخر، فعند ثبوت وصف كمالي لأحدهما بالمطـابقة، يحكم بثبوت ذلك الـوصف للآخر بالالتـزام، مثلاً عند ثبوت تعدّد أنحاء الدعوة للقرآن العلمي، وأنّه يدعو النّاس إلىٰ سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بـالّتي هي أحسن، يحرز بأنّ أنحاء دعـوة القرآن العيني أيضاً كذلك.

وكما أنّ القرآن العلمـي يهدي للّتي هـي أقوم، كذلـك القرآن العينـي ـ أي الإمام المعصوم (عليه السلام) ـ يهدي للطـريقة المثلىٰ الّتي هـي أقوم الطـرق، والعروة الوثقىٰ الّتي هي أوثق العُرىٰ.

وهذا هو المستفاد من بيان مولانا الرضا (عليه السلام): «إنّ الإمامة زمام الدِّين ونظام المسلمين وصلاح الدُّنيا وعزُّ المؤمنين، إنّ الإمامة أُسّ الإسلام النامي وفرعه السامي، الإمام يحلّ حلال الله ويحرّم حرامـه ويقيم حدود الله ويذبّ عن دِين الله ويدعو إلىٰ سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة» [١].

تفسير الامانة المعروضة على السموات و الارض و الجبال

وحيث إنّ حقيقة القرآن العيني ـ أي الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) ـ هي حقيقة القرآن العلمـي بلا انفكاك أحدهما عن الآخر، تفسّر الأمـانة المعروضة علىٰ السّماوات والأرض والجبال، فـأبَينَ أن يحملنها وأشفقن منهـا، تارةً بالـولاية، وأُخرىٰ بالقُرآن.

وكما ورد في شأن القرآن العلمي بأنّه ﴿لَوْ أَنـزَلْنَا هَذا القُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعاً مُتَصَدِّعـاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [٢]، كذلك قال مـولانا علي المرتضىٰ (عليه افضل

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ٩٨، ح ٣٥.

٢. الحشر، ٢١.

صلوات المصلّين) عندما بلغه خبر ارتحال سهل بن حنيف الأنصاري: «لو أحبني جبل لتهافت»[١]، يعني كما أنّ الجبل لا يستطيع أن يحمل القرآن العلمي، كذلك لا يقدر علىٰ تحمّل الولاية للقرآن العيني. وكم له من أشباه ونظائر في النصوص الدالّة علىٰ أنّ الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) ـ أي الإمام ـ قرآن عيني، كما أنّ القرآن إمام علمي.

فلذا يدعو كلّ واحد منهما النّاس إلىٰ صاحبه، يعني أنّ القرآن يدعوهم إلىٰ إمامة الإمام وإطاعته، كما قال سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢]، و﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٣]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويؤتون الزكاة وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٤]، والإمام أيضاً يدعوهم إلىٰ القرآن، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «لا تطلبوا الهدىٰ في غيره فتضلّوا»[٥].

وجود المحكمات و المتشابهات في القرآن العلمي و العيني

وحيثّ إنّ الإمام (عليه السلام) قرآن ممثّل، يوجد في كلماته محكمات ومتشابهات، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «من ردّ متشابه القرآن إلىٰ محكمه، هُدي إلىٰ طريقٍ مستقيم»، ثمّ قال (عليه السلام): «إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن، ومحكماً كمحكم القرآن، فردّوا متشابهها إلىٰ محكمها، ولا تتّبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا»[٦].

وحيث إنّ المحكمات هي أُمّ الكتاب، وبها ترتضع المتشابهات وتنمو وتخرج

---

١. نهج البلاغة، قصار الحكم ١١١. ٢. النساء، ٥٩. ٣. الحشر، ٧.
٤. المائدة، ٥٥. ٥. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٠٧، ح ٤ و١٠.
٦. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٠٧، ح ٥.

عن حدّ التشابه، وتندرج في حوزة المحكمات، فعلىٰ المتدبّر في القرآن والحديث أن يعرف المحكم من كلّ منهما، ويعرف المتشابه، حتّىٰ يعرف كيفيّة رفع التشابه في ضوء المحكم.

القرآن العلمي و العيني نور إلهي متنزّل من الله

من تلك الآثار المشتركة بين القرآن العلمي والقرآن العيني، هو أنّ كلّ واحد منهما نور إلٰهي متنزّل من لدىٰ الله إلىٰ عالم الطبيعة، ولم يتخلّله الظلام أصلاً، لا في حدوثه ولا في بقائه، ولم تظلم مرتبة من مراتب نزوله، فلم يتطرّق الجهل أو الإبهام أو التعمية أو الغفلة أو النسيان أو نحو ذلك، ممّا ينافي نورانيّة القرآن العلمي أو العيني في حريم شيء منهما في درجة من درجات أيّ منهما.

أمّا في القرآن العلمي، فلما مرّ من قوله تعالىٰ: ﴿يا أيُّها النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبّكُمْ وَأنْزَلْنا إلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [1]؛ لدلالته علىٰ أنّ الّذي نزل من عند الله هو برهان لا خفاء فيه، ونور لا ظلام له أصلاً، ولا مجال لتطرّق شيء من ذلك إليه في مرتبةٍ من مراتب تنزلاته؛ لقوله تعالىٰ: ﴿في صُحُفٍ مُكَرَّمة مَرْفُوعَة مُطَهَّرَة بِأيْدِي سَفَرة كِرام بَرَرَة﴾ [2]؛ لدلالته علىٰ كرامة القرآن العلمي في جميع مراتب تنزلاته عن أيّ نقص، وطهارته عن أيّ رجس، ونزاهته عن أي رجز و ....

وأمّا في القرآن العيني ـ أي الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) ـ فلقول مولانا الرضا (عليه السلام)، وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من الفرق المختلفة، فسأله بعضهم، فقال له: يابن رسول الله، بأيّ شيء تصحّ الإمامة لمدّعيها؟ إذ قال (عليه السلام): بالنصّ والدليل، قال له: فدلالة الإمام فِيمَ هي؟ قال: في العلم واستجابة الدعوة، قال: فما وجه إخباركم بما يكون؟ قال (عليه السلام): ذلك بعهد

---

١. النساء، ١٧٤.
٢. عبس، ١٦ ـ ١٣.

معهود إلينا من رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال: فما وجه إخباركم بما في قلوب النّاس؟ قال (عليه السلام) له: أما بلغك قول الرّسول (صلى الله عليه وآله): «اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله»؟ قال: بلىٰ، قال (عليه السلام): وما من مؤمن إلاّ وله فراسة بنور الله علىٰ قدر إيمانه ومبلغ استبصاره وعلمه، وقد جمع الله للأئمة منّا ما فرّقه في جميع المؤمنين، وقال عزّ وجلّ في محكم كتابه: ﴿إنَّ فِي ذٰلِكَ لآياتٍ للمتوسمين﴾[١]، فأوّل المتوسّمين رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ثمّ أميرا لمؤمنين (عليه السلام) من بعده، ثمّ الحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين (عليهم السلام) إلىٰ يوم القيامة، قال: فنظر إليه المأمون، فقال له: يا أبا الحسن زدنا مما جعل الله لكم أهل البيت، فقال الرضا (عليه السلام): إنّ الله عزّ وجلّ قد أيّدنا بروح منه مقدّسة مطهّرة ليست بملك لم تكن مع أحد ممّن مضىٰ إلاّ مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) وهي مع الأئمة منّا تسدّدهم وتوفّقهم، وهو عمود من نور بيننا وبين الله عزّوجلّ [٢].

لدلالته علىٰ أنّ الإمامة محفوفة بعمود من نور دائم فائض متّصل من الله سبحانه إلىٰ عالم الطبيعة الّذي يعيش فيه الإمام (عليه السلام) بوجوده العنصري، فجميع ما يظهر أو يصدر من الله ويتنزل إلىٰ عالم الطبيعة في قوس النزول معلوم للإمام (عليه السلام)، وهكذا جميع ما يصعد إليه من الكلم الطيّب وجميع ما يرفعه إليه من العمل الصالح، من أيّ معتقدٍ وأيّ عاملٍ في قوس الصعود مشهود له (عليه السلام).

إذ العمود النوري عبارة عن وصف كمالي وجودي مقدّس عن شوب المادّة، منزّه عن مزج الحجاب والغيبة ونحو ذلك، والإمام (عليه السلام) متّصف بذلك الوصف الوجودي من لدىٰ الله سبحانه إلىٰ الطبيعة نزولاً، ومنها إليه تعالىٰ صعوداً،

---

١. الحجر، ٧٥.

٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإجتجاجات، ص ١٣٣، ح ١٥.

فلا يخفىٰ عليـه شيء في الأرض ولا في السماء، كلّ ذلك في حوزة العـالم الإمكاني، وبإذن الله الّذي ليس كمثله شيء.

الامام التالي يستفيض من المتلوّ

وحيـث إنّ حلقـات النظام الفـاعلي نـزولاً، وكـذا حلقات النظـام الغـائي صعوداً مترتّبـة، بأن يكون بعضهـا فوق بعض، فالتـالي يستفيض من المتلـو، وهو مفيـض عليه، فـلا غـرو في احتياج بعـض مـراتـب وجود الإمـام (عليه السلام) إلىٰ بعضهـا الآخر، كما أنّ الأمـر في نفس العمـود النوري أيضـاً كذلـك. فلو لم يعلـم الإمام(عليه السلام) بوجوده العنصري أمـراً، يمكـن أن يستفيده من بـاطن وجوده، كما في غيره (عليه السلام) من المجرّدات المستكفية بباطن ذاتها.

وليس الإمام (عليه السلام) منحصراً في وجوده العنصري، حتّىٰ يوجـب جهله بوجوده العنصري جهلـه مطلقاً؛ لأنّ العمود النوري أيضـاً كذلك؛ لأنّه مـع كونه بتمام مراتبـه نوراً، لكنّه لا يخلـو عن شوب جهـل. إذ مراتبـه النازلة جـاهلة بما في مراتبه العالية، وإن كان متن ذلك العمود النوري معصوماً عن الخطأ ومصوناً عن الجهل والغيبة ونحو ذلك.

وليس ذلك التسديد والتوفيق بنحـو الحال الّتي تزول حيناً وتعود حيناً آخر، بل بنحو الملكة الحاضرة دائماً، فلا حجاب بين الإمام (عليه السلام) وبين الله سبحانه. إذ لا حجاب بين ذلـك العمود النـوري وبين منوّره الّـذي هو الله سبحـانه، فـلا حجاب أيضاً بين الإمام (عليه السلام) وبين العالم الخارج؛ لأنّ ذلك العمود النوري قد أبان لـه كلّ شيء، وبـه يضيء له كـلّ شيء بإذن الله، وبهذا العمـود النوري يكـون الغيب مشهوداً للإمام (عليه السلام).

وممّا يشهـد له، أنّـه لمّا قال مـولانا الـرضا (عليه السلام) لابـن هذّاب: «إن أنـا

أخبرتك أنّك ستبتلىٰ في هذه الأيّام بذي رحم لك لكنت مصدّقاً لي؟ قال: لا، فإنّ الغيب لا يعلمه إلاّ الله تعالىٰ، قال (عليه السلام): أوليس أنّه تعالىٰ يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أحَداً إلاّ مَنْ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾[1]، فرسول الله مرتضىٰ، ونحن ورثة ذلك الرسول الّذي أخلفه الله علىٰ ما يشاء من غيبه فعل ما كان وما يكون إلىٰ يوم القيامة»[2].

علم الامام بالغيب بالعرض و التّبع لا بالذات و الاصالة

لأنّ انقسام الموجود إلىٰ الغيب والشهادة انقسام نسبيّ لا نفسي؛ لأنّ الموجود المجرَّد الغائب عن عالم الطبيعة، فهو مشهود لنفسه ولعلله العالية، ومعنىٰ كون الله تعالىٰ عالماً بالغيب والشهادة، هو الارشاد إلىٰ نفي الغيب بالقياس إليه تعالى. إذ العلم عبارة عن الشهود، وهو لا يجتمع مع الغيب، فليس معناه أنّ هناك غيباً وهو مع أنه غيب معلوم لله سبحانه، فإذا كان العمود النوري المرتبط بالله العالم بالغيب والشهادة مع الإمام المعصوم (عليه السلام) مسدّداً وموفّقاً له، فهو أيضاً يعلم الغيب، ولكن لا بالذات والأصالة، بل بالعرض والتبع في خصوص ما ظهر من الله في العالم، دون ما استأثره الله لنفسه من الغيب المحض الّذي لم يظهر ولن يظهر، لخروجه عن العالم، كخروجه عن البحث.

وإلىٰ هذا العمود النوري أشار مولانا الرضا (عليه السلام) في قوله: «الأئمة علماء حلماء صادقون مفهمون محدَّثون»[3]، وقوله (عليه السلام): «لنا أعين لا تشبه أعين النّاس، وفيها نور ليس للشيطان فيها نصيب»[4].

وليس المراد من الأعين هنا، هي الأعين الّتي ترىٰ الأجسام والألوان، بل هي

---

١. الجن، ٢٧. ٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٩٧، ح ٦.

٣،٤. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ١٠٢، ح ٣٨.

الأعين الّتي في الصّدور، وترىٰ الآيات الإلٰهيّة وما فوقها، كما قال أميرالمؤمنين (عليه السلام): «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحائق الإيمان»[١]، وهذه الأعين للمؤمنين علىٰ ماهم من الدرجات دون غيرهم؛ لأنّهم عمي لا يبصرون، كما قال سبحانه: ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب الّتي في الصدور﴾[٢].

قداسة الأعين التي ترى الحق

والسرّ في قداسة تلك الأعين عن الشيطان هو إخلاصها؛ لأنّ تلك الأعين هي القلوب الوالهة المخبتة إليه المخلصة له، وقد اعترف الشيطان بعجزه عن إغواء المخلصين وإضلالهم واحتناكهم، وما إلىٰ ذلك من شروره ووساوسه ودسائسه وحبائله وأشراكه؛ لأنّ أقصىٰ مقامه هو التجرُّد الخيالي والوهمي، ولا مجال له في التجرُّد العقلي التام، فلا يعلم ما يريده المخلَص، حتّىٰ يسوّل له ويدسّ في مراده، كما أنّ جميع ذخائره وزخارفه معرَض عنها للعبد الّذي استخلصه الله لنفسه، فلا نصيب للشيطان في علمه وعمله.

وبهذا العمود النوري المسدّد والموفّق يعلم الإمام المعصوم (عليه السلام) ما في الصّدور من الإيمان والنفاق؛ لأنّ الباطن قد أضاء له بذلك النور كالظاهر، فلا حجاب له، فلذا كتب مولانا الرضا (عليه السلام) رسالة إلىٰ بعض أصحابه: «إنّا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وبحقيقة النفاق»[٣]؛ لأنّ قلوب العباد كقوالبهم مكشوفة لمن له عمود نوري من تخوم عالم الطبيعة إلىٰ عنان عالم الغيب، فلا استتار هناك؛ ويشهد له ما رواه حمزة بن عبدالمطّلب بن عبدالله الجعفي قال:

---

١. نهج البلاغة، خطبة ١٧٩.   ٢. الحج، ٤٦.

٣. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، باب دلالات الرضا، ص ١٥٦، ح ٢٢٦.

دخلت على الرضا (عليه السلام) ومعي صحيفة أو قرطاس فيه عن جعفر (عليه السلام): أنّ الدنيا مثلت لصاحب هذا الأمر في مثل فلقة الجوزة، فقال: «يا حمزة، ذا والله حقّ فانقلوه إلىٰ أديم»[1].

عدم امكان تغرير الدنيا للامام

والمستفاد من هذا الحديث الشريف هو أنّ الدُّنيا، وإن كانت بالنسبة إلىٰ غير الإمام كالجوز الّذي لم يفلق، فلا يعلم ما في جوفه وباطنه، إلاّ أنّها بالنسبة إليه (عليه السلام) كالجوز المفلوق الّذي فلقه فالق الحبّ والنوىٰ، فيعلم ما في جوفه، كما يعلم قشره وما في ظاهره من الخطوط والنقوش ونحو ذلك.

فلذا لا يمكن أن تغرّ الدُّنيا الإمام (عليه السلام) مع كونها غروراً للنّاس، كما أنّ المستفاد من هذا البيان النوري، هو الاهتمام بالتعلّم أوّلاً، وكتابة العلم ثانياً، وضبط خصوص ما يرجع إلىٰ الإمامة وعلم الإمام وإحاطة علمه (عليه السلام) بجميع الدُّنيا وعدم احتجاب شيء منها عن علمه (عليه السلام) ثالثاً.

وهذا من غرر الأحاديث الباعثة علىٰ التعلّم، وكتابة الحديث، ومعرفة شأن الإمام (عليه السلام)؛ لظهوره في اهتمام مولانا الرضا (عليه السلام) بضبط الحديث في أديم، حتّىٰ يصان عن الخرق والاندراس؛ لأنّ الأديم أحفظ من القرطاس الّذي يسرع إليه البلىٰ، ويبادر إليه الدروس، ويسبق إليه العفا، ويقرب منه الانمحاء.

عدم احتياج الامام في نقل شيء إلى الاستناد

فإذا تبيّن أنّ بين الإمام المعصوم (عليه السلام) وبين الله سبحانه عموداً من نور، يتّضح ما رُوي عن مولانا أبي جعفر الباقر (عليه السلام): «ما أحد أكذب علىٰ الله

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، باب دلالات الرضا، ص ١٧٢، ح ٢٦٨ و ص ١٠٩، ح ٦٥.

وعلىٰ رسوله ممن كذّبنا أهل البيت وكذب علينا؛ لأنّه إذا كذّبنا أو كذب علينا فقد كذّب الله ورسوله؛ لأنّا إنّما نحدّث عن الله تبارك وتعالىٰ وعن رسوله»[١].

فكما أنّه لا يحتاج الإمام (عليه السلام) في نقل شيء عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلىٰ راوٍ وناقلٍ، بل يكون مرسله خيراً من مسند غيره؛ للارتباط النوري بينهما، كذلك لا يحتاج الإمام المعصوم (عليه السلام) في نقل شيء عن الله سبحانه فيما لا يرجع إلىٰ التشريع وبيان الأحكام العمليّة إلىٰ رواية راوٍ أو نقل حاكٍ.

ويشهد له ما رواه المفيد (رحمه الله) عن سالم بن أبي حفصة قال: «لما هلك أبو جعفر محمّد بن علي الباقر (عليه السلام)، قلت لأصحابي انتظروني، حتّىٰ أدخل علىٰ أبي عبدالله جعفر بن محمد (عليه السلام) فأُعزّيه، فدخلت عليه فعزّيته، ثمّ قلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ذهب والله من كان يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فلا يسأل عمّن بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لا والله لا يُرىٰ مثله أبداً، قال: فسكت أبو عبدالله (عليه السلام) ساعة، ثمّ قال: قال الله عزّ وجلّ: إنّ من عبادي من يتصدّق بشقّ تمرة، فاربّيها له فيها، كما يربّي أحدكم فِلْوَه، حتّى أجعلها له مثل أُحد»[٢].

والسرّ في ذلك، هو أنّ الإمام المعصوم يسمع ما يسمعه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ويرىٰ ما يراه، إلاّ أنّه ليس بنبي، كما قاله رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعليٍّ (عليه السلام) حين قال (عليه السلام): «ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه (صلى الله عليه وآله)، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال (صلى الله عليه وآله): هذا الشيطان قد ايس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع، وترىٰ ما أرىٰ، إلاّ أنّك لست بنبيّ ولكنّك لوزير، وأنّك لعلىٰ خير...»[٣].

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، باب دلالات الرضا، ص ١٦٠، ح ٢٣٥.

٢. بحار، ج ٤٧، باب ٤، ص ٢٧، ح ٢٧.

٣. نهج البلاغة، الخطبة القاصعة ١٩٢.

منام الامام المعصوم و يقظته واحدة

والحاصل، إنّ القرآن العيني ـ أي الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) ـ كالقرآن العلمي، متنوّر بعمود نوري بينه وبين الله سبحانه وتعالىٰ، يرىٰ ما لا يراه غيره بعين لا تشبه عين غيره، ليس للشيطان فيها نصيب، ولا تغفل تلك العين ولا تجهل ولا تأخذها سنة ولا نوم لا بالذات والأصالة، بل بالعرض والتبع، لكون تلك العين النوريّة مظهر الله الّذي لا تأخذه سنة ولا نوم بالذات.

ولذا يكون منام الإمام المعصوم (عليه السلام) ويقظته واحدة، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام) لحسن بن علي بن بنت الياس ابتداءً : «إنّ أبي كان عندي البارحة، قلت: أبوك؟ قال (عليه السلام): أبي، قلت: أبوك؟ قال (عليه السلام) أبي، قلت: أبوك؟ قال في المنام: إنّ جعفراً (عليه السلام) كان يجيء إلىٰ أبي فيقول: يا بني افعل كذا، يا بني افعل كذا، قال: فدخلت عليه بعد ذلك، فقال (عليه السلام): يا حسن إنّ منامنا ويقظتنا واحدة» [1].

والسرّ في ذلك، هو كون ذلك العمود النوري قائماً بمن هو نور السّماوات والأرض، ومرتبطاً بمن لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء، ومتّصلاً بمن لا يكون نسياً، ومستنداً بمن لا تأخذه سنة ولا نوم، كما أنّ القرآن العلمي أيضاً كذلك، مع كونه موجوداً ممكناً فائضاً من لدنه تعالى.

فإذا كان ذلك العمود النوري المطهّر عن رجس الجهل ورجز الغفلة ونحو ذلك، موفقاً للإمام (عليه السلام) ومسدّداً له، فلا يكون بين نوم ذلك الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) ويقظته فرق. إذ تنام عينه الظاهرة ولا تنام عينه الباطنة الّتي لا تشبه أعين الناس. وهذا هو الأصل الّذي يترتّب عليه غير واحد من الفروع الّتي تقدّم بعضها.

---

١. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ١٥٨، ح ٢٣٤.

من ذلك، قول مولانا الرضا (عليه السلام) لمن حضر عنده من علماء الكوفة ومتكلّميها: «إني أُريد أن أجعل لكم حظّاً من نفسي، كما جعلت لأهل البصرة، وإنّ الله قد أعلمني بكل كتاب أنزله»[1]. وللكلام تتمّة سيأتي بيانها.

تبصرة: في بطلان الفرق بين القرآن العلمي و العيني

فإذا تبيّن أنّ الإمام (عليه السلام) قرآن عيني، وأنّه لا يفترق عن القرآن العلمي، كما لا يفترق القرآن العلمي عنه، لكون كلّ واحد منهما يدعو إلىٰ صاحبه، فلا يصحّ الفرق بينهما، بأن يتمسّك بأحدهما دون الآخر، إذ أخذ كلّ واحد منهما بدون صاحبه بمنزلة ترك كليهما، فلا يجوز الاكتفاء بأحدهما وحده، لا بالتفريط ولا بالإفراط، فلا مجال للغلوّ في القرآن العلمي بالتفريط في القرآن العيني، بأن يقال: حسبنا كتاب الله، ولا مجال أيضاً للغلوّ في القرآن العيني بالتفريط في القرآن العلمي، بأن يقال: حسبنا ما جاء عن العترة الطاهرة.

إذ كلّ واحد من طرفي الإفراط والتفريط جاهليّة جهلاء، كما مرّ أنّ إنكار القرآن العلمي جاهليّة، والإعراض عن الإمام المعصوم (عليه السلام) أيضاً جاهليّة، فالحياة العقليّة هي الاتّباع لما رواه الفريقان عن العقل الأوّل خاتم الرسل (صلى الله عليه وآله): «إنّي تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي، فانظروني كيف تخلفوني فيهما»[2].

عدم العصمة يورث ثلمة في الاسلام

ومنشأ الاكتفاء بأحدهما دون الحاجة إلىٰ الآخر، هو توهّم عدم صيانة ذلك الآخر، مثلاً إنّ القول بكفاية القرآن العلمي ناشئ عن توهّم عدم عصمة العترة

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ١٠١، ح ٧.

٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ١٠٦، ح ٤٩.

الطاهرة عن الخطأ في العلم، وعن الخطيئة في العمل، وإنّ القول بكفاية القرآن العيني ـ أي العترة الطاهرة ـ ناشئ عن حسبان عدم عصمة القرآن العلمي عن لوث التحريف ورجس التصحيف و...

وكما أنّ القول بعدم عصمة العترة الطاهرة يورث ثلمة في الإسلام لا يسدّها شيء، كذلك القول بعدم عصمة القرآن العلمي عن التحريف يوجب ثلمة فيه، يالها من خسارة غير متداركة. ومحققو الإماميّة من ذلك بُرَاء؛ لأنّ الله ـ الّذي قال في حقّ القرآن العلمي: ﴿إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]، وقال في حقّ القرآن العيني: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾[2]ـ منه بريءٌ، وكذا رسوله ـ الّذي قال في حقّ القرآنَين العلمي والعيني: «إنّي تارك فيكم الثقلين»[3]ـ منه بريءٌ.

عدم الافتراق بين القرآن و العترة عند الامامية

فالإمامية ـ أي الفرقة الناجية ـ تقول: إنّ القرآن والعترة من عند ربّنا، نؤمن بهما ولا نفرّق بينهما؛ لأنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا علىٰ رسول الله الّذي خلّفهما في أُمّته عند الحوض، والإفراط في حقّ العترة بعينه تفريط في حقّ القرآن وموجب لحرمان المجتمعات، بل الحوزات العلميّة من علومه.

إذ القول بعدم حجّية ظواهره، لكونه ـ معاذ الله ـ محرَّفاً يوجب أن لا يجعل القرآن مداراً للدرس والبحث في المدارس المعتبرة، ويوجب خروجه عن محور التحليل والتفسير، كما أنّ الإفراط في حقّه بعينه تفريط في حقّ العترة الطاهرة وموجب لحرمان الأُمّة الإسلاميّة من زعامتهم وهدايتهم وحكومتهم وقيادتهم.

---

١. الحجر، ٩. ٢. الأحزاب، ٣٣.

٣. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ١٠٦، ح ٤٩, ٥٠.

إذ القول بعدم عصمتهم ـ معاذ الله ـ يوجب أن لا تكون سيرتهم وسنّتهم الّتي هي سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) وسنّته (صلى الله عليه وآله) أُسوة للأُمّة الإسلامية، ويوجب أن يحكم بأنّهم وسائر الناس سواء، مع أنّ مولانا الرضا (عليه السلام) قال: «نحن سادة في الدُّنيا وملوك في الأرض»[1]، كما كتب مولانا أميرالمؤمنين (عليه السلام) إلىٰ معاوية: «... ولولا ما نهىٰ الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمّة... فإنّا صنائع ربّنا والنّاس بعد صنائع لنا...»[2]، فأين الثرىٰ من الثريّا!؟.

الائمة مجاري فيض الله

لأنّهم (عليهم السلام) مجاري فيض الله ووسائط لطفه، وإن كان الكلّ مخلوقاً لله الخالق كلّ شيء، إلاّ أنّ قبول بعض الأشياء للفيض يتوقّف علىٰ سبق فيض آخر، لا أنّ إفاضته تعالىٰ تكون كذلك. إذ القبول والاستفاضة مقيّد لا الفعل والإفاضة، فلذا تكون الأئمة (عليهم السلام) صنائع الله بلا واسطة، والنّاس صنائع الله تعالىٰ مع الواسطة، فلا يمكن لهم أن يستفيضوا من الله سبحانه إلاّ بواسطة الأئمة (عليهم السلام)، لا أنّ الله تعالىٰ لا يقدر علىٰ الإفاضة إلاّ بوساطتهم.

وكم فرق بين الأمرين، وحيث إنّهم (عليهم السلام) وسائط الفيض للناس، فيجب عليهم طاعة الأئمة (عليهم السلام)، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام) في جواب من سأله، طاعتكم مفترضة: نعم، فقال: مثل طاعة علي بن أبي طالب (عليه السلام)؟، قال (عليه السلام): نعم[3].

وقال (عليه السلام) في تطبيق قوله تعالى: ﴿... وَإِلىٰ الجِبٰالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾[4]

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ١٠٧، ح ٥٢.

٢. نهج البلاغة، كتاب ٢٨.

٣. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ١٠٣، ح ٣٥.

٤. الغاشية، ١٩.

الأوصياء[1]، يعني أنهم جبال دِين الله ورواسيه المانعة له عن الميَدان والاضطراب، كما قال أميرالمؤمنين (عليه السلام) في حقّهم (عليهم السلام): «هم (عليهم السلام) موضع سرّه... وكهوف كتبه وجبال دِينه، بهم أقام أنحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه»[2]، ولولا عصمتهم عن الخطأ وصيانتهم عن الخطيئة لما كانوا جبالاً رواسي، ولما كانوا قادرين علىٰ إقامة انحناء ظهر الدِّين، وإذهاب ارتعاد فرائصه، وما إلىٰ ذلك من الشؤون الموقوفة علىٰ العصمة.

الائمة كلهم من نور واحد

وبالجملة، لو ضلّ الإمام في مورد علمي أو زلّ في أمر عملي أو سها في حكم إلٰهي أو نسي وحياً سماوياً أو فسّره بهاجس نفساني ـ والعياذ بالله ـ لافترق في ذلك عن القرآن المصون عن ذلك كلّه، مع أنّ الصادق المصدق الأمين علىٰ وحي الله قد أعلن وأعلم، بأنّهما لن يفترقا... ، كما أنّ الزعم الزائف في تحريف القرآن ـ معاذ الله ـ حكم بافتراقه عن العترة المعصومة المصونة من حيث لايحتسب. رزقنا الله التمسّك التامّ بهما، ولا يفرّق بيننا وبينهما أبداً، ووفّقنا لأن لانفرّق بين أحد من هؤلاء السادة؛ لأنهم من نور واحد، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام) لابن أبي سعيد المكاري، لما قال له (عليه السلام): «أبلغ من قدرك أن تدّعي ما ادّعىٰ أبوك، مالك أطفأ الله نورك وأدخل الفقر بيتك، أما علمت أنّ الله أوحىٰ إلىٰ عمران، انّي واهب لك ذكراً، فوهب له مريم، ووهب لمريم عيسىٰ فعيسىٰ من مريم، ومريم وعيسىٰ شيء واحد، وأنا من أبي وأبي منّي، وأنا وأبي شيء واحد»[3].

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٨٢، ح ٢٠٢.

٢. نهج البلاغة، خطبة، ٢.

٣. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، باب دلالات الرضا، ص ١٧٢، ح ٢٦٦.

تفاوت الائمة في مقام الظهور لا في التحقّق

والسرّ في ذلك، هو أنّ حقيقة الولاية والإمامة والخلافة وما إلىٰ ذلك من الحقائق الإنسانيّة، أمر نوري واحد لا تعدّد فيه هناك، وإن يتجلّىٰ بصورٍ متعدّدة في موطن الكثرة. فلذا يكون الأولياء الكُمّل بعضهم من بعض ولا تفاوت بينهم في ذلك، إلّا في مقام الظهور والبروز، لا في أصل التحقّق والحصول، ومن أظهر مصاديقه ما اشتهر نقله عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّه قال (صلى الله عليه وآله): «حسين منّي وأنا من حسين»[1].

وحيث إنّ ملاك الاتّحاد هو إخلاصهم لله الواحد القهّار، وفناؤهم في فِنائه سبحانه، فلذا يكون بعضهم من بعض، وكلام كلّ واحد منهم هو كلام الآخر، وكلام الكلّ هو كلام خالقهم وبارئهم ومعلّمهم، وهو الله تعالىٰ، كما نقل هشام وحماد وغيرهما عن أبي عبدالله (عليه السلام) أنّه يقول: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أميرالمؤمنين، وحديث أميرالمؤمنين (عليه السلام) حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وحديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) قول الله عزّوجلّ»[2].

فوزان الأولياء هو وزان الأنبياء (عليهم السلام)، فمن غلب عليه حكم الوحدة، قال: ﴿لا نفرّق بين أحد منهم﴾[3]، ومن غلب عليه حكم الكثرة، قال: ﴿تلك الرسل فضّلنا بعضهم علىٰ بعض﴾[4]، هكذا قيل، فتكون الوحدة باعتبار والكثرة باعتبار آخر، بلا تنافٍ بينهما.

---

١. بحارالأنوار، ج ٤٣، باب ١٢، ص ٢٦١، ح ١ و ص ٢٧٠، ح ٣٥.

٢. بحارالأنوار، ج ٢، باب ٢٣، ص ١٧٨، ح ٢٨.

٣. البقرة، ١٣٦ و آل عمران، ٨٤.

٤. البقرة، ٢٥٣.

والفرق إنّما هو في سلـوك السائر إلىٰ الله، وإن كان هذا الفـرق أمراً حقيقياً؛ لأنّ شهود الســالك الّذي يسير علىٰ الصّراط المستقيـم يطابق الخارج مـن حيث، وأن لا يخرج من حيطة نفســه ودرجات سيره من حيث آخر، وليـس الفرق المذكور فرقاً اعتباريّاً كما في العلوم الاعتباريّة.

أمّا الجنان فهي شرائط معرفة القرآن وموانعها، وبيان المعارف المستفادة منه علىٰ ضوء ما صدر عن الرضا (عليه السلام).

الجنّة الأولىٰ:

في بيان
ما هو طريق معرفة القرآن

الجنّة الأُولى:
في بيان ما هو طريق معرفة القرآن

قد تقدّم في الروضة، أنّ القرآن نور وبيان إلٰهي، وحيث إنّ النّور لا ظلام له، وإنّ البيان لا إبهام فيه، فهو بريءٌ عن أيّة ظُلمة، وخالصٌ عن شوب أيّ إبهام، فهو-في تبيين جميع ما يرجع إليه-نور وضياء، فلا يمكن أن يكون ساكتاً في تعريف طريق الوصول إليه؛ لأنّ من أظهر خواص النور هو توضيح السبيل المنتهيه إليه، وتعريف المانع عن التطرّق إليه.

فالقرآن نور في بيان شرائط معرفته، ونور في بيان موانعها، ولنأت بشطر من ذلك، ولْنُهدِ قبله مقدّمة وجيزة.

المعرفة و المعروف من سنخ واحد

أنّ المعرفة والمعروف من سنخ واحد، فإن كان المعروف محسوساً يكفيه المعرفة الحسّيّة، وإن كان متخيّلاً أو موهوماً يكفيه المعرفة الخياليّة والوهميّة، وإن كان معقولاً لا يكفيه إلاّ المعرفة العقليّة مع الانتفاع المقدمي من المعرفة الحسّيّة والخياليّة والوهمية.

وأمّا إن كان المعروف فوق ذلك، فلا يكفيه شيء منه أصلاً، بل لابدّ من

الشهود القلبي، والخروج عن رهن الحس وحبس الخيال وقيد الوهم وحجاب العلم الحصولي العقلي وما إلىٰ ذلك من الحجب الظلمانيّة والنورانيّة، حتّىٰ إذا خرقت أبصار القلوب حجب النّور، تصل إلىٰ معدن العظمة، وتصير الأرواح العتيقة عن عبوديّة أيّ مولىً من الموالي الباطلة الداخلة والخارجة معلّقة بعزّ قدس الله سبحانه، ملحقة بنور عزّه الأبهج من كلّ بهيج، فتكون له سبحانه عارفة، وعن سواه منحرفة، ومنه تعالىٰ خائفة مراقبة، خوفاً عن التلوّث بالنظر إلىٰ الغير، وعن التلطّخ برجس تمنّي سواه.

لاميز بين النبيّ و عترته إلاّ في النبوة و الرسالة دون الولاية

والحاصل، أنّ معرفة كلّ شيء إنّما هي من سنخه، وحيث إنّ القرآن حبل متّصل من تخوم عالم الحسّ إلىٰ عنان عالم العقل، ثمّ من عرش العقل إلىٰ قاب قوسين أو أدنىٰ، فلا يمكن الاعتصام بأيّ حدٍّ من حدوده، إلاّ بيد المعرفة المسانخة لذلك الحدّ، من أدنىٰ أنحائها وهو الحس إلىٰ أعلاها وهو الشهود المحض الإيماني، لمن كان له قلب لا يكذب ما رأىٰ، وله بصر لا يزيغ ولا يطغىٰ، ذاك هو رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعترته الطاهرة، الّذين هم من نور واحد، ولا ميز بينه (صلى الله عليه وآله) وبينهم (عليهم السلام) إلاّ في النبوّة والرّسالة دون الولاية الّتي هي الباطنة لأيّ مقام، وهي المشتركة بينه (صلى الله عليه وآله) وبينهم (عليهم السلام) كما مرّ.

للعلوم الاعتبارية روابط رقيقة إلى الحالات النفسانية

أضف إلىٰ ذلك كلّه، أنّ القرآن الكريم له ألفاظ دالّة علىٰ المعاني، فلا محالة يشتمل علىٰ عدّة جمّة من العلوم الأدبيّة، كالنحو والصرف واللّغة والمعاني والبيان والبديع ونحو ذلك، من العلوم الاعتباريّة الّتي وضعتها يد الاعتبار، وإن كانت

لتلك العلوم أيضاً روابط رقيقة إلىٰ الحالات النفسانيّة، من البعث والزجر والبسط والقبض والتهييج والتسكين والفرح والهمّ والنزوع والانعزال والشهرة والخمول ونحو ذلك، من الأُمور الحقيقية في الجملة، إلاّ أنّ أُسّ تلك العلوم الأدبيّة هي الاعتبارات العقلائيّة الدائرة مدارها وجوداً وعدماً، وهكذا سعةً وضيقاً. ودرجات تلك القواعد الاعتباريّة أيضاً تختلف باختلاف اعتبارها في مرتبة الحسّ والخيال والوهم، حتّىٰ ينتهي إلىٰ موقف منزّه عن الاعتبار، ومجرّد عن قيد الوضع.

وكيف كان، انّ المعروف الحقيقي لا يناله إلاّ المعرفة الحقيقية، وإنّ المعروف الاعتباريّ يكفيه المعرفة الاعتباريّة، كلّ بحياله.

إذا تمهّدت هذه المقدّمة فنقول: إنّ القرآن قد بيّن شرائط معرفة نفسه من أدناها إلىٰ أعلاها وأهمّها، ورغّب الناس في تحصيلها، وقد بيّن موانع معرفته من أرقّها إلىٰ أغلظها وأكثفها، وحذّرهم عنها، فتمام المقال في مقامين:

أحدهما: فيما يرجع إلىٰ شرائط المعرفة.

وثانيهما: فيما يرجع إلىٰ موانعها.

المقام الأوّل: في شرائط معرفة القرآن

وحيث إنّ القرآن كلام بلسان خاص، وكتاب بلغة مخصوصة، فلابدّ لسامعه وقارئه من الاطّلاع علىٰ كلماته وحروفه ومفرداته وتراكيبه؛ حتّىٰ يتيسّر له قراءته أو استماعه وانصاته له. فمن لا يعرف العربي ولا يميّزه عن غيره، وهكذا لايعرف هذا اللسان المخصوص، لا يقدر علىٰ تلاوته، الّتي هي أقلّ درجات الارتباط به، وقد أمر النّاس بذلك في غير مورد. كما قال سبحانه: ﴿... فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[1].

---

١. المزّمّل، ٢٠.

وقد كان مولانا الرضا (عليه السلام) يكثر باللّيل في فراشه من تلاوة القرآن، فإذا مرّ بآية فيها ذكر جنّة أو نار بكىٰ، وسأل الله الجنّة وتعوّذ به من النار [١].

الشرط الأوّل: الاطلاع التام على القواعد العربية

إنّ الشرط الابتدائي للتدبّر فيه، هو معرفة قواعد هذا اللّسان وعلومه الخاصّة به، حيث قال سبحانه: ﴿إِنّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٢]، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٣]، ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [٤].

معنى كون القرآن غير ذي عوج

ومعنىٰ كونه غير ذي عوج، هو أنّ القرآن لفظاً ومعنىً صراط مستقيم لا اعوجاج له، ولا يمكن تعويجه بالعلاج؛ لأنّ التعبير بغير ذي عوج إنّما هو كالتعبير بغير ذي زرع، في الدلالة علىٰ أنّه لا يمكن تغييره بالعلاج الصناعي، لا أنّه ليس بمزروع بالفعل.

وحيث إنّ القرآن بلسان عربي غير ذي عوج، يلزم الاطّلاع التامّ علىٰ قواعده حتّىٰ ينال لفظه أوّلاً، ومعناه ثانياً. وقد وصف الله سبحانه هذا اللّسان تارةً بأنّه غير ذي عوج، وتارةً أُخرىٰ بأنّه عربيّ مبين، أي يبيّن الألسنة ولا تبيّنه الألسنة. فلهذا اللسان خصّيصة لا توجد في غيره، كما قال سبحانه: ﴿لِسَانُ الّذي يُلْحِدُون إليه أَعْجَمي وَهٰذا لِسَانٌ عَرَبِي مُبِيْن﴾ [٥].

كما أنّ معاني القرآن معارف عالية، لا تنالها إلّا العقول الرفيعة عن سطوح الحسّ والخيال والوهم، حيث إنّ تلك المعارف كتب مرفوعة شأناً، وصحف

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، باب سيرته و مكارم أخلاقه.
٢. يوسف، ٢.
٣. فصّلت، ٣.
٤. الزمر، ٢٨.
٥. النحل، ١٠٣.

مطهّرة ذاتاً، كذلك ألفاظه قد جعلت بلسان عربي مبين، لا تنال قواعده إلاّ الأُدباء والفصحاء والبلغاء، فيما يرجع إلىٰ علومها الأدبيّة، الّتي هي في بادئ الأمر. فإذا حصل الشرط البدئي ـ أي الاطّلاع علىٰ قواعد العربي المبين ـ تصل النوبة إلىٰ معرفة معاني القرآن وشرائط تلك المعرفة.

أمر الناس و ترغيبهم بتلاوة القرآن

فكما أنّ الله سبحانه قد أمر بتلاوته، ورغّب النّاس إليها، وبيّن لها آداباً من الاستعاذة عند القراءة حدوثاً وبقاءً، حيث قال تعالىٰ: ﴿فَإذا قَرأتَ القُرْآن فَاْسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيْم﴾ [1]، أي استعذ بالله الّذي لا ملجأ إلاّ إليه ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ ملتحدا﴾ [2]، حتّىٰ لا يتسلّط عليك الشّيطان ﴿إنّه ليس له سلطان علىٰ الّذين آمنوا وعلىٰ ربّهم يتوكّلون إنّما سلطانه علىٰ الَّذين يتولّونه والّذين هم به مشركون﴾ [3].

آداب تلاوة القرآن

التلاوة هو الالتجاء بالله حال القراءة، لا في خصوص حدوثها، بل في تمام مدّتها حدوثاً وبقاءً.

من تلك الآداب هو الترتيل، حيث قال سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [4]، ونحو ذلك من السنن الّتي تذكر للتلاوة.

أمر الناس بالتدبر في القرآن

كذلك قد أمر بالتدبّر فيه، ورغّب النّاس إليه، وبيّن له آداباً وسنناً، وجعل

---

١. النحل، ٩٨. ٢. الجنّ، ٢٢. ٣. النحل، ١٠٠ ـ ٩٩.
٤. المزّمّل، ٤.

ذلك هـو التكليف المهمّ الإلهي، حيث قال تعالىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١)، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢)، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٣)، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٤)، إلىٰ غير ذلك من الآيات المُرغِّبة في التفكُّر والتعقُّل والتعلُّم بالنسبة إلىٰ معارف القُرآن.

معارف القرآن أمور وجودية متحقّقة

وحيث إنّها ليست محسوسة ولا متخيّلة ولا موهومة، وكذا ليست أُموراً اعتباريّة أسّستها يد الاعتبار، بل أُمور وجوديّة حقيقيّة لا تدركها الحواسّ ولا تنالها الخيالات والأوهام؛ لأنّ الله سبحانه ووحدته وعلمه المحيط بكلّ شيء، وقدرته المسيطرة علىٰ كلّ شيء، وحياته المطلقة الّتي لا يناله الموت وما إلىٰ ذلك من الأوصاف الحقيقيّة الّتي بيّنها القرآن في الالهيّات، لمّا كان منزّهاً عن منال الوهم والخيال، فضلاً عن الحسّ.

وهكذا الوحي والنبوّة والرّسالة والإمامة والخلافة والعصمة والملائكة واليوم الآخر ـ بما له من المواقف ـ لا يمكن نيلها بالحسّ الظاهر، وإن يمكن تخيّل بعضها وتوهُّم بعضها الآخر إلّا أنّ معرفتها الصحيحة إنّما هي بالعقل المحض أو الشهود التام، وكذلك لا تكون علوم القرآن كالعلوم الطبيعيّة أو التعليميّة أو الأدبيّة ممّا يمكن أن يُنال بالحسّ والتجربة أو الاعتبار، وإن كان معيار جميع العلوم والإدراكات هو العقل عند التحليل؛ لاستناد جميعها إليه، إلّا أنّ لتلك العلوم

---

١. ص، ٢٩. ٢. المؤمنون، ٦٨. ٣. النساء، ٨٢.
٤. محمد، ٢٤.

مبادئ محسوسة ينالها الحسّ، أو مبادئ اعتباريّة تنالها يد الاعتبار.

أمّا العلوم الإلٰهيّة المشار إليها، فهي فوق الحسّ والاعتبار، فلا تكون متّحدة المساق مع العلوم التجربيّة وغيرها، ممّا له مساس بالمادّة ذهناً وخارجاً أو خارجاً فقط؛ لأنّ تلك العلوم الإلٰهيّة منزّهة عنها مطلقاً، بحيث يكون التعلُّق بها مانعاً عن إدراك تلك العلوم، حسبما يأتي في بيان موانع معرفة القرآن. والكلام الآن في شرائطها.

شرائط معرفة القرآن

منها: الطهارة عن أيّ رجس، والنزاهة عن أيّ رجز، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لاٰ يَمَسُّهُ إلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [١] أي الّذي ينال ما في الكتاب المكنون عن الأجنبي، المستور عن الغير، هو الإنسان المطهّر عمّا ينجّسه، وذلك الكتاب المكنون هو ظرف هذا القرآن الكريم ومحيط به وباطنه ومعناه ومقصده، ولا تدركه الحواس.

نيل كُنه القرآن مختص بأهل البيت

ثمّ إنّه تعالىٰ ـ بعد بيان هذا الشرط المهمّ ـ قد بيّن واجديه، وعرّفهم للنّاس، حيث قال: ﴿إِنّمٰا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [٢]، ولكون التطهير إنّما هو لإزالة الآثار الباقية بعد زوال العين، ذكره الله بعد الإذهاب، أي لا مجال لعين الرجس ولا لأثره في أهل البيت (عليهم السلام)، هذا في مقام دفع الرجس رأساً، لا في مقام رفعه بعد الوجود.

ومقتضى الحصر في قوله تعالى: ﴿لاٰ يَمَسُّهُ إلاّ الْمُطَهَّرُون﴾ [٣] هو أنّ النيل

---

١. الواقعة، ٧٩ ـ ٧٧.

٢. الأحزاب، ٣٣.

٣. الواقعة، ٧٩.

بكُنه القرآن ـ الّذي هو الكتاب المكنون ـ مختصّ بأهل البيت (عليهم السلام)، وهذا هو المعيّة المتحقّقة بين الثقلين الّتي أفادها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

فالقرآن ينادي بأنّه لا يدركه حقّ الإدراك ولا يكتنهه إلّا أهل بيت الوحي والعصمة (عليهم السلام)، كما أنّهم (عليهم السلام) يدعون حقّ الدعوىٰ بأنّه لا ينال كنه القرآن ولا يعلم تأويله إلّا الراسخون في العلم، وإنّ العترة الطاهرة هم الراسخون فيه ـ وقد عقد له باب في الجوامع الروائية، كما في (بصائر الدرجات) [1] ـ وأنّهم عالمون بظاهر القرآن وباطنه، وأنّه ما جمع القرآن كلّه غير الأوصياء.

فمن كان طاهراً بأنحاء الطهارة ـ الّتي أصفاها هي الطهارة عن رؤية الاخلاص ـ كما قيل ـ فمن رُزِق الطهارة حتّىٰ عن الاخلاص، فقد مُنِحَ الخلاص ـ فهو الحري بالعلم بالكتاب المكنون، ومن لم يطهر بجميع أنحائها، بل قد تطهّر ببعضها فقط، فهو العالم بالقرآن بمقدار طهارته، حيث إنّ النيل بكُنه القرآن مشروط بالطهارة التامّة، المعبَّر عنها بالعصمة، وأنّ العترة الطاهرة معصومون بعصمةٍ إلٰهيّة؛ فلذا جعل الله سبحانه رسوله مُبيِّناً لكتابه ومُفسِّراً له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [2].

العلم بباطن القرآن عند العترة

وقد تقدّم أنّ الأئمة (عليهم السلام) ورسول الله (صلى الله عليه وآله) نورٌ واحد، لا اختلاف بينهم في الولاية، وإن امتاز (صلى الله عليه وآله) عنهم (عليهم السلام) بالنبوّة والرسالة، فهم العالمون بتفسير القرآن وتأويله وظاهره وباطنه، كما هو مقتضىٰ إطلاق المعيّة، وعدم انفكاك أحد الثقلين عن الآخر في مرتبة من المراتب الوجوديّة أصلاً، ولا يمكن النيل إلىٰ جميع الحدود الإلٰهيّة إلّا بالمراجعة إلىٰ العترة

---

١. بصائر الدرجات، ص ٩٦.

٢. النحل، ٤٤.

الطاهرة، كما لا يمكن الاعتماد علىٰ ما نقل عنهم إلاّ بعد عرضه علىٰ القرآن، سواء في ذلك الأخبار المتعارضة وغيرها، حسبما تواتر نقله عنهم (عليهم السلام)، وهذا أيضاً مقتضىٰ إطلاق المعيّة بينهما. والعارف باسلوب الثقلين يعلم أنّه كيف يتوقّف فهم كلّ منهما علىٰ الآخر، حتّىٰ لا يلزم محذور الدور، بل إنّما يترتّب عليه أثر التلازم، وامتناع افتراق أحدهما عن صاحبه.

وإلىٰ ما ذكر ـ من أنّ العلم بباطن القرآن، وكذا تأويله عند العترة الطاهرة ـ أشار مولانا الرضا (عليه السلام) لما قاله (عليه السلام) علي بن محمّد بن الجهم: يابن رسول الله(صلى الله عليه وآله) أتقول بعصمة الأنبياء؟ قال (عليه السلام): بلىٰ، قال: فما تعمل في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ و...﴾ [1] حيث قال (عليه السلام): ويحك يا عليّ، اتّقِ الله ولا تنسب إلىٰ أنبياء الله الفواحش، ولا تتأوّل كتاب الله عزّ وجلّ برأيك، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمٰا يَعْلَمُ تأوِيلَهُ إلاّ الله وَالرّاسِخُونَ فِي العِلْمِ...﴾ [2].

ترغيب الله في تحصيل الطهارة

فتحصَّل، أنّ القرآن من الصحف المطهّرة، كما قال سبحانه: ﴿في صُحُفٍ مُكرّمة مَرْفُوعة مُطهّرة﴾ [3]، وقال أيضاً: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَة﴾ [4]، وقد تقدّم أن معرفة كلّ شيء فهو من سنخ ذلك الشيء، فمعرفة الصحيفة المطهّرة لابدّ وأن تكون مطهّرة عن رهن الوهم ورين الخيال وصداء الغفلة.

ومن المعلوم أنّ المتوهّم والمتخيّل ومن ابتُلي بصداء الغفلة، لاينال المعرفة المطهّرة، ولا تجعل هي نصيباً له، وقد عرّف الله سبحانه المطهّرين ـ وهم العترة

---

١. طه، ١٢١. ٢. آل عمران، ٧. ٣. عبس، ١٦ ـ ١٤.
٤. البيّنة، ٢.

المعصومة (عليهم السلام) ـ ثـمّ أنّه تعالىٰ رغَّب النّـاس في تحصيل الطهارة، بـأن قال: ﴿إنّ اللهَ يُحِبُّ التوّابينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِيْنَ﴾ (١)، وقال: ﴿واللهُ يُحبُّ المُطّهرِينَ﴾ (٢)؛ لأنّ الحكم بمحبـوبيّة الإنسان المتطهِّر لله سبحـانه، ترغيب لهم في تحصيـل ملاك المحبّة، وقد بيَّن سبحانه طرق التطهير.

طرق تحصيل الطهارة

منها: الإنفاق في سبيل الله، كقوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهٰا﴾ (٣).

منها: رعـاية الحجـاب والعفاف، كقولـه تعالىٰ: ﴿وإذٰا سَألْتُمُـوهُنَّ مَتٰاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجٰابٍ ذٰلِكُمْ أطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (٤).

منها: الطهارة المائيّـة والترابيّة لما يشترط بها كالصّلاة، كقـوله تعالىٰ: ﴿وإنْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أوْ عَلىٰ سَفَرٍ أوْ جٰاءَ أحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغٰائِط أو لامَسْتُمُ النّسٰاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مٰاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيْداً طَيّباً... وَلٰكِنْ يُرِيْد لِيُطَهِّرَكُمْ وَلْيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ...﴾ (٥).

إذ المراد من الطهارة في هذه الآية ليـس هو مجرّد النظافة، وإلاّ لما اعتبر فيها القربة أوّلاً، ولما كانت حاصلة بالتراب ـ كما في التيمّم ـ ثانياً. إذ ليس تتريبُ الوجه واليدين تطهيراً للشخـص، بل المراد منها هي الطهارة عن دنـس الهوىٰ، والنزاهة عن رجس الغرور ونحو ذلك، وأن يصحبها النظافة الظاهريّة في الجملة أيضا.

أساس الطهارة العبادة لله

ومنها: التردّد إلىٰ المسـاجد، المؤسّسة علىٰ التّقوىٰ لإقـامة الصلاة ونحـوها،

---

١. البقرة، ٢٢. ٢. التوبة، ١٠٨. ٣. التوبة، ١٠٣.
٤. الأحزاب، ٥٣. ٥. المائدة، ٦.

كقولـه تعالىٰ: ﴿فِيْهِ رِجَـالٌ يُحِبُّوْنَ أنْ يَتَطَهَّروا واللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِـرِيْنَ﴾[1]، إلىٰ غير ذلك من الشواهد الدالّة علىٰ أنّ أساس الطهارة هو العبادة لله سبحانه فيما أمر به أو نهىٰ عنه.

فمن كـان أعبد وأطـوع له تعالىٰ فهـو أطهر وأزكـىٰ، ونصيبه مـن الصحف المطهّـرة أكثر وأوفـر، ومن استنكـف واستكبر عن عبـادته فهـو متدنّـس برجـس الطغيان ورجز العَمَه في سكرة الطبيعة، فلا نصيب له من تلك الصحف المطهّرة؛ لفقدان شرط المعرفة ـــ وهي الطهارة ـ كما قال تعالىٰ: ﴿... وَمَـنْ يرد الله فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلك لَهُ مِـنَ اللهِ شَيْئاً اُولٰئِكَ الَّذِيـنَ لَمْ يُرِد الله أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُم في الـدُّنْيا خِزي وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيْمٌ﴾[2].

والمراد من الإرادة في هذه الآية هي التكوينيّة منها، لا التشريعية؛ لإطلاقها وسعتها بـالنسبة إلىٰ جميع المكلّفين، حيث إنّـه تعالىٰ أراد بإرادة تشريعيّة عـامّة أن يطهِّر جميع العباد ويزكّيهم؛ ولذا جعلهم تجاه التكاليف المطهّرة لهم المزكّية إيّاهم، سواسية. ولكن قد أعرض طائفة منهم عنها، وغرَّتهم الحياة الدُّنيا واشتروها بالحياة الآخرة، فـأُولئك الّـذين لم يـرد الله تكوينـاً أن يُطهِّر قلـوبهم، كما أنّ الإرادة في آية التطهير هي التكوينيّة منها؛ لأنّها هي المختصّة بالعترة الطاهرة، وأمّا إرادة التطهير بإرادة تشريعيّة فهي عامّة لغيرهم أيضاً.

ومن الشواهـد علىٰ أنّ الطهارة في هذه الآيات هـي الطهارة المعنويّة، قـوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يُرِد الله أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ...﴾[3]، حيث إنّه جعل متعلّق التطهير قلوب هؤلاء وبواطنهم، لا الأبدان والظواهر.

هذا، كما أنّ الله سبحانه قد أراد بإرادة تشريعيّة عامّة، أن يرتفع جميع العباد من حضيـض عالم الطبيعـة، ويرتقـوا إلىٰ ما وراءها، فلـذا كلّفهم بـأُمور عبـاديّة

---

١. التوبة، ١٠٨. ٢،٣. المائدة، ٤١.

يتقرَّبون بها إلىٰ الله الّذي هو الكمال المحض، أي يرتفعون إليه، ولم يخصّ بعضهم دون بعض بما يوجب الرفعة، بل أذِن لهم جميعاً أن يتكاملوا، وجعل جميع الأمكنة والأزمنة في ذلك سواء بالاذن التشريعي العام، إلاّ أنّه تعالىٰ جعل المساجد والمشاهد المشرّفة بيوتاً خاصّة، وأراد وأذِن تكويناً أن ترتفع تلك الأماكن بحيث لا يمكن أن يمنعه شيء، حيث قال تعالىٰ: ﴿... في بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَع﴾[1].

فالاتيان إلىٰ المساجد والتردّد إلىٰ المشاهد المشرّفة يوجب الترفّع الممدوح، كما قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِيْنَ أُوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾[2]، فإذا صار الإنسان المتعبِّد بما أمره الثقلان رفيعاً بإذن الله، تنال يد عقله صحفاً مرفوعة عن نشأة الحسّ والخيال والوهم وعن موطن الطبيعة.

من شرائط معرفة القرآن الارتفاع عن حضيض الطبيعة

من هنا يظهر، أنّ هنا شرطاً آخر لمعرفة القرآن هو الرفعة عن حضيض الطبيعة، وإنّ العترة الطاهرة (عليهم السلام) وأولياءهم وتابعيهم هم الّذين رفعهم الله، وأنّ طريق تحصيل تلك الرفعة هو إتيان المساجد والمشاهد الرفيعة والتعبُّد بما أمره الكتاب والعترة.

وإنّ الّذين قد أعرضوا عن تلك البيوت الرفيعة، ولم يتعبَّدوا بما في الكتاب والسنّة، أُولئك لم يرد الله أن يرفعهم عن حضيض الطبيعة تكويناً، وإن أراد رفعتهم عنها تشريعاً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلٰكِنَّهُ أخْلَدَ إلىٰ الأرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾[3]، حيث أنّه تعالىٰ أراد رفعه تشريعاً وآتاه من آياته، إلاّ أنّه انسلخ منها ومال إلىٰ الأرض، ولم يحصّل ما هو شرط إرادته التكوينيّة لرفعته، فلذا لم يرد الله أن يرفعه تكويناً.

---

١. النور، ٣٦. ٢. المجادلة، ١١. ٣. الأعراف، ١٧٦.

وقد انصرح، أن استنباط هذا الشرط إنّما هو من تـوصيف الله سبحانه تلك الصحف الإلهيّة بالرفعة، وقد تقدّم إنّ معرفة كلّ شيء إنّما هي من سنخه، فلابدّ في معرفة الصحيفة الرفيعة من رفعة عارفها ـ حسبما تقرّر في شرطيّة الطهارة للمعرفة ـ لأنّ توصيـف الصحيفة بـالرفعة في قـوّة أن يقال: لا يمسّهـا إلاّ الّذيـن رفعهُم الله مكاناً عليّاً.

من شرائط معرفة القرآن الكرامة عن كل دنيئة

ومن هنا يظهر، أنّ من شرائط معرفة القـرآن الكرامة عن كلّ دنيئة؛ لأنّ من أوصاف الصحف الإلٰهيّـة ـ الّتي يكون القـرآن من أشرفها ـ هـو التكرّم الإلٰهي، كما قال تعـالىٰ: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَة ... بِـأَيْدِي سَفَرَة كِـرَامٍ بَرَرَة﴾ [١]، كما أنّه تعـالىٰ وصفه ـ أي القرآن نفسه ـ بالكرامة، حيث قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيْمٌ﴾ [٢].

فيستفاد منه أنّ القرآن مظهر للإسم الكريم، حيث إنّه من الأسماء الحُسنىٰ الإلٰهيّة؛ لقولـه تعالىٰ: ﴿قَالَ هٰذا مِـنْ فَضْلِ رَبِّيٌ لِيَبْلُوَني أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُـرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيْم﴾ [٣].

توصيف القرآن بوصفٍ ارشادٌ إلى تحصيل ذلك

ولا خفـاء في أنّ توصيـف كتاب بـوصف خـاص، يرشـد إلىٰ لزوم تحصيـل ما يـرتبط منـه إلىٰ من يباشره ويـزاوله في معـرفة ذلك الكتـاب، مثلاً إنّ تـوصيف القرآن بأنّـه ﴿عَرَبِي مُبِين﴾ [٤] يدلّ علىٰ أنّ العـارف بالقواعـد العربيّة هـو الّذي يقدر علىٰ معرفته، فكـذا توصيفه بالكرامة يدلّ علىٰ أنّ الإنسان الكـريم هو الّذي يتيسّر لـه معرفتـه؛ لأنّ الـرسول الكـريـم، وكذا القـرآن ا لكـريم، لا ينطقـان إلاّ

---

١. عبس، ١٥ ـ ١٣.   ٢. الواقعة، ٧٧.   ٣. النمل، ٤٠.
٤. الشعراء، ١٩٥ و النحل، ١٠٣.

بالكرامة، فمن لا سهم له منها، كيف يقدر علىٰ معرفتها!؟

مدار الكرامة هي التقوى

وقد بيّن الله سبحانه مدار الكرامة، وهي التقوىٰ، إذ بحدوثه تحدث الكرامة، وببقائه تبقىٰ، وبشدّته وقوّته تشتدُّ الكرامة وتقوىٰ، حيث قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [1]، وبزواله تزول وتنتفي رأساً. إذ لو زال التقوىٰ بالطغوىٰ لزالت الكرامة بالإهانة، كما قال تعالىٰ: ﴿... وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [2]؛ لأنّ الله تعالىٰ لا يكرم إلاّ المتّقين، فمن انسلخ عن التقوىٰ بالطغيان، فقد بدّل كرامته بالهوان بسوء اختياره، فلا نصيب له من كتاب يحوم حول الكرامة وتحوم حوله الكرامة.

فعليه، تكون الكرامة عن الدناءة الدنيويّة شرطاً مهمّاً لمعرفة القرآن الكريم؛ لأنّ توصيفه بالكرامة في قوّة القول: بأنّه لا يمسّه إلاّ من أكرمه الله عن عَرَض هذا الأدنى.

فمن غرّته الدُّنيا وباع حظّه بالأرذل الأدنىٰ وشرىٰ آخرته بالثمن الأوكس وتغطرس وتردّىٰ في هواه، لا يرث من الكتاب الكريم شيئاً، وإن تلاه وقبّله وجعله علىٰ رأسه أحياناً، والسر هو ما أُشير إليه.

من شرائط معرفة القرآن معرفة الغيب و الايمان به

ومن تلك الشرائط، معرفة الغيب والإيمان به في الجملة، إذ القرآن ـ كما تقدّم ـ يخبر عن الغيب وباطن العالم، فمن يرىٰ أنّ الوجود مساوق للمادّة، وأنّ كلّ موجود مادّي، وأنّ ما لا مادّة له فهو غير موجود حقيقي، بل خرافي أبدعه الوهم

---

١. الحجرات، ١٣.
٢. الحج، ١٨.

ونسجته يد الخيال، فلا نصيب له عن كتاب يقسم الموجود إلىٰ الغيب والشهادة.

ومن يرىٰ أنّ بعض الموجودات ليس بمادّي، وأنّ معيار المعرفة ليس هو الحسّ وحده، بل له وللتجربة عون لما هو المعيار الأصيل في المعرفة، وهو العقل أو الشهود، وأنّ منشأ اعتبار الحسّ والشهادة هو العقل المجرّد الّذي هو بنفسه غيب عن عالم الطبيعة فله نصيب من القرآن.

ولقد بيّن الله سبحانه سرّ عدم انتفاع مَنْ حصر الوجود في المادّة بقوله تعالىٰ: ﴿وَلٰكِنّ أَكْثَرَ النّاس لاٰ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غٰافِلُونَ﴾ [١]، يعني أنّهم لا يعلمون باطن الحياة الدُّنيا وهي الآخرة، وهي مع أنّها موجودة لا تكون مورداً لالتفاتهم، بل هم عنها غافلون؛ ولذا أمر رسوله (صلى الله عليه وآله) بالإعراض عنهم؛ لعدم بلوغ علمهم النصاب اللازم لمعرفة القرآن، كما قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلّىٰ عَنْ ذِكْرِنٰا ولم يُرِد إلاّ الحَيٰاة الدُّنْيا ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنْ العِلْمِ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عن سَبِيْلِهِ وَهُوَ أعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدىٰ﴾ [٢].

والّذي يصحّح هذا الاعراض ويوجب أن يكون هجراً جميلاً، هو أنّ القرآن وإن أُنزل هدىً للنّاس في أيّ مصرٍ وأيّ عصرٍ، إلاّ أنّ معارفه المبتنية علىٰ الغيب لاتنفع لمن ينادي: بأنّا لا نُؤمن بشيءٍ حتّىٰ نحسّه ونراهُ جهرة؛ فلذا قال تعالىٰ: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِيْنَ الَّذِيْنَ يُؤْمِنُون بِالْغَيْبِ﴾ [٣].

معرفة الغيب و الايمان به لها درجات

وهذا الشرط أيضاً ـ كغيره من الشرائط القادمة والغابرة ـ له درجات، فمن كان واجداً لها جميعاً فانتفاعه بالقرآن أكثر، ومن كان واجداً لبعض درجاته

---

١. الروم، ٧ ـ ٦.　٢. النجم، ٣٠ ـ ٢٩.　٣. البقرة، ٣ ـ ٢.

فانتفاعه منه بذلك المقدار أيضا، كما أنّ القرآن العيني ـ وهو الرسول (صلى الله عليه وآله) ـ قد أُرسل للنّاس جميعاً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ كٰافَّةً لِلنّٰاسِ بَشِيْراً وَنَذِيْراً﴾ [1]، لكن الّذي ينتفع منه هو خصوص المؤمن بالغيب؛ فلذا قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُولاً﴾ [2].

والخبير المتفطّن يقف علىٰ أهمّية هذا الشرط بالقياس إلىٰ غيره من الشرائط، ولو قيل: بأنّه أهمّها، لم يكن جزافاً؛ لأنّ الشرائط الراجعة إلىٰ العقل العملي ليست في رتبة الشرائط الراجعة إلىٰ العقل النظري، كما أنّ العقل العملي أيضاً ليس في رتبة العقل النظري، مثلاً إنّ الطهارة عن دنس التعلّق بالعرض الأدنىٰ، وكذا الكرامة عن هذه الدُّنيا الدنيئة، والرفعة عن حضيض التعلّق بالمادّة وزخرفها وزبرجها وزهرتها ونحو ذلك من الأوصاف النفسانيّة الراجعة إلىٰ العقل الّذي يعبد به الرّحمان ويكتسب به الجنان، من شؤون العقل العملي.

أساس المعرفة الاعتراف بوجود الغيب

وأمّا أساس المعرفة ومعيارها العقلي، الاعتراف بأنّ الموجود علىٰ قسمين: أحدهما غيب، والآخر شهادة، وأنّ الله ووحدته وسائر أوصافه الذاتيّة غيب عن موطن الطبيعة، ومنزّه عن رجسها ومطهّر عن رجزها، وكذا الملائكة والوحي والنبوّة والرسالة والخلافة الإلٰهيّة والعصمة والعلم بالغيب والإخبار عنه ونحو ذلك من المعارف القرآنيّة، ترجع إلىٰ عالم الغيب الّذي لا تدركه الحواس، ولا تناله التجربة، ولا تصل إليه يد الاعتبار الاجتماعي، ولا يمسّ كرامته نسيج الخيال والوهم الشعري.

فأساس العلوم القرآنيّة علىٰ المجرّدات الغائبة عن الأوهام، فضلاً عن

---

١. سبأ، ٢٨.

٢. آل عمران، ١٦٤.

الحواس. فالشرط اللازم الأهمّ لمعرفة القرآن، هو جعل معيار المعرفة العقل المنزّه عن الطبيعة، وقبول أنّ مطلق الوجود ليس منحصراً فيها، بل هو ينقسم إليها وإلىٰ ما ورائها، فحينئذ يمكن التدبّر في القرآن والاستنباط منه والاعتماد عليه والاستناد إليه، والاستدلال به والانتفاع بهداه، وذلك بعد إحراز سائر الشرائط أيضاً.

نماذج من المعارف الغيبية التي أنكرها الملحدون

ولنأت بنماذج من المعارف الغيبيّة الّتي أفادها القرآن، كيف أنكرها الملحدون، وتعجّبوا واشمأزّوا منها، وعبّروا عنها بالأساطير؛ لأنّهم لما غلب علىٰ أوهامهم أنّ الموجود هو المحسوس، وأنّ ما لا يناله الحس بجوهره ففرض وجوده محال، وأنّ ما لا يتخصّص بمكان أو وضع بذاته كالجسم، أو بسبب ما هو فيه كأحوال الجسم، فلا حظّ له من الوجود، كانوا يقولون: ﴿وَمٰا يهلكنٰا إلاّ الدَّهْرُ﴾ [1] ، وكذا يقولون: ﴿لَنْ نُؤمِنَ لَكَ... أو تأتِي بِالله وَالمَلائِكَةِ قَبيلاً﴾ [2]، أي تأتي بالله حتّىٰ نراه مقابلاً وكفاحاً ماديّاً، وكذا تأتي بالملائكة حتّىٰ نراهم مقابلين لنا.

ومن المعلوم، أنّ الّذي مبلغ علمه هو هذا القدر الطفيف، كيف يتيسّر له أن يدرك الله الّذي ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير﴾ [3]، ومن أين يمكن له أن يعرف النشأة الغائبة الّتي لا ترىٰ الملائكة، إلاّ في تلك النشأة أو في تلك الحالة لمن لم ينتقل بعد إلىٰ تلك النشأة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَة لاٰ بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ وَيَقُوْلُونَ حجراً مَحْجُوراً﴾ [4]، وكذا كانوا يقولون: ﴿لَوْلاٰ نَزلَ هٰذا القُرآن علىٰ رَجُل مِنَ القَرْيَتَين عَظِيْم﴾ [5]؛ لأنّهم قد

---

١. الجاثية، ٢٤. ٢. الإسراء، ٩٢. ٣. الأنعام، ١٠٣.
٤. الفرقان، ٢٢. ٥. الزخرف، ٣١.

أخلدوا إلىٰ الأرض، وظنّوا أنّ الأصالة للمادّة، وأنّ من كان واجداً لزخرفها وزبرجها فهو عظيم، وأنّ النبوّة شأن مادّي له عظمة، فلابدّ وأن يكون لمن يكون عظيماً.

ومن الواضح، أنّ الّذي نصاب علمه هو هذا البخس، كيف يتيسّر له إدراك أنّ النبوّة شأن إلٰهي، له عظمة معنويّة لا ينالها إلاّ صاحب الخُلق العظيم والملكات النفسانيّة العظيمة من العصمة ونحوها؛ فلذا يتهوّس ويقول: ﴿لَنْ نُؤمِنَ حَتّىٰ نُؤتىٰ مثل ما أُوْتِي رُسُل الله﴾ [١]، كما حكاه عنهم قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يُرِيْدُ كُلّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أنْ يُؤتىٰ صُحُفاً منشرة﴾ [٢]، وكذا كانوا يقولون: ﴿إنْ هي إلاّ حياتُنا الدُّنيا نَمُوتُ وَنَحيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِيْنَ﴾ [٣]، ويقولون: ﴿أإذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيْد﴾ [٤]، أي بعيد عن الإمكان ومستبعد عن الدليل العقلي المزعوم؛ فلذا يستوحش هؤلاء من المعاد، ويتعجّبون منه بقولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ يُنَبِئُكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّق إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَديد﴾ [٥].

ومن اللائح، أنّ الّذي نطاق علمه هو هذا القدر الضيّق، كيف يمكن له أن يدرك أنّ الإنسان لا يفوت بالموت، بل يتوفّى، وأنّه لا يضلّ في الأرض، بل ينتقل من دار إلىٰ دار أُخرى.

فهذه نماذج مما يرجع إلىٰ المبدأ والمعاد والوحي والنبوّة، المبنيّ ذلك كلّه علىٰ أنّ الحس ليس هو المعيار الوحيد في المعرفة، وأنّ الموجود ليس منحصراً في المحسوس؛ فلذا ترىٰ الملحدين الّذين غلب علىٰ أوهامهم، أنّ ما لا يناله الحس فهو ممتنع الوجود، يقولون تجاه المعارف الغيبيّة: ﴿إنْ هٰذا إلاّ أساطِير الأوّلِينَ﴾ [٦].

---

١. الأنعام، ١٢٤.
٢. المدّثر، ٥٢.
٣. الأنعام، ٢٩.
٤. ق، ٣.
٥. سبأ، ٧.
٦. الأنعام، ٢٥ و الأنفال، ٣١.

المعارف الغيبية من مشتركات النبوّة

وحيث إنّ تلك المعارف الغيبية من مشتركات النبوّة، من دون الاختصاص بنبيّ دون نبي، كذلك هذه الأقاويل أيضاً من مشتركات الجاهليّة المادّية، من دون خصيصة بملحد دون آخر. فلذا ترىٰ هذا القول الباطل في غير مورد من القرآن الكريم، ناقلاً له عن ملاحدة كلّ قوم وعصر في قبال كلّ نبيٍّ ورسول.

ولا يبلغ أقصىٰ شبهات المادّيين اليوم مع رقيّ الصنائع والحِرَف، ولا يتعدّىٰ أعضل مشاكلهم الاعتقاديّة عمّا قاله أسلافهم الملحدون، إذ قد تشابهت قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم وألوانهم، فكما أنّ السلف الصادّ عن سبيل الله كان يقول: ﴿يا شُعَيْب ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمّا تَقُول﴾ [1]، كذلك الخلف الطالح يقول: إن هذا إلاّ تحجُّر ورجعيّة وما إلىٰ ذلك من الافك، كالقول: بأنّ الدِّين أفيون الشّعوب.

إلىٰ هنا انتهىٰ الكلام في المقام الأوّل، الباحث عن شرائط معرفة القرآن، ويمكن التعرُّض لما لم يبحث عنه هنا في المقام الثاني، الباحث عن موانع معرفته، كما أنّه قد تعرّض لبعض تلك الموانع في ثنايا البحث عن الشرائط؛ لانّ كلّ أمر يكون شرطاً لها ينتزع من مقابله المنع عنها. ولذا قد يذكر وصف كمالي شرطاً لها، وقد يذكر مقابله مانعاً عنها، حسبما يظهر من الآيات المبحوث عنها في المقامين، فلنعطف المقال إلىٰ المقام الثاني.

المقام الثاني: في موانع معرفة القرآن

كما أنّ للعين شرائط خاصّة يقتضيها ويصحّحها، وموانع يمنعها ويبطلها، كذلك للعلم شرائط يوجبه وموانع يمنعه؛ لأنّ النظام العلّي لا يختصّ بالعين، بل يعمّ كلّ موجود لا يكون وجوده عين ذاته، حسبما أفاده مولانا الرضا (عليه السلام):

---

١. هود، ٩١.

«كلّ قائم في سواه معلول»[١].

وقد تقدّم بيان الشرائط المهمّة لمعرفة القرآن، وقد استفيد في ضوئها موانعها في الجملة، إلاّ أنّ القرآن الكريم لم يكتف في بيان تلك الموانع بالبيان الاجمالي والضمني، بل تعرّض لها تفصيلاً وحذّر عنها صريحاً.

كما أنّ الشرائط كانت علىٰ قسمين: أحدهما يرجع إلىٰ العقل النظري، والآخر يرجع إلىٰ العقل العملي، كذلك الموانع علىٰ صنفين: أحدهما يرجع إلىٰ الجهل المقابل للعلم، والآخر يرجع إلىٰ الجهل المقابل للعقل المستعمل في لسان الثقلين، بمعنىٰ ما يعبد به الرّحمان ويكتسب به الجنان، أي العقل العملي الموجب لعقال الغرائز الجموحة والأهواء الطاغية. فلنأت بتلك الموانع بلا استيعاب الفرق بين الصنفين منها، وإن أمكن الإشارة إلىٰ ذلك في الجملة علىٰ وزان ما تقدّم في الشرائط.

أهمّ موانع معرفة القرآن الجهل بأن الموجود غيب و شهادة

فمن تلك الموانع ـ بل أهمّها ـ هو الجهل بأنّ الموجود علىٰ قسمين: أحدهما غيب، والآخر شهادة، بزعم انحصاره في الطبيعة المشهودة بالحواس. فلذا لما سمعوا المعارف الغيبيّة، سيّما المعاد، زعموا أنّها أُمور طبيعيّة تدركها الحواس، فلما لم يجدوها في نشأة الدُّنيا المحسوسة أنكروها، كما قال سبحانه: ﴿وَإذا تُتْلىٰ عَلَيْهِم آيٰاتنا بَيّنٰات مٰا كٰان حُجّتَهُمْ إلاّ أنْ قٰالوا ائتُوا بِآبائِنٰا إن كُنتُم صادِقِينَ * قُلِ الله يُحْيِيكُمْ ثُمّ يُمِيْتكم ثُمّ يَجْمَعُكُم إلىٰ يوم القِيٰمَةِ لاٰ رَيْبَ فِيْهِ وَلٰكِنّ أكْثَرَ النّاس لاٰ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

إذ الجهل بأنّ القيامة غيب لا تنال بالحس الدنيوي، وأنّها إنّما تظهر بعد

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التوحيد، ص ٤١، ح ٥٨.

٢. الجاثية، ٢٦ ـ ٢٥.

تبدّل النشأة الدنيويّة، هو الموجب لذلك الاحتجاج الداحض عند ربّهم، وهذا هو الجهل المقابل للعلم ـ حسبما في ذيل الكريمة من قوله تعالىٰ: ﴿وَلٰكِنّ أكْثَرَ النّاس لاٰ يَعْلَمُونَ﴾ [١] ـ وهذا المانع هو الداء العضال الموجب للإلحاد، سيّما عند رقيّ الصنائع ومشاهدة آثارها الطبيعيّة في السماء والأرض وفي البحر والبر و ....

من نتائج التفكّر المادّي حصر الوجود في المحسوس

حيث إنّ وليد التفكُّر المادّي الحاصر للموجود في المحسوس، هو أنّ الشيء إذا كان موجوداً فلابدّ وأن يطّلع عليه بالحس، إمّا في الأرض أو في السّماء، فإذا لم يحسّ به في الموضعين يحكم بأنّه معدوم، وإن الاعتقاد به اسطورة، كما قال فرعون: ﴿يٰا هٰامان ابنِ لِي صَرْحاً لَعَلّي أبلغ الأسْباب أسباب السّمٰوات فَأطّلع إلىٰ إلٰه مُوْسىٰ وإنّي لأظنّه كٰاذباً...﴾ [٢] غافلاً عن كون وجود الله سبحانه غيباً لاتدركه الأوهام، فضلاً عن الحواس، جاهلاً عن كونه تعالىٰ ﴿هُوَ الّذي في السّماء إلٰهٌ وَفي الأرْضِ إلٰه﴾ [٣].

فكما أنّه سبحانه إلٰه في الأرض لا يُرىٰ بالحسّ، كذلك هو إلٰه في السّماء لايُرىٰ بالحسّ، فلا يجدي الصرح الرفيع، كما لا ينفع الرصد ونحوه من الأدوات للعلوم المادّية؛ لأنّ الّذي فيضه تعالىٰ داخل في كلّ شيء حتّىٰ الصرح لا بالممازجة، وخارج عنه لا بالمزايلة، كيف يمكن أن يحيط به الحسّ المسلّح أو غيره!؟

والحاصل، أنّ الجهل بأنّ الله سبحانه غيب عن الحواس، هو الموجب لأن يتفوّه فرعون بمقالته التافهة، وهو المانع عن معرفة القرآن المنادي بأنّه تعالىٰ لاتدركه الأبصار. فما هو شرط المعرفة عند المتفكّر المادّي الملحد، هو بعينه مانع عن معرفة الله وأسمائه الحسنىٰ الغيبيّة، كما أفاد مولانا الرضا (عليه السلام) في جواب

---

١. الجاثية، ٢٦. ٢. غافر، ٣٧ ـ ٣٦. ٣. الزخرف، ٨٤.

من سأله: كيف هو وأين هو؟ فقال (عليه السلام): «ويلك إنّ الّذي ذهبت إليه غلط، هو أين الأين بلا أين وكيف الكيف بلا كيف، فلا يعرف بالكيفوفيّة ولا بالأينونيّة ولا يُدرك بحاسّة ولا يُقاس بشيء، فقال الرجل: فإذن إنّه لا شيء إذا لم يُدرك بحاسّة من الحواس؟ فقال أبو الحسن (عليه السلام) : ويلك لما عجزت حواسّك عن إدراكه أنكرت ربوبيّته، ونحن إذا عجزت حواسّنا عن إدراكه أيقنّا أنّه ربّنا بخلاف شيء من الأشياء» [١] . وقد قال (عليه السلام): إنّ عجز الحسّ عن إدراك الله الّذي هو غيب ومنزّه عن عالم الطبيعة، هو الّذي أوجب إنكار القائل بأصالته، وأنّ معيار المعرفة هو الحس، ولكن العقل المحض لما تبيّن له ضرورة وجود الحقّ سبحانه وضرورة تنزّهه عن المادّة ولواحقها وضرورة تجرّده عن الطبيعة وأحكامها، أيقن أنّه تعالىٰ ليس كمثله شيء.

وأكثر معارف القرآن يحوم حول وجود الربّ تعالىٰ وأسمائه الحُسنىٰ، وجميع ذلك ممّا تعجز الحواس عن إدراكها، فمن أين يتيسر للمتفكّر المادي ـ الّذي أساس معرفته هو الحس العاجز عن عرفانها ـ أن يعرفها ويعترف بها؟ ومن أين يمكن له إدراك ما قال في شأنه مولانا الرضا (عليه السلام): «عجزت دونه العبارة، وكلَّت دونه الأبصار، وضلّ فيه تصاريف الصفات، احتجب بغير حجاب محجوب، واستتر بغير ستر مستور، عرف بغير رؤية، ووصف بغير صورة، ونعت بغير جسم، لا إلٰه إلّا الله الكبير المتعال» [٢].

فتبيّن أنّ التفكّر المادّي والجهل ـ بأنّ معيار المعرفة ليس هو الحسّ وحده، وأنّ الموجود ليس منحصراً في المحسوس، وأنّ الغيب ليس أُسطورة نسجتها يد الخيال ـ هو المانع عن استماع نداء النبوّة وشهود جمال الوحي

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٧٢، ح ١.

٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التوحيد، ص ٢١، ح ١٨.

واستنشاق رائحة الرسالة وذوق طعم الدّين.

موانع معرفة القرآن

ومنها: ـ أي من تلك الموانع ـ الذنب، الملازم لاتّباع الهوىٰ وطول الأمل، المعبَّر عنه بالرجس تارةً، وبالرجز أُخرىٰ، الموجب لضيق القلب وختمه ورين الصدر وطبعه وزيغ الروح وقفله؛ لأنّ الذنب حجاب بين الإنسان المبتلىٰ به وبين الحقّ ـ الّذي من أظهر مصاديقه القرآن الّذي بالحقّ أنزله الله وبالحقّ نزل ـ؛ ولأنّه مقابل للطهارة، ومناف للكرامة، ومباين للتقوىٰ، ومضاد للرفعة، ومخالف لأي وصف كمالي.

وقد تقدّم في المقام الأوّل كونه شرطاً لمعرفة القرآن، فيكون هو ـ أي الذنب ـ مانعاً عنها. إذ الرجس لا مساس له بالطاهر، وكذا اللئامة لا تحوم حول الكرامة، والطغوىٰ لا يصاحب التقوىٰ، والضعة لا تلائم الرفعة. وبالجملة، الناقص لا يمسّ كرامة الكامل ما دام ناقصاً.

القلب المجرّد متدبّر في القرآن

فلذا قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ علىٰ قُلُوبٍ أَقْفالُهَا﴾ [1]، والمستفاد من هذه الآية ـ عدا حجّية ظواهر القرآن وإمكان استنباط المعارف منه، وعدا التحريض والترغيب إلىٰ التدبّر والتأمّل فيه ـ هو أنّ المتدبّر فيه هو القلب المجرّد، دون القالب وهو الحسّ المادّي، وأنّ له باباً يفتح تارةً، ويقفل ويغلق أُخرىٰ، وأنّ للقلب قفلاً خاصّاً به يقفل، وأنّ الكفر والنفاق ونحو ذلك من الحجب الظلمانيّة أقفال للقلب، مانعة له عن التدبّر في القرآن، وأنّ الإيمان والخلوص ونحو ذلك من الأوصاف الوجوديّة الكماليّة مفاتيح للقلب، شارحة له

---

١. محمد، ٢٤.

ومصحّحة لأن يتدبّر في القرآن، لولا الذنب الحاجب المعدود قفلاً للقلب.

ولكن المذنب إذا لم يكن مبتلىً بالجهل المتقدّم المقابل للعلم، ولم يكن معتقداً بأنّ المعيار الوحيد للمعرفة هو الحس، وأنّ الموجود منحصر في المحسوس، وأنّ الغيب خرافي ليس بموجود، وتدبّر في القرآن، يعرف المقدار اللازم من المعارف القرآنيّة وتتمّ عليه الحجّة، وإن لا يوفّق نيل المعارف العالية منه، ولا ينفتح له باب الغيب حتّىٰ يشاهده كفاحاً بالقلب؛ لأنّ الذنب بما هو ذنب، لو كان مانعاً عن إدراك النصاب اللازم، لما قامت الحجّة علىٰ الكفّار والمنافقين. إذ المفروض أنهم لذنبهم، لم يعرفوا مؤدّىٰ ما يحتجّ به القرآن علىٰ التوحيد ونفي الشرك ونحوهما، ولو فرض توقّف العلم بالحقّ علىٰ الإيمان به وترك الذنب لدار الأمر.

فالمراد من كون الذنب مانعاً، هو أنّ المذنب لما ولّىٰ وجهه شطر الباطل، واشتاق إليه، واغترّ به، لا يميل إلىٰ التدبّر في القرآن الهادي له إلىٰ الحقّ والابتهاج به والاتّقاء عن الباطل والغرور به؛ لعلّه هو الموجب لبعض المذنبين أن يجعل اصبعه في اُذنه ويستغشى ثوبه، حتّىٰ لا يسمع دعوة نبيّه، كما حكاه الله عن قوم نوح في قوله تعالىٰ: ﴿وإنّي كُلّمٰا دَعَوْتهم لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصابِعَهُمْ فِي آذٰانِهِمْ واسْتَغْشَوْا ثِيٰابَهُمْ وأصَرّوا وَاسْتَكْبَروا اسْتِكْباراً﴾ [١].

ومن هذا القبيل قوله تعالىٰ: ﴿إلاّ إنّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخِفوا مِنْهُ ألا حِين يَسْتَغْشُونَ ثِيٰابَهُمْ يَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَمٰا يُعْلِنُونَ إنّه عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصّدُورِ﴾ [٢]؛ لأنّ هذا الاختفاء تارة للجهل بأنّ الموجود ليس منحصراً في المحسوس، وأنّ الغيب ليس بأُسطورة، وتارةً أُخرىٰ للاشمئزاز والانزجار عن استماع الحقّ، كانقباض المزكوم من رائحة المسك.

وإلىٰ بعض ما ذكر، يشير قول مولانا الرضا (عليه السلام) في الّذين رغبوا عن

---

١. نوح، ٧.

٢. هود، ٥.

اختيـار الله واختيار رسـول الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيتـه إلىٰ اختيارهـم، والقرآن يُناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَيَخْتٰارُ مٰا كٰانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحٰانَ الله وتعالىٰ عَمّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُها...﴾[2][3] حيث إنّه (عليه السلام) استدلّ: بأنّ أقفال القلوب وذنوبها منعتهم عن التدبّر في الآيات، الدالّة علىٰ أنّ تعيين الإمام ونصبه ليس بأيديهم واختيارهم، ولو أنّهم تدبّروا فيها لعلموا أنّ تعيين الإمام (عليه السلام) إنّما هو بخيرة الله سبحانه.

الذنب حجاب عن المشاهدة

وكما أنّ الذنب والرجس والرجز والدنس وما إلىٰ ذلك، من العناوين الدارجة في لسان الثقلين، مانع عن التأمّل في نظام الكيان والتفكّر في الآيات التكوينيّة، كذلك حاجب عن التدبُّر في فحاوي الآيات التدوينية والاستنباط منها، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام) في جواب من قال: «فَلِمَ احتجب ـ أي الله سبحانه ـ؟ إنّ الاحتجاب عن الخلق لكثرة ذنوبهم، فأمّا هو فلا يخفىٰ عليه خافية في آناء الليل والنهار»[4]، يعني أنّ الذنب حجاب عن المشاهدة الفكريّة لقوم، والمشاهدة القلبيّة لقوم آخرين.

إذ الفطرة الّتي فطر الله الناس عليها شاهدة للحقّ، حاكية إيّاه، والذنب غبار علىٰ هذه المرآة الصافية، فهو ـ أي الذنب ـ حجاب مانع عن المعرفة الفطريّة من جهة، وعن المعرفة الفكريّة من جهة أُخرىٰ، وعن المعرفة الشهوديّة الكاملة من جهة ثالثة. فلذا يصحّ استناد الحَجْب إليه في مباحث شتّى.

---

١. القصص، ٦٨.   ٢. محمد، ٢٤.

٣. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، ص ٩٩، ح ٣٥.

٤. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التوحيد، ص ٢٧، ح ٢٧.

الفرق بين الجهل و الذنب في المانعيّة

ويمكن الفرق بين الجهل والذنب، بأنّ الجهل مانع عن المعرفة، والذنب مانع عن الاعتراف، والجهل حاجب عن التعليم، والذنب حاجب عن التزكية، والجهل مغلاق القلب عن الحكمة، والذنب قفل له عن العظة وداع إلىٰ الغفلة، وما إلىٰ ذلك مما يرجع أحدهما إلىٰ العقل النظري والآخر إلىٰ العقل العملي، مع مالهما من المساس التام والتلازم في غير مورد.

وحيث إنّ القرآن يدعو إلىٰ سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل النّاس بالّتي هي أحسن، مع الارتباط الأنيق بين هذه الطرق، فلكل منها شرط يصحّح تحقّقه، ومانع يصدّ عنه ويمنعه. فالجهل أشدّ منعاً عن العلم والحكمة النظريّة، والذنب أغلظ حجاباً عن الموعظة والحكمة العمليّة، كما أنّ الحميّة الجاهليّة هي الحالقة للدِّين، المانعة عن الجدال الأحسن أشدّ منعاً.

وكما أنّ الصمم مانع عن الاستماع إلىٰ الهاتف، وأنّ العمى حاجب عن النظر في المصحف، وأنّ الخرس مانع عن القراءة، كذلك صمم الصدر وعمىٰ القلب وخرس النفس مانع عن الإدراك، و حاجب عن الإذعان، وصادّ عن الاتّعاظ والتزكية ونحو ذلك، من الأهداف العالية للرسالة.

وإلىٰ ذلك يشير قول مولانا الرضا (عليه السلام): «ولكن القوم تاهوا وعموا وصمّوا عن الحقّ من حيث لا يعلمون». وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ كَانَ فِي هٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1]، يعني أعمىٰ عن الحقائق الموجودة، إلىٰ أن قال (عليه السلام): «وإنّما اختلف النّاس في هذا الباب حتّىٰ تاهوا وتحيّروا وطلبوا الخلاص من الظلمة بالظلمة في وصفهم الله بصفة أنفسهم،

---

١. الإسراء، ٧٢.

فـازدادوا من الحقّ بعـداً، ولـو وصفوا الله عـزّ وجلّ بصفـاتـه ووصفوا المخلـوقين بصفاتهم، لقـالوا بالفهـم واليقين ولما اختلفوا، فلمّا طلبـوا من ذلك مـا تحيّروا فيه ارتبكوا، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيم»[1].

إذ المستفاد مـن بيانه الشريف، هـو أنّ التيه والعمى والصمـم، كما يعرض السمـع والبصر وغيرهما من الحواسّ الظـاهرة، كـذلـك يعرض للقلـب والبصيرة ونحوهما مـن المشاعـر الباطنة. وأنّ الجهـل ـ بما هـو معيار المعرفـة ـ هـو الموجب للتحيّر والبعد من الحقّ في معرفة أنّ الله تعالىٰ موجـود مطلق محيط بالدّنيا والآخرة، وأنّه ليس كمثله شيء، وأنّه واحد لا شريك لـه، ولا ثاني له حتّىٰ يقيمه أو يعضده ويمسكه. إذ الخلق يحتاج إلىٰ من يقيمه ويمسكه، دون الخالق الغني المحض.

والغرض، هو أنّ لمعرفـة القرآن الباحث عن الغيب شرطـاً يصحّحه ومانعاً يصدّ عنه، وهؤلاء الجهّال لما أخلّوا بالشرط تـاهوا وعموا وصمّوا، ولو أنّهم لم يخلّوا به لوصلوا إلىٰ الفهـم واليقين. ولبيانه (عليه السلام) فوائد جمّة نشير إليها في المبـاحث القادمة إن شاء الله تعالى.

التقوىٰ شرط لانفتاح أبواب الرزق العيني و العلمي

كلّ مـا أفاده (عليه السلام) يستفـاد من القـرآن الـدالّ علىٰ أنّ نزول البركـات العينيّة والعلمية مشروط بالتقوى وإخلاص العمـل لله، وممنوع بالذنب والإعراض عن ذكر الله ونحو ذلك.

فكما أنّ التقوى شرط لانفتـاح أبواب الـرزق العيني، حيـث قال سبحـانه: ﴿وَلَوْ أنّ أهْلَ القُـرىٰ آمَنُوا وَاتّقوا لَفَتَحْنٰا عَلَيهم بَرَكٰـات مِنَ السمٰاءِ وَالأرْض وَلٰكِن

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٩٠، ح ٣.

كَذَّبوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١]، كذلك شرط لانفتاح أبواب الرزق العلمي، حيث قال تعالىٰ: ﴿إنْ تَتَّقُوا الله يجْعَل لَكُمْ فُرْقاناً...﴾ [٢].

وكما أنّ التكذيب والطغيان مانع عن انفتاح أبواب الرزق العيني، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَلٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٣]، كذلك مانع عن انفتاح أبواب الرزق العلمي، الّتي من أهمّها وأنفعها هو معرفة القرآن، حيث قال تعالىٰ: ﴿سأصْرِف عَنْ آياتِي الّذِيْنَ يَتَكَبّرُونَ فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الحَقّ وإنْ يَروا كُلّ آيَة لاٰ يُؤْمِنُوا بِها وإنْ يَروا سَبِيْلَ الرُّشْدِ لاٰ يَتَّخِذُوه سَبِيْلاً وإن يَروا سَبِيْل الغيّ يَتَّخِذُوه سَبِيلاً ذٰلِكَ بأنّهُمْ كَذّبُوا بآياتِنا وكانوا عَنْها غافِلِيْنَ﴾ [٤] ، وقال أيضاً: ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بأنّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ﴾ [٥].

هذا هو قفل القلب المانع عن التدبّر في القرآن، حسبما استدلّ مولانا الرضا (عليه السلام) لبيان كون الإمامة بالنصب والتعيين، لا الاختيار والتوكيل، بقوله تعالىٰ ﴿أفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآن أمْ عَلىٰ قُلوبٍ أقْفالُها﴾ [٦]؛ لظهوره في أنّ للقلب قفلاً يمنعه عن إدراك الحقّ ومعرفة القرآن.

ولعلّه يستفاد من هذه الكريمة، أنّ الحرمان عن الرزق العلمي مستند إلىٰ قفل القلب وانغلاقه، لا إلىٰ غلق باب الرحمة الإلهيّة؛ لأنّه مفتوح دائماً، وينزل منه الفيض العلمي كالعيني أبداً. وإنّما التفاوت من ناحية القابل، لا الفاعل. فهو سبحانه دائم الفيض علىٰ البرية، وإن كان المذنب مقفول القلب محروماً منه، فهو وإن فرح بما عنده من العلم، وحسب أنّه يحسن صنعاً، ولكنّه في حجاب وكنان لا يشعر به، وهذا الكنان من القابل بسوء اختياره. وبيانه فيما يلي.

---

١. الأعراف، ٩٦. ٢. الأنفال، ٢٩. ٣. الأعراف، ٩٦.

٤. الأعراف، ١٤٦. ٥. التوبة، ١٢٧. ٦. محمد، ٢٤.

تبصرة: في بيان كيفية استناد ختم القلوب إلى الله سبحانه

إنّ لكلّ موجود لا يكون وجوده عين ذاته سبباً يتحقّق به، ويمتنع دونه، وأنّ كلّ سبب فهو مفتاح مسببه به ينفتح، وبدونه لا ينفتح، بل يصير مغلوقاً، وإن سلسلة الأسباب تنتهي إلىٰ مسبّبها الّذي هو الله سبحانه، وأنّ بيده تعالىٰ مفاتيح السّماوات والأرض ومقاليدها.

فإذا أراد أمراً أجراه بسببه الّذي هو مفتاحه الخاصّ، وإذا لم يرد شيئاً لا يفتح باب سببه المخصوص، ولا مَردّ لإرادته بالفتح، ولا رادّ لعدم إرادته به، كما قال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَيْبِ لاٰ يَعْلَمُهٰا إلاّ هو﴾ [١]، يعني أنّ المخازن وكذا مفاتيحها الغيبيّة مشهودة عنده ومقدورة له؛ لأنّه ﴿هُوَ الفَتّاحُ الْعَلِيْمُ﴾ [٢]، يعني أنّه عالم بالمخزون وبمفتاحه، ومورد لزوم فتحه ومورد عدم لزوم فتحه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُ مَقٰالِيْدُ السَّمٰواتِ وَالأرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَيَقْدِرُ إنّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْم﴾ [٣]، وقال تعالىٰ: ﴿مٰا يَفْتَحُ اللهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاٰ مُمْسِكَ لَهٰا وَمٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الحَكِيْمُ﴾ [٤]؛ لظهوره في أنّ إرادته تعالىٰ نافذة مطلقاً بدون مردّ لها أصلاً، وأنّ الفتح أمر وجودي يوجب إرسال الرحمة، وأنّ مقابله أمر سلبي يعبّر عنه بالإمساك، أي عدم الإرسال، لا إرسال العدم ونحو ذلك. وهذه الامور مستفادة من نطاق القرآن الكريم في غير مورد، كما يمكن أن يتعرّض لها في المباحث القادمة.

مشيّة الله عين الحكمة و الصواب

والغرض هنا، هو أنّ القلب بما له من الأوصاف الخاصّة أمر ممكن مسبب،

---

١. الأنعام، ٥٩. ٢. سبأ، ٢٦. ٣. الشورى، ١٢.
٤. فاطر، ٢.

فله سبب مخصوص، به ينفتح ويستفيض من الخيرات، وبدونه لا ينفتح ويحرم منها. وذلك السبب الّذي هو مفتاح القلب ومفتاح أوصافه الكمالية بيده سبحانه.

فلو أراد أن يفتحه فتحه وشرحه، وقذف فيه العلم والإيمان ونحو ذلك، وإن لم يرد أن يفتحه أغلقه وختم عليه وأقفله، وصرفه عن معرفة الآيات ونحوها. كلّ ذلك بمشيئته الّتي هي عين الحكمة والصواب، بلا جزاف وظلم أصلاً.

شرح الصدر و تضييقه بيدالله

فالمذنب، وإن كان محجوباً ويكون قلبه في كنان، كما اعترفوا بقولهم: ﴿وَقالُوا قُلُوبنا في أكنّة ممّا تَدعُونا إليهِ وَفي آذانِنا وَقرٌ﴾ [1]، ولكن ذلك بجعل إلهي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ أكنّة أن يَفْقَهُوهُ وَفي آذانِهِمْ وَقراً﴾ [2]، وكذا قلبه، وإن كان مختوماً، ولكنّه بختم إلهي، كما قال تعالى: ﴿أفرأيتَ مَنْ اتَّخَذَ إلهه هَواه وَأضَلّهُ اللهُ علىٰ عِلمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ [3]، لا أنّه ينختم بنفسه، أو يكون العامل في الختم هو المذنب نفسه أو غيره، من سائر الموجودات الإمكانيّة.

إذ الفرض الأوّل ـ أي كون الانختام قد حصل بنفسه من دون سبب أصلاً ـ يصادمه النظام العلّي الحاكم، بأنّ كلّ شيء لا يكون وجوده ولا عدمه عين ذاته، بمعنىٰ أنّه لا يكون واجب الوجود بالضرورة الأزليّة، ولا ممتنع الوجود كذلك، فهو مستند في كلا طرفي وجوده وعدمه إلىٰ السبب. فكما أنّه لا يكون انفتاح القلب وانشراح الصّدر بدون سبب، كذلك لا يكون انختامه وتضييقه بدون سبب.

وأمّا الفرض الثاني ـ أي استناد الختم إلىٰ المذنب نفسه أو إلىٰ غيره من الموجودات الإمكانيّة بلا ا نتهاء إلىٰ الله سبحانه ـ فيطارده الأصل المبرهن عليه في

---

١. فصلت، ٥. ٢. الأنعام، ٢٥. ٣. الجاثية، ٢٣.

النظام العلّي، من لزوم انتهاء سلسلة العلل الوجوديّة إلىٰ مسبّب الأسباب بالذات، ولزوم انقطاع سلسلة العلل الفاعليّة العدميّة إليه تعالىٰ بالعرض.

إذ لا يمكن أن يكون وجود شيء مستنداً إلىٰ علله الطوليّة المنتهية إليه تعالىٰ، ولا يكون عدمه مستنداً إلىٰ فقد علله المنتهي فقدانها إلىٰ إمساك الفيض وعدم صدوره منه تعالى؛ لأنّ لكلّ شيء سبباً خاصّاً هو مفتاحه، وجميع الأسباب والمقاليد بيده سبحانه، فيكون الفتح بإفاضته تعالىٰ والختم بإمساكه عنها.

وكلّ ذلك بمشيئته الحكيمة المقتضية لأن لا يضلّ أحداً، ولا يختم علىٰ قلبه أصلاً، ولا يجعل قلبه في كنان البتة، إلاّ مجازاة ومعاقبة لا ابتداءً. وهذا بخلاف هدايته وشرحه للصدر، ونحو ذلك من المنن الإلٰهيّة؛ لأنّها كما تكون بعنوان الجزاء الحسن، كذلك تكون بعنوان المنّة الابتدائيّة واللّطف الغير المسبوق بالعمل، وإن كانت جميع نعمه ومننه ابتداءً.

وبهذا البيان يظهر معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ الله أنْ يَهدِيَهُ يَشرَح صَدْرَهُ للإسْلامِ وَمَنْ يُرِد أنْ يُضلّه يَجْعل صَدْرَهُ ضَيّقاً حرجاً كأنّما يَصعّدُ في السّماء كَذٰلِكَ يجْعل الله الرّجسَ عَلىٰ الّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [1]؛ لظهوره في أنّ تضييق الصدر ـ كشرحه ـ بيده سبحانه، كظهوره في أنّ شرح الصدر نعمة إلٰهيّة مطلقة غير مقيّدة بالاستحقاق، لإمكانه تارةً بعد الارتياض والعمل الصالح، وتارةً أُخرىٰ قبله.

ضيق الصدر عقوبة إلهيّة

وأمّا تضييق الصدر، فهو عقوبة إلٰهيّة مقيّدة بالعمل السيّئ، فمن أعرض عن ذكر الله بعد قيام الحجّة البالغة عليه، وإمهال الله سبحانه إيّاه ليتوب ويرجع

---

١. الأنعام، ١٢٥.

إلىٰ مبدئه، الفاطر البديع، وأصرَّ علىٰ ذلك الإعراض بسوء اختياره، فحينئذٍ يجعل صدره ضيّقاً حرجاً، ويجعل عليه هذا الرّجس؛ لأنّه الّذي كان لا يؤمن، حيث قال سبحانه: ﴿كَذٰلِكَ يَجْعَلُ الله الرِّجْس عَلىٰ الَّذِيـنَ لاٰ يُؤْمِنُونَ﴾ [١]، يعني أنّ ضيق الصدر ـ وكذا الضلال المترتّب عليه ـ رجس، جَعْلُه بيدالله، ولكن الله لا يجعله إلاّ علىٰ الّذين لا يؤمنون، فهو تعقيب لعملهم السيّئ وعقوبة لهم.

الجهل المقابل للعلم أمر عدمي

ومعنىٰ جعل الرّجس علىٰ أحد، وكذا معنىٰ جعل صدره ضيّقاً، وهكذا معنىٰ إضلال أحد، ليس إلاّ عدم إرسال الرحمة وعدم فتح باب النعمة، كما بيّنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمٰا يُمْسِك فَلاٰ مُرْسِلَ...﴾ [٢]، لا أنّه أمر وجودي يفيضه الله.

ومجرّد إسناد الفعل إلىٰ هذه العناوين لا يدلّ علىٰ أنّها حقائق وجوديّة؛ لأنّ كون شيء خاصّ أمراً وجوديّاً أو عدميّاً ـ أي أنّه موجود في العالم أو ليس بموجود، بل ينتزع من فقد أمر وجودي ـ إنّما هو مطلبٌ عقليٌّ لابدّ له من برهان عقليّ يدلّ علىٰ كلّ واحد من الطرفين، مثلاً إنّ الجهل المقابل للعلم أمر عدمي، عبارة عن عدم العلم بشيء، فلو قيل في العرف: زيد جاهل، أو أصابه جهل، أو ابتلي بالجهل، أو نحو ذلك، فلا يمكن أن يُستظهر منه أنّ الجهل أمر وجودي؛ لأنّ المطلب عقليّ لا لفظيّ، مضافاً إلىٰ أنّ العرف أيضاً بعد عثوره علىٰ عدميّة غير واحدة من الصفات يعامل معها معاملة الأُمور السلبيّة، ويجعل السلب مضمّناً فيها، فحينئذٍ تكون قضية (زيد جاهل) في العرف قضيّة موجبة معدولة المحمول، لا أنّها موجبة محصّلة، وإن كانت علىٰ مصاغها، تدبّر.

فإذا تبيّن أنّ لفقه القرآن شرطاً يصحّحه ومانعاً يحجب عنه، وتبين أنّ الجهل

---

١. الأنعام، ١٢٥.	٢. فاطر، ٢.

والذنب وما يرجع إليهما مانع عن التدبّر في القرآن وحاجب عن فقهه، يظهر معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا لِهَٰؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيْثاً﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنافِقِيْنَ لا يَفْقَهُون﴾ [3]، وكذا معنى قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [4]، حيث استدلّ ببعض هذه الآيات وما يضاهيها مولانا الرضا (عليه السلام) في احتجاجه، حسبما تقدّم نقله.

الرّجس مانع عن أصل التدبر و التفقّه

وكذا يظهر أنّ كلّ ما يمنع الإنسان عن أصل التدبّر في القرآن، ويجعله فارّاً منه منزجراً عنه أو يمنعه عن الفقه، وإن تدبّر أو استمع القرآن وأنصت إليه، فهو رجس، وأنّ كلّ من ابتلي بمقدار منه، فهو بذلك المقدار محجوب عن التدبّر والتفقّه. وكلّ من برئ منه رأساً وتنزّه من جميع أنحائه وأقسامه الراجعة إلى العلم أو العمل، فهو حريّ بأن يتدبّر في القرآن ويتفقّهه.

وأنّ العترة الطاهرة (سلام الله عليهم اجمعين) هم الّذين أذهب الله عنهم الرجس مطلقاً، وطهّرهم تطهيراً تامّاً لا يشوبه شيء من الرجس أبداً. حيث إنّه تعالى قد عبّر عن هذا الفيض المستمر بصيغة المضارع، الدالّة على أنّه تعالى دائماً يشرح صدور هؤلاء السادة، ويفتح قلوب هؤلاء القادة، ويرسل فضله الواصب على هؤلاء الساسة، ويذهب الرجس عنهم ويطهّرهم تطهيراً.

وأنّ هؤلاء المعصومين (عليهم السلام) هم الّذين تحلّوا بحلية جميع شرائط معرفة القرآن وتخلّوا عن جميع موانعها، فهم الّذين يعرفون القرآن حقّ معرفته، وهم

---

١. النساء، ٧٨. ٢. الأعراف، ١٧٩. ٣. المنافقون، ٧.

٤. التوبة، ٩٣ و النحل، ١٠٨.

المتدبّرون فيه حقّ تدبّره، وهم الّذين يمسّونه حقّ مساسه، وهم الراسخون في العلم وأبواب الحكم وأنوار الظُّلم، وهم عيش العلم وموت الجهل، وهم أساس الدِّين وعماد اليقين وكرائم الايمان وكنوز الرّحمان وأُمناء الله علىٰ عباده ومقيمو الحقّ في بلاده والشهداء علىٰ الخلق وقوّام الله وعرفاؤه علىٰ عباده، وهم أقاموا عمود الحقّ وهزموا جيوش الباطل.

ونقل مولانا الرضا (عليه السلام) عن جدّه، أبي عبدالله (عليه السلام) أنّه (عليه السلام) قال: «إنّا من الّذين قال الله في كتابه: ﴿أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدٰيهمُ اللهُ فَبِهُدٰيهُمُ اقتده﴾ [1]» [2]، وقال مولانا الرضا (عليه السلام): «إذا نزلت بكم شدّة فاستعينوا بنا علىٰ الله، وهو قول الله: ﴿وَللهِ الأسماءُ الحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِها...﴾ [3]»، وقال (عليه السلام) في قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِيْنَ﴾ [4]: «الصادقون هم الأئمة والصدّيقون بطاعتهم» [5]، وقال (عليه السلام) في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلامات وَبِالنّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [6]: «نحن العلامات، والنجم رسول الله (صلى الله عليه وآله)» [7].

---

١. الأنعام، ٩٠.
٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٣١، ح ٦٦.
٣. الأعراف، ١٨٠.
٤. التوبة، ١١٩.
٥. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٣٩، ح ٩٥.
٦. النحل، ١٦.
٧. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٤١، ح ١٠٣.

الجنّة الثّانية:

في بيان المائز بين التّدبّر في القرآن واستنطاقه

الجنّة الثانيّة:

في بيان المائز بين التدبّر في القرآن و استنطاقه

قد تبيّن في الجنّة الأُولىٰ ما هو شرط معرفة القرآن وما هو مانع عنها، وقد لاح سابقاً أنّ القرآن حبل الله الّذي أحد طرفيه بيده سبحانه والطرف الآخر بيد الناس، فلا حدّ لمحتواه ولا انقطاع لنطاقه.

ومن المعلوم، أنّ معرفة مثل هذا الكتاب لها درجات تجاه مراتبه نفسه، فالّذي يقدر عليه، من اجتمع فيه الشرائط العامة وزال عنه الموانع، هو التدبّر فيه واستنباط العقائد الحقّة الموافقة للبراهين العقليّة منه، وكذا استظهار الأحكام العمليّة ونحوها.

تطرّق الاستنطاق في الملاحم

وأمّا الملاحم والأخبار الغيبيّة والتأويل وما إلىٰ ذلك، من العلوم القرآنيّة الّتي لا تُستنبط من الألفاظ ولا تُستظهر من الأقوال ولا تحكيه العبارة ولا ترشد إليه الإشارة، فلا يمكن استفادتها بمجرّد التدبّر فيه. إذ المتدبِّر لا يستفيد منه إلاّ بمقدار ما يدلّ عليه الظاهر، وإن ضُمّ بعضه ببعض وجعله مفسّراً لذلك البعض الآخر.

وأمّا ما هو خارج عن نطاق الظهور اللّفظي، فلا يمكن له أن يستنبطه منه. إذ المتدبّر إنّما يغور فيما نطق به القرآن، وأما فيما أضمره ولم ينطق به، فليس في وسعه أن يتأمَّل فيه.

القادر على استنطاق القرآن هو المعصوم

ومثل القرآن كمثل إنسان لبيب حامل لأسرار شتّىٰ، ولا يفشيها إلاّ للخواصّ الّذين هم أصحاب سرّه، ولا يتكلّم للنّاس إلاّ ببعض الأُمور النافعة لهم، ولا يستفيدون منه إلاّ بمقدار ما تكلّم، وهم غافلون عن سرّه ولبّه، ولا يعلمون ما في خزانة صدره.

وأمّا أصحاب سرّه، فهم عارفون بأنّه حامل أسرار؛ فلذا يستنطقونه مرّة بعد أُخرىٰ ليظهر ما في ضميره، ويخرجه من الغيب إلىٰ الشهادة أو يهدي أصحابه إلىٰ باطنه، ويُسيّرهم من الظاهر إلىٰ الباطن، ويعرجهم من الشهادة إلىٰ الغيب، حتّى يقفوا علىٰ مكنون ضميره، ثمّ يستمدّون مما اطّلعوا عليه ليسألوه مرّة أُخرىٰ، ويجعلون ما وقفوا عليه سُلّماً لم يعثروا عليه، وهكذا إلىٰ أن يطّلعوا علىٰ باطنه كالظاهر، وعلىٰ سيرته كالصورة، وعلىٰ قلبه كالقالب، وعلىٰ تأويله كالتفسير، وعلىٰ متشابهه كالمحكم، وعلىٰ غيبه كالشهادة.

هذا هو الميز الأساسي بين فقه القرآن بالتدبّر فيه وبين فقهه باستنطاقه؛ لأنّ المتدبر الّذي لا يستطيع أن يستنطقه، كالعطشان الّذي لا يقدر إلاّ علىٰ الاستفادة من خصوص الماء النابع الجاري من العين علىٰ وجه الأرض، دون سائر المياه المخزونة في المنبع، بخلاف المستنطق؛ لأنّه كالعطشان العالم بما في خزانة الأرض، والقادر على إنطاقها بالحفر وإظهار ما في بطنها علىٰ ظهرها، وإجراء ما كان راكداً وسقي ما يدبّ علىٰ الأرض من الحيوان إيّاه ونحو ذلك.

وحيث إنّ بين الظاهر الجاري والباطن المخزون ربطاً تامّاً، فلا يمكن للمتدبِّر الفاقد طوق الاستنطاق أن يكتفي بنفسه، ويحيد عن القادر علىٰ الاستنطاق في استنباط الباطن، كما يظهر بعد.

والأصل في هذا الفرق، هو أنّ القرآن ندب النّاس إلىٰ التدبّر فيه، وحرّضهم إليه، ووبّخهم علىٰ تركه وعيّرهم علىٰ هجره، حيث قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [١]، فيستفاد منه أنّ القلب المنزّه عن الجهل والذنب وغير ذلك من الأقفال، قادر علىٰ التدبُّر فيه، كما تقدّم.

ولكنّ القُرآن العيني، أي الإمام المعصوم (عليه السلام) الّذي لا يفترق عنه، كما لا يفترق القرآن العلمي عنه، وهو أميرالمؤمنين (عليه السلام) قال: بأنّ القرآن لا ينطق مع النّاس وليسوا بقادرين علىٰ استنطاقه، والّذي يقدر علىٰ ذلك والقرآن أيضاً ينطق معه هو الإمام المعصوم (عليه السلام). حيث قال (عليه السلام): «أرسله (صلى الله عليه وآله) علىٰ حين فترة من الرّسل وطول هجعة من الأُمم وانتقاض من المبرم، فجاءهم بتصديق الّذي بين يديه والنّور المقتدىٰ به ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أخبركم عنه، ألا أنّ فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء دائكم ونظم ما بينكم» [٢]؛ لظهوره في أنّ القرآن مع كونه نوراً وقدوة يقتدىٰ به بلا ظلام، لكنّه في غاية الشدّة والإشراق، بحيث لا يقدر أحد علىٰ النظر الكامل إليه، إلاّ الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) الّذي بينه وبين الله سبحانه عمود نوري، حسبما تقدّم.

شدّة نورانيّة القرآن و ضعف عقول الناس حجاب الاستنطاق

وأمّا سائر الناس، فليس في وسعهم إلاّ النظر إليه من وراء حجاب الألفاظ والمفاهيم والصور الذهنيّة ونحوها، فلذا لا يصلون إلىٰ ما في سرّه من الملاحم، وما

---

١. محمد، ٢٤.
٢. نهج البلاغة، خطبة ١٥٨.

في بطنه من الأنباء الغيبيّة؛ لأنّ العثور بها يتوقّف علىٰ العبور من التدبُّر إلىٰ الاستنطاق، وأنّىٰ لهم ذلك؟ وكذا يتوقّف علىٰ تنزّل القرآن من مقام السرّ إلىٰ منصّة العلن، بأن ينطق عمّا في مكنونه، وأنّىٰ له ذلك بالنسبة إلىٰ من ليس بأهل له؟

ومرجع الحجاب هنا إلىٰ شدّة نورانيّة القرآن وضعف عقول النّاس الّذين أقصىٰ نصيبهم؛ هو التدبُّر فيه، دون استنطاقه المتوقّف علىٰ كمال الطهارة؛ لأنّ القرآن ظاهره أنيق يفهم بالتدبر، وباطنه عميق لا ينال به، بل لابدّ من نطقه به، ولا يمنع عمق بطونه عن التدبّر في ظاهره الأنيق والاستدلال به، كما قال أميرالمؤمنين (عليه السلام): «فانظُر أيّها السائل، فما دلّك القرآن عليه من صفته تعالىٰ فائتمّ به واستضيء بنور هدايته» (١).

إذ الائتمام بمدلول القرآن أمارة حجّية ظاهره وإمكان التدبّر فيه واستنباط ظواهره منه؛ فلذا ندب النّاس إلىٰ التفقه فيه، حيث قال (عليه السلام): «... وتعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنّه شفاء الصدور، واحسنوا تلاوته فإنّه أنفع القصص» (٢).

وهكذا رغّبهم في الانتفاع بنصيحته، والاهتداء بهداه، واستماع حديثه الصدق، حيث قال (عليه السلام): «واعلموا أنّ هذا القرآن، هو النّاصح الّذي لا يغشّ، والهادي الّذي لا يضلّ، والمحدِّث الّذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدىً أو نقصانٍ في عمىً...» (٣).

وحيث إنّ التدبّر في القرآن مرغوب فيه، واستنباط الأحكام منه ميسور للنّاس ومطلوب منهم، أوصىٰ (عليه السلام) الحسن والحسين وجميع ولده وأهله ومن

---

١. نهج البلاغة، خطبة ٩١، خطبة الأشباح.
٢. نهج البلاغة، خطبة، ١١٠.
٣. نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.

بلغه كتابه، بتقوىٰ الله ونظم أمرهم وصلاح ذات بينهم، والعمل بالقرآن المتوقّف علىٰ التدبّر والاستنباط منه، حيث قال (عليه السلام): «... الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم»[1].

والغرض، أنّ فقه التدبّر في القرآن، هو ما دون فقه الاستنطاق منه؛ لأنّ المتدبّر إنّما يستفيد منه ما نبع وبرز من الغيب إلىٰ الشهادة دون الزائد عليه. وأمّا المستنطق، فهو يقدر علىٰ الاستنباط وإخراج ما في مخزن غيبه إلىٰ الشهادة بحيث يراه ولا يراه غيره؛ لأنّ القرآن إنّما ينطق سرّاً ويناجي خفيةً مع من استطاع أن ينطقه ويسمع منطقه، لا مع غيره. فهو وإن كان بالقياس إلىٰ ظاهره الأنيق ناطقاً لمن كان واجداً لشرائط التدبُّر ومحفوظاً عن موانعه، ولكنّه صامت بالنسبة إلىٰ باطنه العميق، ولا ينطق بمقال ولا يحدث بحديث إلاّ عند استنطاقه. فمن قدر علىٰ ذلك، وصلح لأن ينطقه فهو ينطق، حينئذ معه من باطنه المكنون ويحدث من ضميره المستور؛ فلذا وصفه أميرا لمؤمنين (عليه السلام) بقوله: «... فالقرآن آمر زاجر وصامت ناطق، حجّة الله علىٰ خلقه...»[2].

الانسان الكامل ترجمان القرآن

ومن المعلوم، أنّ مُستنطِق القرآن العلمي لابدّ وأن يكون بنفسه قرآناً عينيّاً ـ كما تقدّم ـ حتّىٰ يتيسّر له الانطاق ويمكن له سماع مناجاته، واستماع حديث نفسه، وهم العترة الطاهرة الّذين عطفوا الهوىٰ علىٰ الهدىٰ، إذ عطف الناس الهدىٰ علىٰ الهوىٰ، ويعطفون الرأي على القرآن إذ عطف النّاس القرآن علىٰ الرأي.

وحيث إنّ القرآن في عين كونه ناطقاً بظواهره للمتدبِّرين فيه، وتكون تلك

---

١. نهج البلاغة، الوصية ٤٧.
٢. نهج البلاغة، خطبة ١٨٣.

الظواهر حجّة عليهم، يكون صامتاً ببواطنه بالنسبة إليهم، فلابدّ له من ترجمان يستنطقه ويخرج باطنه من الغيب إلىٰ الشهادة؛ فلذا قال علي (عليه السلام): «هذا القرآن إنّما هو خط مستور بين الدفّتين، لا ينطق بلسان، ولابد له من ترجمان، وإنّما ينطق عنه الرجال...» [١].

إذ ليس مراده (عليه السلام) هو سلب حجّية ظاهر القرآن ـ وإلاّ لسقط الاحتجاج به علىٰ الخصم، ولكان نفس هذا القول مخالفاً للقرآن المنادي بإمكان التدبُّر فيه والاستنباط منه. ومن المعلوم، إنّ الخبر المخالف للقرآن مردود، كما يأتي عن مولانا الرضا (عليه السلام) ـ بل مراده (عليه السلام) انّ بعض مطالب القرآن ظاهر يمكن نيله بالتدبّر فيه وبعضه ليس بظاهر منه، بل باطن فيه لا يمكن نيله إلاّ بإنطاقه، وليس ذلك الإنطاق إلاّ في وسع الترجمان الإلٰهي، وهو الإنسان الكامل المعصوم ـ حسبما تقدّم نقله ـ حيث قال (عليه السلام): «... ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أُخبركم عنه» [٢].

ضرورة رجوع الناس إلى الامام

وحيث إنّ العترة الطاهرة، هم الّذين يقدرون علىٰ إنطاق القرآن وسماع نجواه وعثور ما في ضميره المكنون، وهم الترجمان له، يلزم علىٰ النّاس الرجوع إليهم، كلزوم رجوعهم إلىٰ القرآن؛ لأنّهما لن يفترقا. فلذا قال (عليه السلام): «... فأين تذهبون وأنّىٰ تؤفكون والاعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة؟ فأين يتاه بكم؟ وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمّة الحقّ وأعلام الدِّين وألسنة الصدق؟ فانزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهِيم العطاش» [٣].

---

١. نهج البلاغة، خطبة ١٢٥.
٢. نهج البلاغة، خطبة ١٥٨.
٣. نهج البلاغة، خطبة ٨٧.

والسرّ في كونهم (عليهم السلام) هم الترجمان للقرآن المستنطقون له دون غيرهم، هو أنّ منزلتهم هي أحسن منازل القرآن؛ لأنّ جميع درجاته ومنازله من لدن حكيم عليم إلىٰ أن يتنزل إلىٰ عالم اللّفظ. والعبارة العربيّة وإن كانت حسنة إلاّ أنّ بينها امتيازاً لا محالة، بحيث يكون أعلاها أحسنها؛ لأنّه أقرب إلىٰ العليم الحكيم.

منزلة المعصومين أحسن منازل القرآن

وحيث إنّ منازل العترة الطاهرة هي أحسن منازل القرآن، فلذا يعلمون أسراره وضمائره، ويقدرون علىٰ إنطاقه وإخراج ما في غيبه إلىٰ الشهادة. وبما تقدّم من الميز بين فقه القرآن تدبُّراً وفقهه استنطاقاً، يظهر معنىٰ قول مولانا الرضا (عليه السلام) لما سأل المأمون فقال: أخبروني عن معنىٰ هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنا الْكِتٰابَ الَّذِيْنَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبٰادِنا﴾ [1] الآية، فقالت العلماء: أراد الله الأمّة كلّها، فقال المأمون: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال الرضا (عليه السلام): لا أقول كما قالوا، ولكن أقول: أراد الله تبارك وتعالىٰ بذلك العترة الطاهرة، وقال المأمون: وكيف عنىٰ العترة دون الأمّة؟ فقال الرضا (عليه السلام): لو أراد الأمّة لكانت بأجمعها في الجنّة؛ لقول الله: ﴿فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِد وَمِنْهُمْ سابق بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ الله ذٰلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيْر﴾ [2]، ثمّ جعلهم في الجنّة، فقال عزّوجلّ: ﴿جَنّاتِ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهٰا﴾ [3]، فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم، ثم قال الرضا (عليه السلام): هم الّذين وصفهم الله في كتابهم، فقال: ﴿إِنَّمٰا يُرِيْدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْراً﴾ [4]، وهم الّذين قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنّي مخلف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض، انظروا كيف تخلفوني فيهما، يا أيّها النّاس

١. فاطر، ٣٢.
٢،٣. فاطر، ٣٣.
٤. الأحزاب، ٣٣.

لاتعلّموهم فإنّهم أعلم منكم... إلىٰ أن قال الرضا (عليه السلام): إنّ الله العزيز الجبّار فضّل العترة علىٰ سائر النّاس في محكم كتابه، قال المأمون: أين ذلك من كتاب الله؟ فقال الرضا (عليه السلام) في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفىٰ آدَمَ وَنُوْحاً وَآلَ إِبْراهِيْمَ وَآلَ عِمْران عَلىٰ العالَمِيْنَ ذُرِّيّة بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ...﴾ (١)،(٢).

ورثة الكتاب هم العترة

وقد استدلّ (عليه السلام) بغير واحدة من الآيات، علىٰ أنّ العترة الطاهرة هم ورثة الكتاب، وهم صفوة الله، وهم الّذين قرنهم الله سبحانه بنفسه وبرسوله في سهم الغنيمة ﴿أنّما غَنَمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فأنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرّسولِ وَلِذي القُرْبىٰ﴾ (٣)، وفي الطاعة ﴿أطِيْعُوا اللهَ وَأَطِيْعُوا الرّسُولَ وأُولِي الأمْرِ مِنْكُمْ﴾ (٤)، وفي الولاية ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمْ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيْمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكوٰة وَهُمْ راكِعُونَ﴾ (٥). فتبارك الله ما أعظم نعمته علىٰ أهل هذا البيت، فلمّا جاءت قصّة الصدقة نزّه نفسه عزّ ذكره ونزّه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ونزّه أهل بيته منها، فقال: ﴿إِنَّما الصّدَقات لِلْفُقَراءِ...﴾ (٦).

فليكن ما قدّمنا من البحث شرحاً لهذه الكلمات النوريّة الرضويّة، علىٰ الناطق بها صلوات الله وملائكته.

وحيث امتاز تدبّر القرآن عن استنطاقه، وتبينّ أنّ المتدبّر فيه بمنزلة المستمع فقط، فلا يقدر علىٰ أن يتكلّم مع القرآن وينطقه. وأنّ المستنطق ليس مستمعاً فقط، بل هو محاور له يحاوره ويشاوره وينطقه ويسأله ويستجيبه ويعرض

---

١. آل عمران، ٣٤ ـ ٣٣

٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ١١٤، ح ١٠.

٣. الأنفال، ٤١.   ٤. النساء، ٥٩.   ٥. المائدة، ٥٥.

٦. التوبة، ٦٠.

المشاكل عليه ويستدعيه حلّها ويسأله من فضله ويعتصم به، فيرقىٰ معه درجة بعد درجة، حتّىٰ يرجعا إلىٰ ما صدرا منه، ويصعدا إليه سبحانه، ويختفيا فيما ظهرا منه، كما هو مقتضىٰ المعيّة المطلقة الابية عن الانفكاك في مرتبة من المراتب نزولاً وصعوداً. وأنّ سائر النّاس، وإن أمكن لهم التدبّر في القرآن، ولكن لا يتيسّر لهم استنطاقه. وأنّ المستنطق هو الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام)، يتبيّن بالضرورة احتياج النّاس إليه أوّلاً، وأنّ العترة الطاهرة الّذين هم الكمّل من النّاس هم ورثة الكتاب العزيز ثانياً، وهم أهل الذكر الّذين يجب علىٰ الناس سؤالهم ثالثاً، وهم السابقون بالخيرات رابعاً، وما إلىٰ ذلك من الأوصاف الكاملة الّتي قرّرها الله في كتابه للأوحدي من الناس.

وقد بيّن مولانا الرضا (عليه السلام) مصاديق ذلك في قوله (عليه السلام): «نحن أهل الذّكر ونحن المسؤولون»، قال الوشاء: قلت له (عليه السلام): فأنتم المسؤولون ونحن السائلون؟ قال (عليه السلام): نعم، قلت: حقّاً علينا أن نسألكم، قال (عليه السلام): نعم، قلت: حقّاً عليكم أن تجيبونا؟ قال (عليه السلام): لا، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن لم نشأ لم نفعل، أما تسمع قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿هٰذا عَطٰاؤُنٰا فَامْنُنْ أو امْسِكْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ﴾[1]»[2].

ومعنىٰ قوله (عليه السلام): «إن شئنا فعلنا وإن لم نشأ لم نفعل» هو التخيير في غير مورد بيان الحكم وتبيين التكليف، وإلّا فلا مجال هناك للتخيير، حين فرض لزوم التعليم أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك، كما يظهر من الاستشهاد بقوله تعالىٰ: ﴿هٰذا عَطٰاؤنا...﴾، الناظر إلىٰ العطايا المندوبة، إذ هناك يتخيّر النبيّ بين المنّ والإعطاء، وبين عدم المنّ بالإمساك، لا في أصل الحكم وبيان الرسالة.

---

١. ص، ٣٩.
٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٥٠، ح ١٢٩.

وهكذا بيَّن مولانا الرضا (عليه السلام) مصاديق ما تقدّم، من الأوصاف الكماليّة في قوله (عليه السلام) لما سأله أحمد بن عمر عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [1] الآية، بأن قال (عليه السلام): ولد فاطمة (عليها السلام) والسابق بالخيرات الإمام، والمقتصد العارف بالإمام، والظالم لنفسه الّذي لا يعرف الإمام» [2].

صيانة القرآن عن تطرّق الباطل

وحيث تبيَّن الميز الجوهري بين التدبُّر في القرآن وبين استنطاقه، يظهر التمايز بين تفسير المتدبّر فيه وتفسير الإمام المعصوم (عليه السلام) المستنطق له؛ لأنّ المتدبّر إنّما يعرفه باسمه ورسمه وأماراته الدالّة علىٰ محتواه بالظن غالباً، والمستنطق إنّما يعرفه بحدّه ومقومات فاعليّته وعلله المفيضة إيّاه بالقطع، كما قال الحسن بن علي (عليه السلام): «نحن حزب الله الغالبون وعترة رسول الله الأقربون ، وأهل بيته الطيبون الطاهرون، أحد الثقلين اللذين خلّفهما رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أُمّته، ثاني كتاب الله الّذي فيه تفصيل كلّ شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فالمعوّل علينا في تفسيره لا نَتَظَنُّ تأويله، بل نتيقّن حقائقه؛ فأطيعونا، فإنّ طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة...» [3].

أمّا سرّ صيانة القرآن عن تطرّق الباطل من الأمام والخلف، هو أنّ الله تعالىٰ سلك من بين يديه ومن خلفه رصداً، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم، كما تقدّم في الروضة.

وسرّ يقين العترة الطاهرة بما في القرآن من تفصيل كلّ شيء، هو المعيّة

---

١. فاطر، ٣٢. ٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٦٦، ح ١٦٤.

٣. بحارالأنوار، ج ٤٣، باب ١٧، ص ٣٥٩، ح ٢.

المطلقة المقتضية لأن لا ينفك القرآن عنهم في درجة من درجاته، ولا ينفكّوا عنه في منزل من منازله. فلذا يعلمون جميع ما فيه علم عيان، ويخبرون عن ذلك خبراً لاريب فيه، فلابدّ من الاعتماد عليهم في فقهه، والركون إليهم في تفسيره، والثقة بهم في تأويله وسؤالهم عن باطنه.

ومقتضىٰ هذه المعيّة، هو أن يعامل مع سنّة العترة الطاهرة معاملة القرآن الكريم في جميع الشؤون، بأن يراجع في فقه مآثرهم إلىٰ القرآن، وتعرض عليه حتّىٰ لا تكون مخالفة له مباينة إيّاه، ولا تتعدّىٰ طور التبيين والتأويل والتفسير إلىٰ المخالفة والبينونة. إذ المبائن للقرآن باطل لا يتفوّه، به الّذي يدور مع الحقّ حيث دار؛ لأنّ الباطل مضاد للحق.

اشتمال السنّة على المتشابه كالقرآن

وإلىٰ بعض لوازم معيّة القرآن والعترة الطاهرة أشار مولانا الرضا (عليه السلام)، حيث قال (عليه السلام): «من ردّ متشابه القرآن إلىٰ محكمه هُدِيَ إلىٰ صراطٍ مستقيم»، ثمّ قال: «إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ومحكماً كمحكم القرآن، فردّوا متشابهها إلىٰ محكمها، ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا»[1].

وحيث إنّ اشتمال القرآن علىٰ المتشابه في ضوء المحكمات الّتي هنّ أُمّ الكتاب، إنّما هو لحكمة خفيت علىٰ غير واحد. والفرض أنّ العترة الطاهرة وسنّتهم مع القرآن، فلابدّ وأن تكون أخبارهم واجدة لتلك الحكمة أيضاً.

وكما أنّ لفقه القرآن شرائط تصحّحه وموانع تمنع عنه، كذلك لمعرفة السنّة أسباب تقتضيه وقواطع تصدّ عنه، ويعبّر عن تلك القواطع بأقفال القلب. وكما أنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه ببعض، كذلك السنّة يصدّق بعضها

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٠٧، ح ٥.

بعضاً. وكما أنّ السنّة تفسّر القرآن وتبيّنه، كذلك القرآن يؤيّدها ويسدّدها ويمضيها، ولكن ذلك بعد عرضها عليه؛ لأنّه الميزان القسط الّذي سلك الله من بين يديه ومن خلفه رصداً.

فلذا، لا يتطرّق إليه الجعل والافتراء والتحريف؛ لأنّه ما كان حديثاً يفترىٰ من دون الله، بخلاف السنّة الّتي يتطرّق إليها ذلك، كما خطب النبي (صلى الله عليه وآله) بمنىٰ، فقال: «أيّها النّاس ما جاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله» [١]؛ لأنّ ظاهره هو إمكان الجعل والتحريف في السنّة دون القرآن.

والدليل علىٰ أنّ المخالف للقرآن المباين له ليس مقولاً له (صلى الله عليه وآله) ولا لأحد من العترة الطاهرة، هو أنّه يوجب افتراقهم (عليهم السلام) عن القرآن، وافتراقه عنهم، مع أنّهما ـ أي العترة والقرآن ـ لن يفترقا أبداً. إذ المباين للحق باطل لامحالة، كما قال سبحانه: ﴿فَمَاذا بَعْدَ الْحَقِّ إلاّ الضَّلال﴾ [٢].

عديل القرآن هو الانسان الكامل لا الرواية

ومن المعلوم، أنّ القرآن حقّ من مبدأ نزوله إلىٰ منتهاه، كما قال تعالىٰ: ﴿بِالْحَقِّ أنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَل﴾ [٣]، والباطل مفترق عن الحقّ بالضرورة.

فالمحصّل، هو أنّه لو صدر من العترة شيء مبائن للقرآن، لزم افتراقهم عنه، وبطلان اللازم واضح كضرورة التلازم، وبطلانه مستلزم لبطلان المقدّم. فلذا قال مولانا الرضا (عليه السلام): «إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذّبتها» [٤]، حين

---

١. بحارالأنوار، ج ٢، باب ٢٩، ص ٢٤٢، ح ٣٩.

٢. يونس، ٣٢. ٣. الإسراء، ١٠٥.

٤. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التوحيد، ص ١٦، ح ٧.

قال له (عليه السلام) أبو قرة في بحث امتناع رؤية الله: فتكذّب بالروايات ولم يعلم هو ولا من هو مثله.

إنّ عديل القرآن وزميله هو الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) ـ أي العترة الطاهرة (عليهم السلام) ـ لا الرواية، حيث إنّها ليست كالقرآن معصومة، حتّى تصلح لأن تكون عديلة له؛ لأنّ غير المعصوم لا يكون مع المعصوم. إذ المعيّة لابدّ وأن تكون بملاك يصحّحها وجامع يجمع المعين فيه، فإذا لم تكن الرواية مصونة عن الدسّ والتحريف، فكيف يمكن أن تصير مع القرآن المصون عن ذلك كلّه!؟

وأمّا العترة الطاهرة فلعصمتهم عن الجهل والزيغ والطغيان والسهو والنسيان وما إلىٰ ذلك، من أنحاء الرجس وأقسام الرجز، وطهارتهم عنها بعناية من الله سبحانه، فهم الأحرياء بأن يكونوا كفو القرآن، كما أنّ القرآن عديل لهم ولا يصدر عنهم ما يباينه أصلاً؛ لأنّ المعصوم (عليه السلام) لا ينطق في بيان الأحكام الإلهيّة بالهوىٰ ولا يميل إليه. فلذا صرّح مولانا الرضا (عليه السلام) بتكذيب الروايات المخالفة للقرآن؛ لأنّها مدسوسة وموضوعة.

وكما أنّ الدسّ والوضع لا يتطرّقان إلىٰ القرآن العلمي، كذلك لا ينفذان إلىٰ القرآن العيني، وهو الإمام المعصوم (عليه السلام). إذ المباين للقرآن مباين للعترة الطاهرة قطعاً؛ لأنّ ضدّ أحد المعَين مضاد للمع الآخر؛ لوحدة الملاك في المعيّة والتضاد، ولا مجال لأن يكون شيء مضاداً لأحد الأمرين المندرجين تحت جامع واحد حقيقي، ولا يكون ضدّاً للمندرج الآخر مع انحفاظ وحدة الملاك.

الجنّة الثّالثة:

فــي تحضيــض القــرآن إلى التّحقيق وطرد الأمنيّة

الجنّة الثالثة:

في تحضيض القرآن إلى التحقيق و طرد الامنيّة

بعدما تبيّن أنّ شرائط معرفة القرآن ما هي؟ وأنّ الموانع عنها ما هي؟ وأنّ المائز بين التدبّر في القرآن وبين استنطاقه ماذا يلزم التدبّر فيه مستمدّاً من مستنطقه، وهو الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) معترفاً بأنّ الكلّ من الله سبحانه وتعالىٰ، فنقول:

إنّ مضامين القرآن، وإن ابتنىٰ بعضها علىٰ التعبّد المحض، إلاّ أنّ معارفه الأوّلية قد أُسِّست علىٰ اليقين الجامع لمراتبه، من علم اليقين وعين اليقين، وحقّ اليقين وإن كان هو أقلّ ما قسم بين النّاس ولم يرزقوا بشيء أحسن منه، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «إنّ الايمان أفضل من الإسلام بدرجة ،والتقوىٰ أفضل من الايمان بدرجة، ولم يعطَ بنو آدم أفضل من اليقين» [1].

تأسيس سيرة الحياة على التحقيق لا التمنّي

ويستفاد من القرآن الكريم أنّ من أظهر مصاديق الطريقة الّتي هي أقوم الّتي يهدي القرآن لها، هو تأسيس سيرة الحياة علىٰ التحقيق والاتّقاء عن أيّة أُمنية

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، باب النوادر، ص ٢٨٤، ح ١٠٤.

كاذبة خاطئة، لا تستند إلىٰ العقل أو النقل القطعي؛ لأنّ الإنسان في أيّ موقف كان، فله عقل يهديه إلىٰ سواء السبيل ووحي يرشده إلىٰ الصراط المستقيم، فهو لابدّ وأن يكون محقّقاً في دوره، سواء كان تابعاً مطيعاً أو متبوعاً مطاعاً، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيْدٍ﴾ [1]؛ لظهوره في أنّ الجاهل المقلّد في جهله يجادل في الله عن جهل تقليدي، ويتّبع ويقلّد ويطيع كلّ شيطان قاده واستعلىٰ عليه وملك زمامه، فلا محيص للتابع عن التحقيق، صوناً عن إطاعة كلّ قائد شيطاني متمرّد عن الله.

وليس للجاهل أن يقلّد في تقليده مقلّداً آخر مثله، بل لابدّ في أن يحقّق في تقليده، ليستند إطاعته إلىٰ علم تحقيقي، لا إلىٰ ظنّ تقليدي، فإنّه لا يغني من الحقّ شيئاً. فعلىٰ التابع المطيع أن يحقّق؛ لئلاّ يقع في تيه طاعة الشيطان المارد الّذي كتب عليه أنّه من تولاّه، فإنّه يضلّه ويهديه إلىٰ عذاب السعير. هذا فيما يرجع إلىٰ لزوم التحقيق في الإطاعة.

لزوم التحقيق في المتبوع المطاع

وأمّا لزومه في المتبوع المطاع، فلقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاٰ هُدَىً وَلاٰ كِتَابٍ مُنِيْرٍ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيْقُهُ يَوْمَ القِيٰمَةِ عَذَابَ الْحَرِيْقِ﴾ [2]؛ لظهوره في أنّ الجاهل القائد لغيره يجادل في الله بغير علم عقليّ ولا وحيٍّ سماويٍّ، يثني رأسه وعطفه، كأن ليس هناك حقّ يعتدّ به، ووحي يخضع لديه ليصير متبوعاً يطيعه الجهّال ويضلهم عن سواء السبيل. وليس للقائد والمطاع أن يصير رأساً يتبعه الأذناب، إلاّ بعد علمٍ وهدىً، وذلك لا يحصل إلاّ بالتحقيق الّذي يهدي القرآن، المجتمع الإنساني إليه.

---

١. الحج، ٣. ٢. الحج، ٩ ـ ٨.

تخاصم التابع و المتبوع في القيامة

أفمن أسّس بنيانه ـ في أيّ موقف كان ـ علىٰ التحقيق خير، أمّن أسّس بنيانه علىٰ التقليد الّذي هو شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنّم، كما أوعده الله في كلتا الآيتين. فلا الجاهل المطيع ينجو من النار، ولا الجاهل المطاع يخلص منها، بل كلّ فيها يختصمون، ويتبرأ بعضهم من بعض، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ في النّار يَقُولونَ يٰا لَيْتَنٰا أطَعْنٰا اللهَ وَأطَعْنٰا الرّسُولا وَقٰالُوا رَبّنٰا إنّا أطعْنا سٰادتنا وَكُبَراءَنا فَأضَلُّونا السَّبِيْلاٰ رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيْراً﴾ [1].

ولكن لا يجديهم هذا التمنّي بعدما قامت الحجّة عليهم في الدُّنيا علىٰ لزوم التحقيق، مع إمكانه وانتاجه.

وأنهم وإن يتمنّوا أن يضاعف الله عذاب سادتهم وكبرائهم، ولكن لاينفعهم هذا التمنّي أيضاً، إذ لهم ـ كهؤلاء السادة ـ ضعفان من العذاب، كما قال سبحانه: ﴿قالَ ادْخُلُوا في اُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الجِنِّ والإنس في النّارِ كُلّما دَخَلَتْ اُمّة لَعَنَتْ اُخْتَها، حَتّىٰ إذا ادّاركوا فِيْها جَمِيْعاً قَالَتْ اُخراهم لأُولٰهم رَبّنا هٰؤلاءِ أضَلّونٰا فآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النّار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْف وَلٰكِنْ لا تَعْلَمُونَ وَقٰالتْ اُوْلٰهم لأُخراهم فَمٰا كٰانَ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [2].

والسرّ في استحقاق كلّ من التابعين الجهّال المقلّدين في الاتّباع والطاعة، ومن المتبوعين الجهّال في الزعامة والقيادة ضِعْفاً من العذاب ـ مع أنّ الأصل القطعي المستفاد من القرآن، هو أنّ جزاء سيّئة سيئة مثلها لا أزيد منها، وإن كان جزاء حسنة خيراً منها ـ هو أنّ التابع المقلّد في طاعته واتّباعه قد ارتكب سيّئتين:

---

١. الأحزاب، ٦٨ ـ ٦٦. ٢. الأعراف، ٣٩ ـ ٣٨.

إحداهما: المعصية الخارجيّة المشتركة بينه وبين قائده، وهو السجود للصنم أو غيره من المعاصي.

والأُخرىٰ: هو قبول رئاسة الإمام الجائر، مع أنّ العقل والوحي قد تطابقا علىٰ لزوم مقاتلة أئمة الكفر والطغيان، ودفع شرورهم ورفع ظلمهم. كما أنّ المتبوع الّذي قاد النّاس إلىٰ اتّباعه جهلاً منه، قد ارتكب سيّئتين:

إحداهما المعصية الخارجية.

والأُخرىٰ: تصدّي الحكومة، والترأس علىٰ النّاس ظلماً وجوراً. فلذا يُعاقب كل من السائس والمسوس الّذين في النّار، ضِعْفاً من العذاب، ولا أثر للتمنّي هناك، وإن يودّ الأتباع أن يردّوا إلىٰ الدُّنيا ويتبرّأون من سادتهم الطغاة، كما تبرّأوا منهم يوم القيامة حين رأوا العذاب، حيث قال سبحانه: ﴿إذ تَبَرَّءَ الَّذِيْنَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوا وَرَأَوا الْعَذٰابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسْباب وَقٰالَ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوا لَوْ أنَّ لَنٰا كَرَّة فَنَتَبَرَّءَ مِنْهُمْ كَمٰا تَبَرَّؤا مِنّا كَذٰلِكَ يُرِيْهِم اللهُ أعْمٰالَهُمْ حَسَرات عَلَيهم وَمٰا هُمْ بِخٰارِجِيْنَ مِنَ النّارِ﴾ [١].

والحاصل، أنّ الحياة الّتي يهدي القرآن النّاس إليها، هي الحياة المؤسسة علىٰ التحقيق لا التمنّي، إذ لا جدوىٰ للأُمنية في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ لأنّ النظام الحاكم علىٰ النشأتين ـ مع ما بينهما من الامتياز الملكي والملكوتي ـ هو التدبّر والتحقيق، لا الاسترسال والتمنّي؛ ولذا قال أميرالمؤمنين (عليه السلام): «... إيّاك والاتّكال علىٰ المُنىٰ، فإنّها بضائع النوكىٰ» [٢].

مدار التفكّر و التصديق و التكذيب هو العقل

والأصل في ذلك، هو القرآن الحكيم النادب إلىٰ التحقيق، والناهي عن

---

١. البقرة، ١٦٧ ـ ١٦٦.

٢. غررالحكم و دررالكلم، ص ٥، ح ٥٤.

الركون إلىٰ شيء بدونه، والناطق بأنّ الأسماء والعناوين والألقاب وما إلىٰ ذلك، من الجهات الخارجة عن نطاق الذات وحوزة الجوهر الإنساني، لا تغني من شيء، فيلزم التدبّر في محتواه، ثمّ استماع ما عن مستنطقه، وهو مولانا الرضا (عليه السلام).

أمّا القرآن فهو ـ مع إصراره علىٰ أنّ مدار التفكّر والتصديق والتكذيب هو العقل، وأنّ الحياة الطوبىٰ إنّما تحصل لمن ﴿كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد﴾ [١] ـ قد صرّح بقوله تعالىٰ: ﴿إنّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِيْنَ هٰادوا وَالنَّصٰارىٰ وَالصّٰابِئِينَ منْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِر وَعَمِلَ صٰالِحاً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهمْ وَلاٰ خَوفٌ عَلَيْهِم وَلاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢]، إذ المستفاد من هذه الآية وما يضاهيها، هو أنّ الأُمّة الّتي لا تلحد في الله بالانكار المحض، ولا تنكر الرجوع إليه بالنفي الصرف، ولا تعبد اللات والعزّىٰ، ولا تقول: إن هي إلّا حياتنا الدّنيا، ولا تعلن بقولها: وما يهلكنا إلّا الدهر، وبالجملة تعترف في الجملة بأنّ لها ربّاً ترجع إليه، وإن تقطعت أحزاباً وفرح كل حزب بما لديه، وحسب أنّه ناج دون غيره، واكتفىٰ بعنوانه الخاص به من العناوين المطروحة في الكريمة، إلّا أنّ الله الّذي بيده قدر كلّ شيء، وتعيين ملاك الهلاك والنجاة، قال: بأنّ شيئاً من هذه الأسماء لا يجدي، ولا يدور الاجر الإلٰهي مداره أصلاً، لدورانه مدار أُصول ثلاثة يستوي فيها الناس من الصدر إلىٰ الساقة، وهي المعارف الأوّلية الّتي أُسّس عليها الإسلام، الّذي هو الدِّين الوحيد عند الله، والّذي جاء به الأنبياء، بلا فرق بينهم من هذه الجهة.

الاصول التي هي مدار الأجر الالهي

وتلك الاصول عبارة عن الاعتقاد بالله الجامع لجميع الكمالات، الّتي هي من الاطلاق الذاتي الطارد لاحتمال أيّ شريك وندّ وضدّ ومعاضد ونحو ذلك،

---

١. ق، ٣٧.

٢. البقرة، ٦٢.

والاعتقاد باليوم الآخر الّذي إليه يرجع الناس كلّهم، وله مواقف معروفة، والاعتقاد بالوحي والرسالة والشريعة مع العمل علىٰ موازينها، وهذا الأصل الثالث، هو الّذي عبّر عنه القرآن بالعمل الصالح.

ومن المعلوم لمن تدبَّر فيه وأنس به، عرف نطاقه أنّه إنّما يعدّ العمل المنطبق علىٰ شريعة كلّ عصر صالحاً. فلو كان عمل غير منطبق علىٰ شريعة أصلاً، أو كان مطابقاً لمنهاج منسوخ، وشريعة قد قضت نحبها وقضىٰ أجلها، فليس هو بعمل صالح لديه. وأمّا الأُمور الكلّية الّتي ينالها العقل، ويمضيها الوحي المشترك، كالعدل والاحسان والصدق والايثار والأمانة والتواضع ونحو ذلك، فهي أوصاف وأعمال صالحة عند كلّ نبي ووصي.

والغرض، هو أنّ العمل الصالح في مصطلح القرآن، هو العمل المطابق لما جاء به الوحي الحاكم علىٰ عصره. ومن المعلوم انّ تطبيق العمل علىٰ ذلك الميزان يتوقّف علىٰ العلم به، والانعطاف إليه، وعقد القلب عليه. وهذا هو الاعتقاد بالوحي والنبوّة المشار إليه في الأصل الثالث.

وهذه الأُصول الثلاثة ـ في أيّ عصر تحقّقت ـ فهي الموجبة للأجر الإلٰهي المزيلة لأيّ خوف وحزن، سواء في ذلك الخلف والسلف، وهذه أُصول لابدّ في معرفتها من البرهان العقلي الّذي لا مجال فيها للتقليد ولا للقيادة؛ لأنّ الناس فيها شرع سواء، وإن اختلفت درجات تحقيقهم ومراتب فحصهم بالاجمال والتفصيل، وبالشدّة والضعف، فلا وجه لحصر السعادة في عنوان، ونفيها عن عنوان آخر.

بنيان اليهود و النصارى على الجهل

وعلىٰ هذا الحجر الأساسيّ، يقضي القرآن علىٰ الدعاوى العاطلة والأماني الكاذبة الّتي لكلّ حزب خاص، حيث يدّعي كلّ واحد من تلك الأحزاب أنّه

أهل السعادة والجنّة دون غيرهم، ولا يرضىٰ عن غيره حتّىٰ يتّبع ملّته، ويدّعي أنّه هو المتقرّب من الله سبحانه، وأنّ غيره هو البعيد عنه تعالىٰ، وأنّه لا سبيل لغيره عليه، بل له أن يفعل في حقّ غيره ما يشاء، حيث قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كٰانَ هُوْداً أو نَصٰارىٰ تِلْكَ أمٰانِيّهم قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صٰادِقِيْنَ﴾[1].

يعني أنّ اليهود منطقهم هو انحصار الجنّة لهم، ولا يدخل فيها أحد سواهم، وكذا النصارىٰ دعواهم هو انحصارها لهم، ولا مطمح لأحد فيها عداهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقٰالَتِ الْيَهُود لَيْسَتِ النَّصٰارىٰ عَلىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصارىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلىٰ شَيءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتٰابَ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِيْنَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِم فَالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيٰامَةِ فِيْمٰا كٰانُوا فِيْهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2]، يعني أنّ كلّ واحد من فريقي اليهود والنصارىٰ يطرد الآخر، مع أنّ الكتاب الإلٰهي الّذي يتلونه لا يحكم بأنّ النجاة تدور مدار العنوان والاسم ونحو ذلك.

وهؤلاء مع تلاوتهم لذلك الكتاب الإلٰهي الحاكم بخلاف ذلك يتهوّسون بنفي الفريق الآخر، كما أنّ هذه الدعوىٰ العارية عن البرهان هو قول غيرهم من الجهّال الفاقدين للكتاب السماوي، ولا يختصّ هذا الحصر المتوهّم بالقياس إلىٰ فريق دون آخر، بل كلّ من هؤلاء ينفي كلّ من سواه، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَنْ تَرْضىٰ عَنْكَ الْيَهُود وَلا النَّصٰارىٰ حَتّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إن هَدى الله هُوَ الهدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهوائَهُمْ بَعْدَ الَّذي جٰائَكَ مِنَ العِلْمِ مٰا لَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِيّ وَلاٰ نَصِيْرٍ﴾[3]، يعني أنّ اليهود لا ترضىٰ عن الرسول وأُمّته، إلاّ أن يرتدّوا عن الإسلام ويتهوّدوا، وإن النصارىٰ لا ترضىٰ عنهم، إلاّ أن يتنصّروا، وكلّ واحد من الفريقين، كما يحكم

---

١. البقرة، ١١١.	٢. البقرة، ١١٣.	٣. البقرة، ١٢٠.

ببطلان الفريق الآخر وأنّه ليس علىٰ شيء، كذلك يقضي علىٰ الإسلام والمسلمين بأنّه ليس علىٰ شيء أصلا.

وقد بلغت أمنيتهم الكاذبة إلىٰ ما ادّعوا أنّهم ـ دون غيرهم ـ أخصّاء بمعرفة الله ودينه، وأنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، ولكن ردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُود وَالنَّصارىٰ نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللهِ وَأَحِبّاؤه قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبكم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّن خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاء وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ ولله مُلْكُ السمٰواتِ وَالأَرْضِ وَمٰا بَيْنَهُما وإلَيْهِ المَصِيرُ﴾ [1]. إذ لو كانوا أحبّاؤه لما عذّبهم الله بذنوبهم، ولما أذنبوا حتّىٰ يعذّبوا، بل هؤلاء كغيرهم من أفراد النّاس، ويحكم عليهم ما يحكم علىٰ غيرهم، من العدل العام الإلٰهي الّذي قد مرّ نظامه بدوران الأجر والنجاة من النار مدار هاتيك الأصول الثلاثة، بلا ميز بين حزب وحزب.

وحيث إنّ الأمّة الخاطئة الّتي ترىٰ نجاتها وتزعم هلاك غيرها، قد ترتطم في الغي والضلال إلىٰ حدّ إذا أخرجت يدها لم يكد يراها، تتخيل أنّ المؤسّس لدين التوحيد المنتهى إليه الأنبياء والأولياء ـ وهو إبراهيم (عليه السلام) ـ كان على دينهم، وأنّهم علىٰ منهاجه دون غيرهم، حيث قال سبحانه: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنّ إبْراهِيْمَ واسْمٰاعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوب والأَسْبٰاط كٰانُوا هُوداً أو نَصارىٰ قُلْ أأَنْتُمْ أعْلَمُ أم الله وَمَنْ أظْلَمُ مِمّن كَتَمَ شَهٰادَةً عِنْدَهُ مِن الله وَمٰا اللهُ بِغٰافِلٍ عمّا تعملون﴾ [2]، ولمّا تخيّلوا أنّهم علىٰ الحقّ دون غيرهم، وأنّهم علىٰ شريعة الأنبياء دون من سواهم، حسبوا أن لا سبيل إلىٰ الله إلاّ التهوّد أو التنصّر، وإنّما سبيل إبراهيم (عليه السلام)، ولكن ردّ الله تعالىٰ عليهم بأنّ سبيلهم إنّما هو في قبال ملّة إبراهيم (عليه السلام)، وإنّ الصراط المستقيم الهادي إلىٰ الجنّة المنجي من النّار، هو ملّته (عليه السلام) فقط، حيث قال

---

١. المائدة، ١٨.

٢. البقرة، ١٤٠.

سبحانه: ﴿قَالُوا كُونُوا هُوداً أو نَصَارىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلّة إبْراهِيْمَ حَنِيْفاً وَمٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ (١).

وقد بيّن سبحانه في هذه الآيات، أنّ بنيان هؤلاء قد أُسِّس علىٰ الجهل والأُمنية، فلو علموا وحقّقوا لما تفوّهوا بذلك، حيث قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ﴾ (٢)، يعني أنّ الدعوىٰ إذا لم تكن مشفوعة بالبرهان، لما كانت مسموعة بل تصير أُمنية خاطئة، كما قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أمانيّهُم﴾ (٣)، وقال أيضاً: ﴿كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِيْنَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلهم﴾ (٤)، يعني قول هؤلاء الّذين هم أهل الكتاب مثل قول الجهّال؛ لأنّ من لا يعتني بكتابه السماوي وينبذه وراء ظهره، فهو مثل من لا كتاب له من أهل الجاهليّة. هذا نبذ من أمانيهم.

لزوم الجمع بين الحسن الفاعلي و الفعلي للوصول إلى الجنّة

وأمّا القرآن الحكيم فحيث إنّه يهدي للّتي هي أقوم، فلا يأتي بمقال إلاّ مشفوعاً بالبرهان، سواء في ذلك إثبات كمال لشيء أو سلبه عنه، ولا يبني شيئاً من ذلك علىٰ العنوان والاسم والانتماء بكتاب. فلذا لا يرىٰ فيه موضع يعد أحداً بالجنّة أو يؤمّنه من النّار، إلاّ بعد إحراز وصفين:

أحدهما: الحسن الفاعلي، وهو كون ذلك الشخص مؤمناً.

والآخر: الحسن الفعلي، وهو كونه عاملاً بعمل صالح. كما أنّه لا يخوّف أحداً بالنّار ولا يهدّده بها، إلاّ بفقده أحدهما، بأن لا يكون قد آمن أو آمن ولكن ما كسب في إيمانه خيراً.

فلذا تراه قد حكم في هذه المسألة ـ الّتي قد ادّعىٰ كلّ فريق بالقول المطلق أنّه ناج. وادّعىٰ أيضاً بالقول المطلق: أنّ ما عداه ليس علىٰ شيء، بل هالك بحكم

---

١. البقرة، ١٣٥. ٢،٣. البقرة، ١١١. ٤. البقرة، ١١٣.

عدل وقضاء قسط ـ بما يوافق ما أُسّس بنيانه عليه، من دوران الأمر في السعادة والنجاة من النّار وجوداً وعدماً مدار تلك الأُصول الثلاثة كذلك ـ أي وجوداً وعدماً ـ وهو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لَسْتُمْ عَلىٰ شَيْءٍ حَتّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرٰاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيٰاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكٰافِرِينَ﴾[1]، يعني أنّ أهل الكتاب إن أقام كتابه السماوي وما أُنزل إليه من ربّه فهو علىٰ خير وكمال، يفتح له أبواب الرحمة والجمال؛ لأنّ إقامته عبارة إجمالاً عمّا بيّنه في آيتي البقرة والمائدة تفصيلاً، من توقّف الأجر الإلهي ونفي الخوف والحزن علىٰ الايمان بالمبدأ والمعاد والوحي والرسالة والعمل بمقتضاها؛ لأنّ الّذي لم يؤمن بكتابه السماوي، أو آمن ببعضه دون بعض، أو آمن بجميع ما فيه ولكن لم يعمل بمقتضاه، فهو ممّن لم يقمه. فإقامته إنّما تحصل بتلك الأُصول المارّة.

فكم فرقٌ بين من يقول: بأنّ اليهود ليس علىٰ شيء مطلقاً، وبين من يقول: بأنّ اليهود ليس علىٰ شيء حتّىٰ يُقيموا كتابه السماوي. إذ الأوّل مجازف لا اعتداد بدعواه، والثاني حكيم يخضع لما ادّعاه.

وحيث إنّ أهل الكتاب لو أقاموا كتابهم الأصيل بلا تحريف، لنالوا حقائق جمّة، الّتي منها التبشير بالقرآن، ومن يأتي به لحصل لهم نصاب شرائط الأجر الإلهي. فلذا يستقرّون علىٰ شيء، وهو الكمال الّذي تهدف إليه النبوّة وتهدي إليه الرسالة، ولكنّهم نبذوه وراء ظهورهم، ولم يقيموه واقتصروا علىٰ صرف الانتماء إليه، فعمّهم الجهل المقابل للعلم، كما في الأتباع الّذين اتّبعوا كلّ شيطان مريد؛ لفقدهم التحقيق في التابعيّة والطاعة أو الجهل المقابل للعقل، كما في الأحبار

---

١. المائدة، ٦٨.

والرهبان والقسّيسين؛ لإيثارهم الدّنيا علىٰ الآخرة، واستئثارهم الجاه وحبّ الدّنيا، الّذي هو رأس كلّ خطيئة.

فحينئذٍ، يتّضح أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن اتّبعه، لهم حظّ عظيم من العلم، وهؤلاء لا خلاق لهم منه، وبيانه مستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبعوا قِبْلَتَكَ وَما أَنْتَ بِتابع قِبْلَتَهُمْ وَما بَعْضُهُمْ بِتابع قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظّالِمِيْنَ الَّذِيْنَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وإِنَّ فَرِيْقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [1]، حيث إنّه تعالىٰ قد عدّ ما عند الرسول (صلى الله عليه وآله) علماً وقد عدّ عمل هؤلاء هوى يتهوسون به، وبيّن أن هؤلاء قد تبيّن لهم الحقّ وعرفوه أشدّ وضوحاً، كما عرفوا أبناءهم، ولكن كتموا الحق عالمين به، فاقدين عقلاً عمليّاً يعبد به الرّحمان ويكتسب به الجنان، بقبول الحقّ والنكول عن الباطل.

ليس بين الله و بين أحد قرابة

فإذا لاح أنّ مدار السعادة هو التحقيق، وطرو أيّة أُمنية لا تستند إليه، وأنّ معارف القرآن العلمي قد أُسّست علىٰ ذلك ـ حسبما يستنبطه المتدبّر فيه ـ يلزم الاصغاء إلىٰ ما هو المأثور عن مستنطقه، وهو مولانا الرضا (عليه السلام) حيث قال: «من أحبّ عاصياً فهو عاص، ومن أحبّ مطيعاً فهو مطيع، ومن أعان ظالماً فهو ظالم، ومن خذل عادلاً فهو ظالم، أنّه ليس بين الله وبين أحد قرابة، ولا ينال أحد ولاية الله إلاّ بالطاعة، ولقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لبني عبدالمطّلب: «ائتوني بأعمالكم لا بأحسابكم وأنسابكم»، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُون فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِيْنُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ

---

١. البقرة، ١٤٦ ـ ١٤٥.

خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا في جَهَنَّم خَالِدُونَ﴾ [١]»[٢].

فقـد صرّح (عليه السلام) بـأنّ العمل السيّـئ مـن أيّ عامـل صـدر يوجـب الخسارة، وأنّـه ليس بينـه تعالىٰ وبين أحد قـرابة، حتّـىٰ يدّعى بـأنّه مـن أبناء الله وأحبّـائه كـاليهـود، مـع أنّهم قتلوا النبيّين بغير حـقّ، وأنّـه لا ينـال ولايـة الله إلاّ بالطاعة، المؤلّفة من الحسن الفاعلي والحسن الفعلي، حسبما تقدّم.

ولقد روىٰ أبو الصلت الهروي، قـال: سمعت الرضا (عليه السلام) يحدّث عن أبيه، أنّ إسماعيل قـال للصادق (عليه السلام): «يا أبتـاه ما تقول في المذنب منّـا ومن غيرنا؟ فقال (عليه السلام): ﴿ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهـل الكتاب، من يعمل سوء يجز به﴾ [٣]» [٤]، يعنـي أنّـه لا جـدوىٰ للانتماء ولا للتمنّـي، فمـن انتسـب إلىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلابدّ وأن يهتدي بهداه ويسير بسيرتـه وليستنّ بسنّته، ولا يدور الأمر في النجاة مدار أُمنية أيّ متمنٍّ.

ولقـد روىٰ الحسن بـن الجهـم، قال: كنـت عنـد الرضـا (عليه السلام) وعنده (عليه السلام) زيد بن موسىٰ أخوه، وهو (عليه السلام) يقول: «يا زيد اتقِ الله، فإنّه بلغنا ما بلغنا بالتقوىٰ، فمن لم يتّقِ الله ولم يراقبه فليـس منّا ولسنا منه. يا زيد إيّاك أن تهين من بـه تصول مـن شيعتنا فيذهـب نورك. يا زيـد إنّ شيعتنا إنّما أبغضهـم النّاس وعادوهم واستحلّـوا دماءهم وأموالهم لمحبّتهم لنـا واعتقادهم لولايتنـا، فإن أنت أسـأت إليهـم ظلمـت نفسـك وأبطلـت حقّك. قـال الحسـن بـن الجهـم: ثـمّ التفت (عليه السلام) إليّ فقال يابن الجهم: من خالف دِيـن الله فأبرأ منه كائناً من كان من أيّ قبيلة كان، ومن عادىٰ الله فلا تواله كائناً من كان من أيّ قبيلة كان، فقلت

---

١. المؤمنون، ٣ ـ ١٠١.

٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ٢٣٢، ح ٤١٨.

٣. النساء، ١٢٣.

٤. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ٢٣١، ح ٤١٦.

له: يابن رسول الله ومن الّذي يعادي الله تعالىٰ؟ قال: من يعصيه» [١].

وحاصل ما أفاده (عليه السلام)، هو ما نطق به القرآن، من دوران كرامة الإنسان مدار التقوى، وأنّه لا يحصل بالانتساب والأُمنية وما إلىٰ ذلك، بل بالمراقبة والطاعة، وإنّ من يعصي الله فهو عدوّ له، فكيف يكون وليّاً له. ولذا قال (عليه السلام) لأخيه: «أنت أخي ما أطعت الله عزّ وجلّ، إنّ نوحاً (عليه السلام) قال: ﴿ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين﴾ [٢]، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح﴾ [٣]، فأخرجه الله عزّوجلّ من أن يكون من أهله بمعصيته» [٤]؛ لأنّ الله الّذي لا يجور في الحكم؛ لأنّه أحكم وأتقن وأعدل حاكم وقاض، قد حكم بأنّ الطالح منقطع الارتباط بالصالح، وأنّ النسب الاعتباري لا جدوىٰ له في الأمر الحقيقي، وأنّ العصيان يوجب البعد عن الله، وأنّ الطاعة توجب القرب إليه، وأنّ البعيد والقريب ليسا بسواء؛ لأنّه بريء من البعيد عن الله، إذ أولىٰ النّاس بإبراهيم للّذين اتبعوه وهذا النبي (صلى الله عليه وآله) والّذين آمنوا، والله وليّ المؤمنين وهو ـ أي إبراهيم (عليه السلام) ـ ﴿قال لأبيه وقومه إنّني براء ممّا تعبدون﴾ [٥].

والسرّ في ذلك، هو أنّ الحق بريء من الباطل، ولا مجال له مع ظهور الحقّ، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ جٰاءَ الحَقُّ وَمٰا يُبْدِئُ البٰاطِلُ وَمٰا يُعِيدُ﴾ [٦]، أي لا موقع للباطل مع مجيء الحقّ، سواء في ذلك الباطل الحادث البادئ الّذي لم يكن له سبق وجود، أو الباطل الّذي كان موجوداً في السابق وزال، فلا إمكان لعوده، كما لا إمكان لحدوث غيره من الأباطيل، إذ الحقّ يدمغ الباطل، فإذا هو زاهق.

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ٢٣٢، ح ٤١٧.
٢. هود، ٤٥.
٣. هود، ٤٦.
٤. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ٢٣١، ح ٤١٥.
٥. الزخرف، ٢٦.
٦. سبأ، ٤٩.

النظر إلى ذريّة النّبي (ص) عبادة

ومن هنا يتبيّن معنا قول مولانا الرضا (عليه السلام): «النظر إلىٰ ذرّيتنا عبادة، فقيل له: يابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) النظر إلىٰ الأئمة منكم عبادة أو النظر إلىٰ جميع ذرّية النبي (صلى الله عليه وآله)، قال (عليه السلام): بل النظر إلىٰ جميع ذرّية النبي (صلى الله عليه وآله) عبادة مالم يفارقوا منهاجه ولم يتلوّثوا بالمعاصي»[1]؛ لأنّ رؤية الذرّية الطاهرة عن الذنوب، تكون تذكرة للّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. وهذه التذكرة عبادة دون النظر إلىٰ المتلوّث بالمعاصي؛ لأنّه حجاب عن ذكرىٰ هؤلاء المطهّرين، فكيف يكون عبادة!؟ فيدل علىٰ دوران العبادة مدار الحقّ، لا الانتماء والأُمنية والحسبان.

وحيث إنّه (عليه السلام) كان متحقّقاً بالحقّ، وكان صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله ربّ العالمين، وكان منزّهاً عمّا يشوب الباطل والتمنّي، وعمّا يشوبه الانتماء والحسبان، لا يؤثّر فيه المدح والقدح؛ فلذا لما قال له (عليه السلام) رجل: «والله ما علىٰ وجه الأرض أشرف منك أباً، فقال (عليه السلام): التقوىٰ شرفهم وطاعة الله أحظتهم». فقال له آخر: أنت والله خير النّاس، فقال له: لا تحلف يا هذا، خير منّي من كان أتقىٰ لله تعالىٰ وأطوع له، والله ما نسخت هذه الآية ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]؛ لأنّ الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) لا يأتيه الباطل من بين يدي المدح ولا من خلف القدح. لأنّ القرآن العلمي المصون عن ذلك كلّه، قد خالط دمه ولحمه من قرنه إلىٰ قدمه، ومن قلبه إلىٰ قالبه، ومن ملكوته إلىٰ ملكه، ومن عقله إلىٰ طبيعته، ومن فيضه الأقدس عن شوب الكثرة والميز، إلىٰ فيضه المقدّس مستوعباً جميع مراتبه. فكما أنّ

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ٢٣٠، ح ٤١٣.
٢. الحجرات، ١٣.

القرآن العلمي قول فصل وليس بهزل، وبرهـان ليس بحسبان، وحقّ ليس بأُمنية، كذلك القـرآن العيني الّذي هو مستنطقـة حقّ لا ينخسف بالمدح البـاطل، ونور لا ينكسف بالقدح الزور.

وبالجملة، تكون حياته الطوبىٰ حياة عقليّة مبرّأة عن التباهي بالانتماء، وإن كان جميع ما مدحه المادحون أو يمدحونه، فهو (عليه السلام) فوق ذلك كلّه، كما عرّف هو (عليه السلام) الإمام بما لا ينـاله عقول النّـاس، إلاّ أنّ الاستدلال بالقـرآن إنّما هو لتحكيم التحقيق، وطرد أيّة أُمنية لأي متمنٍّ.

الاميّون من مصاديق المغترّين بالدنيا

والسرّ في إصراره (عليه السلام) في طرد التمنّي ونبذ الأُمنيـة وراء الظهر، هو أنّها بضاعة الشيطان وحبالته، كما قال سبحانه حاكياً عنه: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [١]، ولا يغترّ بها إلاّ أهل الـدّنيا، الّذيـن هم تحت ولايته. ومن أظهـر مصاديق هـؤلاء، الاميّون الّذين لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيّ؛ ولذلك يعدهم الشيطان ويمنّيهم وما يعدهم إلاّ غروراً، كما قال أميرالمؤمنين (عليه السلام): «وحذّركم عدوّاً نفـذ في الصدور خفيّاً ونفث في الآذان نجيّاً فأضلّ وأردىٰ ووعد فمنّىٰ وزيّن سيّئات الجرائم» [٢].

والإنسان المحقّق ـ الّذي تربّىٰ في مدرسـة قوله تعالىٰ: ﴿... لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [٣] ـ هو الّذي يكذّب مناه ويكابر هواه ويستغني بأشرف أنحاء الغنى ويجاهد هواه، كما يجاهد عـدوّه؛ لئلاّ يأسر عقلَه هواه، ولا يصير هواه أميراً عليه، كما قـاله أميرالمؤمنين (عليه السلام): «... وأشرف الغنىٰ تـرك المُنىٰ، وكـم عقل أسير تحت هوى أمير» [٤].

---

١. النساء، ١١٩.

٢. نهج البلاغة، خطبة الغراء، ٨٣.

٣. النساء، ١٢٣.

٤. نهج البلاغة، قصار الحكم ٢١١.

ولا مناص في التحفّظ من التمنّي وحبالة العدو المبين إلاّ بالعبادة والتباهي بها. إذ التفاخر بالتذلّل لله ممدوح، كما قال عليّ (عليه السلام): «إلٰهي، كفىٰ بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفىٰ بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أُحبّ فاجعلني كما تحبّ»(١).

ومن ذلك كلّه، يظهر معنىٰ قول مولانا الرضا (عليه السلام) ـ لمّا قال له المأمون: يابن رسول الله، قد عرفت فضلك وعلمك وزهدك وورعك وعبادتك، أراك أحقّ بالخلافة منّي ـ: «بالعبوديّة لله عزّ وجلّ أفتخر، وبالزهد في الدّنيا أرجو النجاة من شرّ الدّنيا، وبالورع عن المحارم أرجو الفوز بالمغانم، وبالتواضع في الدّنيا أرجو الرفعة عند الله عزّ وجلّ» (٢).

والحاصل، أنّ القرآن قد أسّس تعاليمه علىٰ التحقيق والاتّقاء عن الأماني، وأنّ مولانا الرضا (عليه السلام) كغيره من العترة الطاهرة، قد بنىٰ سيرته العلميّة والعمليّة علىٰ التحقيق البرهاني وتحكيم مبانيه وتضعيف الأماني وتحطيم أركانها وتنبيه المغترّين بها وإحياء ارتكازهم بعدم الاغترار بالانتماء والحسب والنسب وما إلىٰ ذلك، من الأسماء الّتي ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك كلّه ببركة العمود النوري الّذي كان بينه (عليه السلام) وبين الله سبحانه، كما تقدّم بيانه مبسوطاً.

(بلغ والحمد لله ربّ العالمين ليلة القدر ٢٣ من شهر رمضان المبارك، عام ١٤٠٦هـ)

---

١. بحارالأنوار، ج ٧٧ تهران، باب ١٥، ص ٤.

٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، باب ما وقع بينه و بين المأمون، ص ٦٧.

الجنّة الرّابعة:

في ترغيب القرآن إلى البرهان العقلي و الشهود القلبي

الجنّة الرابعة:
في ترغيب القرآن إلى البرهان العقلي و الشهود القلبي

قد تقدّم أنّ القرآن يدعو إلىٰ التحقيق ويأمر به، ويزجر عن الركون إلىٰ الأُمنية وينهىٰ عنها، وحيث إنّ القرآن نور لا ظلام فيه أصلاً، فلا يكتفي بمجرّد الأمر بشيء بدون الارشاد إلىٰ كيفيّة تحصيله، ولا يقتصر علىٰ مجرّد النهي عن شيء بدون ذكر نموذجه، وبيان من ابتلى به، وتبيين كيفيّة علاجه؛ لأنّه ليس كتاب تعليم فقط، حتّىٰ لا يتعرّض لذكر الأمثال وتشريح حال من ابتلى به، كما هو الرائج في سوق التصنيف ومتجر التأليف، بل هو كتاب أُنزل ﴿هُدىً للنّاسِ وَبيّناتٍ مِنَ الهُدىٰ والفُرْقان﴾ [1].

القرآن ليس كتاب تعليم فقط بل كتاب هداية

فهو وإن أُسّس بنيانه علىٰ التحقيق، ودعا النّاس إلىٰ تأسيس حياتهم عليه، ومدح المحقّقين وذم المعرضين عنه ـ حسبما مرّ في الجنّة الثالثة ـ ولكنّه لا يقنع بصرافة هذا البيان الكلّي، بدون تعليم سبك التحقيق وهداية شرائط النيل بالحقّ، وتذكّر الموانع عن الوصول إليه، ونقل قصّة من لم يحصّل تلك الشرائط، ولم يتّق

---

١. البقرة، ١٨٥.

عن هـذه الموانع، ووقع في تيه الجهـالة وحيرة الضلالـة. وكذا نقل سيرة من تـزيّن بـوجدان هـاتيك الشرائط، وتخلّىٰ عـن هذه الموانـع والقواطـع، ونال مـا نال مـن القرب والوصال.

فيلـزم التدبّـر في القـرآن الحكيم، حتّـىٰ يتبينّ أنّ منطقـه في تعليم اسلـوب التحقيق، ما هو وكم هو؟ ثمّ الانصات إلىٰ مـا صدر عن مستنطقه ـ وهو الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام) ـ حتّىٰ يظهر أنّ بيانـه في كيفيّة الهداية إلىٰ الحقّ والنيل به، ما هو وكم هو؟ أيضاً ليتّضح انّ الثقلين الّذين خلّفهما رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أُمّتـه بمنـزلة العينين والاذنين، كـلاهما يبصران معـاً ويسمعـان معاً، بـلا ميـز ولا تعدّد ولا تخالف ولا اختلاف بين مبصراتهما ولا بين مسموعاتهما.

طريق الوصول إلى الحق

فنقول: إنّ المستفاد من القرآن الكريم هو أنّ طريق الوصول إلىٰ الحقّ إثنان:

أحدهما: التفكّر العقلي.

وثانيها: الشهود القلبي.

وكلّ واحد منهما، وإن كان ملائماً للآخر ومناسباً له، لكن لكلّ واحد منهما فصل يميّزه عـن صاحبه، نعم يمكن جمعهما في إنسـان متكامل، كالحكيـم المتألّه والعارف المحقّق.

وأمّا طـريق الحسّ، فهو ليـس صراطاً مستقيماً بحيـاله مالم ينتـه إلىٰ البرهان العقلي. إذ الجزئي المحسوس بما أنّه جزئي، لا ينتج وإن ضمّ إلىٰ جزئي أو جزئيات أُخر، إلاّ الظن الّذي لا يغني من الحقّ شيئاً فيما يعتبر فيه اليقين.

تمايز التفكّر العقلي و الشهود القلبي

وحيث إنّ طريق الشهود القلبي أقرب إلىٰ الحقّ وإلىٰ سيرة الأنبياء والأولياء،

الّذين به نالوا ما نالوا وهو مع ذلك اَدْعىٰ إلىٰ العمل الصالح، كما أنّه أيضاً مبتنٍ عليه، كان اهتمام القرآن به أشدّ من اعتنائه إلىٰ طريق التفكّر العقلي، ولكنّه أصعب وأعسر وأوعر من التفكّر العقلي مع كونه صعباً وعسراً ووعراً أيضاً؛ لأنّ شرائط سلوكه أهمّ من شرائط التفكّر العقلي، وموانعه أكثر من موانعه؛ لأنّ شرائط التفكّر الصحيح ـ وكذا الموانع عنه ـ معلومة مدوّنة، وإن لا تخلو رعايتها عن الصعوبة، ولكن شرائط الشهود القلبي، كعقبات كؤودة ووعرة يصعب اقتحامها جدّاً، والموانع عنها أودية مهلكة حفّت بالشهوات وزينت بها، بحيث يعسر الاتّقاء عنها ويشكل النجاة منها والاستيلاء عليها إلاّ للأوحدي الّذي استخلصه الله لنفسه، وبلغ شأواً قاصياً لا تناله سهام الأبالسة، ولا تصل إليه أيدي الأماني والدسائس، وأُولئك هم الأقلّون عدداً.

والميز الآخر بين طريقي التفكّر والشهود، هو أنّ حصيلة التفكّر البرهاني قابلة للانتقال إلىٰ الغير بالتعليم دون ثمرة الشهود القلبي إلاّ بالاستعانة من التفكّر العقليّ. وتفصيل المقال في كلّ واحد منهما في طيّ مقامين: أحدهما يبحث عن موقف التفكّر العقلي تجاه القرآن الحكيم، والآخر يفحص عن موقف الشهود القلبي تجاهه.

المقام الأوّل: في موقف التفكّر العقلي تجاه القرآن الحكيم

إنّ التفكّر العقلي، تحرّك روحي نحو المجهول من قنطرة المعلوم المنتهية إليه بالضرورة، وينافيه السكون أو التحرّك من مجهول إلىٰ مجهول أو من معلوم لا ينتهي إلىٰ ذلك المجهول باليقين، وإن أمكن انتهاؤه إليه بالظن الّذي لا يغني من الحقّ شيئاً.

فلذا منع القرآن الهادي للّتي هي أقوم عن كلّ واحد من السكون المعبّر عنه

بالتقليد في الاصول ومن التحرّك لا علىٰ النهج الصواب، المعبّر عنه بالمغالطة الفكريّة الّتي منشأها إيحاء الشيطان إلىٰ أوليائه، ليجادلوا في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ولم يقنع كتاب الله بمجرّد هذا المنع -كما تقدّم- بل قدّم بنفسه أمام السالكين وبرهن علىٰ دعواه واستدلّ علىٰ مدّعاه وعلّم فنّ البرهان لمن وعاه، ونقل ما استند إليه من أعرض عن الحقّ ونأىٰ بجانبه، وبيّن وَهْن دليله بضعف مادّته أو صورته، وحذّر عن الاستدلال بما لا يفيد اليقين لوهنه، كما رَهّب عن الجمود والتقليد؛ لأنّ طيّ سبيل الغيّ والتحرّك المغالطي لو لم يكن أسوأ حالاً من التوقّف والتقليد، فلا أقلّ منه.

عدم امكان نيل الدين إلا بالعقل و الوحي

والسرّ في ذلك كلّه، هو أنّ الدّين الإلهي المبتني علىٰ الحقّ لا يمكن نيله، إلاّ بوعي العقل أو بوحي النقل، وكلّما اتّسع نطاق العقل في المجتمع وشاع الوحي فيه لأمكن الوصول إلىٰ محتواه وسهل النيل إلىٰ مغزاه، وكلّما انعكس الأمر باتّساع الجهل في المجتمع، إمّا للجمود وعدم التفكّر أو للتفكّر الباطل العقيم، صعب الوصول إلىٰ مدّعاه، ولصار مهجوراً مطموساً، كما أنّ الأمر في الدّين الشيطاني المبتني علىٰ الباطل بالعكس، حيث إنّه كلّما اتّسع نطاق التقليد وشاع التفكّر المغالطي، سهل رواج ذلك الجزاف وكثر أتباعه الّذين يميلون مع كلّ ريح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلىٰ ركن وثيق. ولكلّ من هذه الأُمور المارّة نماذج نُشير إليها.

الامور التي ذكر القرآن في موقف التفكر العقلي

فمنها: ما يرجع إلىٰ النهي عن اتّباع غير العلم اليقينيّ، نحو قوله تعالىٰ:

﴿وَلاٰ تَقْفُ مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤاد كُلّ أُولٰئكَ كٰانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾[١].

ومنها: ما يرجع إلىٰ تفصيل هذا النهي، بأن كلّ واحد من التصديق والإثبات وكذا التكذيب والنفي، إذا لم يكن بالبرهان القطعي، فهو اقتفاء لما لاعلم به، وقد نهىٰ عنه، كما قال مولانا الصادق (عليه السلام): «إنّ الله حصّن عباده بآيتين من كتابه أن لا يقولوا حتّى يعلموا ولا يردّوا مالم يعلموا، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ يُؤخَذ عَلَيهِم مِيْثاق الكِتٰاب أنْ لاٰ يَقُولوا عَلىٰ اللهِ إلاّ الحقّ﴾[٢]، وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيْطُوا بِعِلْمِه وَلمّا يأتِهِم تَأوِيْله﴾[٣]»[٤].

ومنها: ما يرجع إلىٰ النهي عن تقليد من لا يهتدي ولا يعقل؛ لأنّه عطلة لا حراك لها، قال سبحانه في ذمّ هؤلاء: ﴿وَإذا قِيْلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مٰا أنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا أَلْفَيْنٰا عَلَيْهِ آبٰائنا أولو كٰانَ آبٰاؤهُم لاٰ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاٰ يَهْتَدُونَ﴾[٥]؛ لأنّ العمل لابدّ وأن ينتهي إلىٰ العقل والهداية الحقّة، إمّا بلا واسطة، كما إذا كان العامل نفسه عاقلاً مهتدياً كالمعصوم (عليه السلام) بعناية إلٰهيّة، وإمّا مع الواسطة، كما في غيره إذا استند إليه. وحيث إنّ آباء هؤلاء المقلّدين لم يكونوا عاقلين ولا مهتدين ـ وإلاّ لما تحرّكوا نحو الباطل ولم يبغوا سبيل الحقّ عوجاً ـ فلم يكن عمل الاتباع منتهياً إلىٰ العقل والهداية؛ ولذا قال سبحانه في حقّهم: ﴿مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُم إلاّ يَخْرُصُونَ أمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً مِنْ قَبْله فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إنّا وَجَدْنٰا آبٰائنا عَلىٰ أُمّة وإنّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[٦]، يعني أنّ القول إذا لم يستند إلىٰ العلم البرهاني ولا إلىٰ الوحي السماوي، فهو خَرْص

---

١. الإسراء، ٣٦. ٢. الأعراف، ١٦٩. ٣. يونس، ٣٩.

٤. بحارالأنوار، ج ٢، باب ١٦، ص ١١٣ و باب ٢٦، ص ١٨٦.

٥. البقرة، ١٧٠. ٦. الزخرف، ٢٢ ـ ٢٠.

لا اعتداد به، وتقليد صرف لا جدوىٰ له.

ومنها: ما يرجع إلىٰ بيان استقرار الدِّين الإلٰهي علىٰ العلم؛ فلذا يرغب إليه، واستواء الدِّين الشيطاني علىٰ الجهل؛ فلذا يرهب عنه.

أمّا الأوّل، فهو فوق الاحصاء، نحو قوله تعالىٰ: ﴿... وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَما يَعْقِلُها إلاّ العالِمونَ﴾ [١]، ﴿إِنَّما يَخْشىٰ اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾ [٢] ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٣].

وأمّا الثاني، فنحو قوله تعالىٰ: ﴿فاسْتَخَفَّ قَوْمَه فأطاعُوه إنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِيْنَ﴾ [٤]، أي حمل فرعون قومه علىٰ الخفّة أو وجدهم خفيفي العزم بالجهل، فصاروا مطيعين له؛ وذلك لأنّ الحقّ ثقيل، كما قال الله: ﴿إنّا سَنُلْقي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيْلاً﴾ [٥]، والعمل الصالح ثقيل؛ فلذا تثقل موازين الصالحين، كما قال الله: ﴿فأمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِيْنُهُ فَهُوَ فِي عِيْشَةٍ راضِيَة وَأمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِيْنه فَأُمّه هاوِيَة﴾ [٦].

والحاصل، إنّ الدِّين الشيطاني ـ الّذي كان فرعون يهدي إليه ويحمي عنه ويبتغيه وسيلة لدنياه، حيث كان يقول: ﴿ إنّي أخافُ أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ ـ إنّما هو المبتني علىٰ الجهل وخفّة العزم. فلذا كان فرعون يذبّ عن السفاهة والتمويه بترويجها وتهديد من يدعو إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولمّا كان الدِّين الجاهلي يدور مدار الاستخفاف، حذّر الله رسوله والمسلمين منه في قوله تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقّ وَلا يَسْتَخِفَنّكَ الّذِيْنَ لا يُوْقِنُونَ﴾ [٧]، فبالترغيب إلىٰ العلم الّذي عليه بنيان الدِّين الإلٰهي،

---

١. العنكبوت، ٤٣. ٢. فاطر، ٢٨. ٣. البقرة، ٢٣٠.
٤. الزخرف، ٥٤. ٥. المزّمّل، ٥. ٦. القارعة، ٩ ـ ٦.
٧. الروم، ٦٠.

والترهيب عن الجهل والسفه الّذي عليه إبتناء الدِّين الشيطاني، يتحوّل المجتمع نحو التفكّر والتحرّك الروحي.

إنزال القرآن لصيانة المجتمع عن الاعوجاج الفكري

ولصيانة المجتمع عن الاعوجاج أنزل كتاباً ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [١]، وسلك فيه طريق التفكّر الصحيح وحذّر عن تطرّق الطريق المغالطي.

أمّا الأوّل، فهو المتجلّي في القرآن الحكيم من بدءه إلىٰ ختمه، نحو قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [٣]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاتُرْجَعُونَ﴾ [٤]، إلىٰ غير ذلك من الآيات المصوغة بصياغة القياس الاستثنائي، مع تبيين التلازم بين المقدّم والتالي فيه، وبيان بطلان التالي المستلزم لبطلان المقدّم أو المصبوغة بصبغة القياس الاقتراني، مع تبيين الربط الضروري بين الأوسط وبين طرفيه من الحد الاصغر والحد الأكبر. ولسنا الآن بصدد تفصيله.

وأمّا الثاني، فهو ما نقل في القرآن من الوثنيين المتفكّرين بزعمهم؛ لأنّهم كغيرهم من أرباب النحل صنفان:

أحدهما: السادة الّذين يتحمّلون أعباء التفكّر.

وثانيهما: الأتباع الّذين يتحمّلون أوزار التقليد وإصر التبعيّة، وإن كانت الأغلال علىٰ أعناق القائد والمقود، والسلاسل علىٰ أرجلهم جميعاً؛ لأنّهم بعدما أعرضوا عن ذكر الله في ضنك المعيشة وزيغ القلوب وضيقها ورين الأفئدة وطبعها ﴿فهم في ريبهم يتردّدون﴾ [٥]، وقد تقدّم ما تمسّك به الضعاف من المشركين، وهو

---

١. الزمر، ٢٨. ٢. الأنبياء، ٢٢. ٣. النساء، ٨٢.
٤. المؤمنون، ١١٥. ٥. التوبة، ٤٥.

حفظ السنّة الجاهليّة الموروثة من آبائهم، ومضىٰ أنّه الجمود علىٰ الجهل والسكون علىٰ السفه والقرار علىٰ التمويه.

احتجاجات المشركين في قبال الانبياء

وأمّا منطق متفكّريهم، فهو ما نقله الله عنهم في قوله تعالىٰ: ﴿ سَيَقُول الَّذِينَ أشْرَكُوا لَوْ شٰاءَ اللهُ ما أشْرَكْنٰا وَلاٰ آبَائنا وَلاٰ حَرّمنٰا مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ حتّىٰ ذٰاقُوا بأسَنا قُلْ هَلْ عنْدَكُـم مِنْ عِلْمٍ فَتُخرِجُوهُ لَنٰا إن تَتَّبِعُونَ إلاّ الظنّ وإنْ أنْتُمْ إلاّ تَخْرصُـونَ * قُلْ فللّـه الحُجّة البٰالِغة فَلَوْ شٰاءَ لهدٰاكُم أجمَعِين﴾ [١]، وحاصل حجّتهم الداحضة عند ربهم، هو أنّهم بعدما اعترفوا بأنّ الله سبحانه موجود، وأنّه خالق السموات والأرض، وأنّه ربّ الأرباب، فقد أشركوا بعد ذلك في ربوبيّته الجزئية، بأن ادّعوا أنّ للإنسان ربّاً خاصّاً يربّه ويدبّره ويرزقه ويسعده، وهكذا للبحر ربّ خاصّ وللبرّ ربّ مخصوص؛ فلذا اعتقدوا بالأرباب المتفرّقين.

وهؤلاء الوثنيون ـ مع إنكارهم أصل النبوّة كإنكارهم أصل المعاد ـ كانوا يحتجّون في قبال دعوة الأنبياء إلىٰ التوحيد، وإنّ الشرك باطل ليس بمرضي لله، وإنّ الله شاء أن يوحّدوه ولا يشركوا به شيئاً، بأنّ الله ـ العياذ بالله ـ شاء أن يشرك هؤلاء وأراد أن يجعلوا له شريكاً في الربوبيّة والعبادة، وشاء أن يحرموا أشياء ويحلّلوا أشياء أُخر؛ وذلك لأنّ الله قادر مطلق لا يعجزه شيء، ولا رادّ لقضائه، ولا مبدّل لحكمه و ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [٢]، فلا مردّ لمشيئته.

ومن المعلوم، أنّه تعالىٰ لو كان شاء أن لا يشركوا ولا يتّخذوا من دونه أرباباً وشاء أن يعبدوه ولا يجعلوا له شريكاً ولا يحرّموا أشياء ولا يحلّلوا أشياء أُخر، لما قدروا علىٰ شيء من ذلك، وحيث إنّهم قادرون عليه بشهادة ما اعتقدوا من

---

١. الأنعام، ٩ـ١٤٨.
٢. يس، ٨٢.

الشرك، وما فعلوا من التحريم والتحليل، فيعلم أنّ الله شاء أن يشرك هؤلاء ويتّخذوا من دونه أولياء، ولم يشأ خلاف ذلك ولم يرده.

وهذا التفكّر المغالطي، هو الّذي نقله القرآن عن هؤلاء المشركين الّذين أرادوا تصحيح ما فعلوه، وكذا توجيه ما فعله آباؤهم في موارد:

منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نحنُ وَلَا آبَائنا وَلَا حَرَّمْنا مِن دُونِه مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهم فَهَلْ عَلَىٰ الرُّسل إلّا البَلاغُ المُبِيْنُ﴾ [١]، أي لو شاء الله أن لا نعبد الوثن ولا نحرّم من عند أنفسنا أشياء لما قدرنا علىٰ عبادة غيره ولا علىٰ تحريم شيء، والتالي باطل؛ لأنّا نفعل ذلك، وكذا فعله آباؤنا من قبل، فالمقدم مثله، فالله قد أراد الشرك وشاء عبادة الآلهة، فقول مدّعي الرسالة: بأنّ الله لم يشأ الشرك ولم يرد أن يعبد الأصنام، افتراء عليه. فهذا هو الجدال الّذي جادلوا به الحقّ ليدحضوه، ولكن القرآن الكريم الّذي هو نور لا ظلام فيه أصلاً، قد طرح التوحيد والشرك من نواحٍ شتّىٰ، وبرهن علىٰ ضرورة التوحيد، وكونه حقّاً لا ريب فيه، وبيّن امتناع الشرك وكونه باطلاً لا مريّة فيه.

الكلام في فساد الشرك في أُمور ثلاثة

والكلام الآن، هو في فساد الشرك و دحضه، ولقد استوفىٰ القرآن البحث عنه في ثنايا أُمور:

الأوّل: في الاستدلال العقلي علىٰ بطلان الشرك.

والثاني: في نفي الدليل النقلي علىٰ صحّته.

والثالث: في تحليل ما استدلّ به هؤلاء وبيان مغالطتهم في القياس.

---

١. النحل، ٣٥.

أمّا الأمر الأوّل: فهو أنّ المعبود لابدّ وأن يكون مؤثّراً في الإحياء والإماتة وفي الضرّ والنفع وما إلىٰ ذلك، فلابدّ وأن يكون ربّاً، إذ لا يعبد من لا تأثير له في قضاء حوائج العبد، وحيث إنّ الربّ لابدّ وأن يكون خالقاً، إذ التدبير وكذا الربوبيّة ليس إلاّ إيجاد الروابط بين الأشياء وهدايتها التكوينيّة إلىٰ كمالاتها الوجوديّة، وهل هذا إلاّ الخلقة، ولا أقلّ من أن يكون ملازماً لها. إذ الرب لابدّ وأن يكون عارفاً بالشيء وعلله الوجوديّة ونعوته الكماليّة ولا يكون غير الخالق عارفاً بذلك.

فعلىٰ أيّ تقدير يكون الربوبيّة من شؤون الخالق لا غير، فيجب أن يكون الخالق هو الربّ، ويمتنع أن يكون الرب هو غير الخالق، كما يجب أن يكون الخالق هو المعبود ويستحيل أن يكون المعبود هو غيره.

فلهذه الأُصول ينادي القرآن بقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مٰا لاٰ يَخْلق شَيْئا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاٰ يَسْتَطِيْعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاٰ أنفُسهم يَنْصُرُون﴾ [١]، يعني أنّ الّذي ليس بخالق يمتنع أن يكون شريكاً للخالق وشبيهاً له في الربوبيّة، بل الّذي هو مخلوق كغيره من المخلوقين، يمتنع أن يكون ندّاً لخالقه ومثيلاً له، فهذا هو البرهان العقلي علىٰ استحالة تحقّق الشرك في العالم.

ويمكن أن يسمّىٰ هذا القياس بالجدل؛ لأنّ بعض مقدّماته قد أُخذ فيه من حيث أنّه مسلم عند الخصم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَئَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأرْضَ لَيَقُولنّ الله﴾ [٢]، يعني أنّ هؤلاء المشركين قد تسلّموا بأنّ الخالق الوحيد هو الله، وأنّ الوثن أو الصنم ليس بخالق أصلاً.

وبالجملة، أنّ الحكم بالشرك لابدّ وأن يكون مستنداً إلىٰ دليل، وهو إمّا العقل أو النقل، أمّا العقل فهو قائم علىٰ امتناعه حسبما تقرّر، فلا يهدي إليه،

---

١. الأعراف، ٢ ـ ١٩١.
٢. لقمان، ٢٥ ـ الزمر، ٣٨.

بـل يمنع عنـه ويهدي إلىٰ التوحيـد بالضرورة. وأمّـا النقل فهـو منتفٍ أيضـاً، كما يظهر الآن.

أمّا الأمر الثـاني ـ أي عدم قيام الـدليل النقلي عليه ـ: فهو أنّ الله سبحـانه لم يرسل رسـولاً ولم يُنزل كتاباً ناطقاً بـالشرك، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ آتَيْنٰاهُـمْ كِتٰاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (١)، أي لا دليل نقلي لهم علىٰ تجويـز عبادة الآلهة، كما لا دليل عقلي لهم عليه، وقـال أيضاً: ﴿أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِم سُلْطاناً فَهُو يَتكلّمُ بِمٰا كٰانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٢)، أي لم ينزل الله عليهـم من الوحـي السماوي برهانـاً مسلّطاً علىٰ السنن الجاهليّة وعلىٰ الأوهـام والخيالات، يتكلّم ذلك الوحـي الإلٰهي بتجويز الشرك، فلا العقل نـاطق به ولا النقل متكلّم بـذلك، بل النقل القطعـي كالعقل اليقيني قائم علىٰ نفيه وناهٍ عنه، كما قال سبحـانه: ﴿قُلْ إنّما حَرَّمَ رَبِّي الْفَواحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَمٰا بَطَـن والإثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وأن تُشْرِكُوا بالله مٰالَمْ يُنَـزِّل بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلىٰ اللهِ مٰا لا تَعْلَمُونَ﴾ (٣)، يعني أنّ الله الّذي هـو ربّ العالمين وبيده الأمر والنهي والتحليل والتحريم قد حرّم الفواحش والشرك بالله بما لا دليل عليه، ولم يرسل رسولاً يدعو إليه، ولم ينزل كتـاباً يهدي إليه، فلا سلطان ولا برهان عليه، بل البرهان علىٰ خلافه حسبما تقدّم.

وحيث إنّه لا دليل لهؤلاء علىٰ ارتضاء الله بالشرك، وإنّ عبادة الآلهة مرضية عنـده تعـالىٰ، فإسنـاد السنّـة الـوثنيّـة إليه تعـالىٰ افتراء محض وإفـك صرف، كما قال سبحـانه: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِـاللهِ فَقَدْ افْتَرىٰ إِثْماً عَظِيْماً﴾ (٤)، أي لا يمكن التفـوّه بـأنّ الشرك مـرضي لـه تعـالىٰ. إذ الظلـم العظيـم، كيـف يكـون مقبـولاً لـدىٰ العدل المحض الّـذي لا يظلم أحداً، وكيف يمضيه العدل الّـذي لا يظلم مثقال

---

١. الزخرف، ٢١. ٢. الروم، ٣٥. ٣. الأعراف، ٣٣.

٤. النساء، ٤٨.

ذرّة، فإسناده إليه فرية لا تغتفر.

أمّا كونه فرية، فلما أُشير إليه من أنّ إسناد شيء إلىٰ الله بلا إذن منه افتراء، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ الله أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلىٰ اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ [١].

وأمّا كونه لا يغفر فلأنّه شرك وهو ظلم عظيم، وقد قال سبحانه: ﴿إِنّ اللهَ لاٰ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [٢]، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّن افْتَرىٰ علىٰ الله كَذِباً﴾ [٣]، فلا ظلم أشدّ وأعظم من الشرك، ولا ظالم أظلم من المشرك المفتري علىٰ الله كذباً، فلا صُلوح هناك للغفران مع سعة رحمة الله الغفّار.

وأمّا الأمر الثالث ـ أي تحليل ما استدلّ به هؤلاء لتصحيح الشرك وبيان مغالطتهم في القياس ـ: فهو أنّ لله سبحانه إرادتين وأمرين:

أحدهما تكويني لا مردّ له، والآخر تشريعي يطاع تارة ويُعصىٰ أُخرىٰ.

والميز بينهما، هو بأنّ الإرادة التكوينيّة إنّما هي تتعلّق بفعل نفسه، أي بأن يريد الله تعالىٰ أن يفعل فعلاً خاصّاً كالإحياء والإماتة أو القبض والبسط أو إنزال المطر وإنبات النبات ونحو ذلك، وأنّ الإرادة التشريعية إنّما هي تتعلّق بفعل غيره أو تركه، أي بأن يريد الله سبحانه أن يفعل الإنسان باختياره فعلاً خاصّاً كالعدل والإحسان أو يترك فعلاً مخصوصاً كالظلم والإساءة. ومآل هذه الإرادة إلىٰ إرادة التشريع والتقنين فقط، بحيث يحفظ اختيار المأمور في الأخذ والترك.

ويترتّب علىٰ القسم الأوّل من الإرادة، لزوم تحقّق المراد وامتناع تخلّفه، وكون المخاطب تابعاً للخطاب في الوجود ونحو ذلك، حيث قال سبحانه: ﴿إِنّما أَمْرُهُ إِذٰا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٤]، إذ الخطاب هنا عبارة عن الإيجاد لا التكلّم اللفظي؛ لأنّ الأشياء بإرادته دون أمره مؤتمرة، ولأنّها بكراهته دون نهيه

١. يونس، ٥٩. ٢. النساء، ٤٨. ٣. الأنعام، ٢١ و ٩٣.
٤. يس، ٨٢.

منزجرة، فلا لفظ ولا صوت ولا نداء ونحو ذلك، بل إنّما هي إفاضة الوجود علىٰ ما هو المعلوم في الحضرة العلميّة، ممّا يتقاضىٰ الظهور دون غيره مما لا يستدعيه ولا يصلح له.

وهذا القسم من الأمر والإرادة والمشيئة، هو الّذي لا مردّ له ويمتنع العصيان بالنسبة إليه؛ لأنّ جميع الموجودات قد أسلمت لله ربّ العالمين، لقوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتِيا طَوْعاً أو كرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [1].

ويترتّب علىٰ القسم الثاني من الإرادة، انحفاظ اختيار الانسان المأمور بالخير المَنهِي عن الشرّ ﴿ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيىٰ من حيّ عن بيّنة﴾ [2]، وكونه بين نجدي الطوع والمعصية، وطريقي الشكر والكفر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿... هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنَ﴾ [3]، ﴿إنّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمّا شَاكِراً وإمّا كَفُوراً﴾ [4]. فالأمر هنا، وإن كان أمراً إلٰهياً، ولكنه تعلق بمتن القانون والحكم لا بنفس الفعل الخارجي، كما قال سبحانه: ﴿إنَّ اللهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ والإحْسانِ﴾ [5]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ حُنَفاء﴾ [6]، وهذا القسم من الأمر والإرادة والمشيئة هو الذي قد يطاع، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إنّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ﴾ [7]، وقد يعصى، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَأيّن مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عن أمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاها حِساباً شَدِيْداً﴾ [8].

فإذا تبيّن أنّ لله سبحانه إرادتين، وإنّ لكل واحدة منهما حكماً يختصّ بها، وأنّ الايمان مأمور به ومراد بالأمر والإرادة التشريعية، وأنّ الشرك منهي عنه ومكروه بالكراهة التشريعية، وأنّ الإرادة التشريعية قابلة للعصيان، وأنّ التي لا تقبل

---

١. فصلت، ١١. ٢. الأنفال، ٤٢. ٣. البلد، ١٠.
٤. الإنسان، ٣. ٥. النحل، ٩٠. ٦. البيّنة، ٥.
٧. الزمر، ١١. ٨. الطلاق، ٨.

المعصية هي الإرادة التكوينية، تظهر كيفية مغالطة المتفكّرين من الوثنيين في قياسهم الداحض عند ربهم، حيث إنهم خلطوا بين الإرادتين لمشابهة اللّفظ، مثلاً، ورتّبوا حكم الإرادة التكوينية علىٰ التشريعيّة وغالطوا في قولهم: ﴿لَوْ شٰاءَ اللهُ مٰا أَشْرَكْنا وَلا آبٰاؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ﴾ [١].

وذلك لأنّ الله سبحانه شاء أن لا يشركوا تشريعاً لا تكويناً، ومجرّد اختيارهم الشرك لا يدلّ علىٰ انّه مراد لله سبحانه، فلا تلازم بين المقدم والتالي. إذ التلازم إنّما هو بين المشيئة التكوينية وبين تحقّق المراد وعدم التخلف عنها، لا بين التشريعية وبينه، فلا ينتج هذا القياس الذي لا تلازم بين مقدمه وتاليه، وإن توهم التلازم للمغالطة الناشئة من اشتراك المشيئة بين القسمين، أحدهما ملازم للتالي دون الآخر.

الاختيار بين الجبر و التفويض

ولقد استوفىٰ القرآن البحث في تحليل قياسهم الداحض، بأنّ المشيئة التكوينية لم تتعلّق بالايمان ونفي الشرك، بل المتعلقة بذلك هي التشريعيّة التي يحفظ معها اختيار الإنسان، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شٰاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلّهمْ جَمِيْعاً﴾ [٢]، مع أنّه تعالىٰ أراد أن يؤمنوا جميعاً، فلذا أرسل إليهم رسوله، كما قال: ﴿إنّا أَرْسَلْناكَ لِلنّاسِ كٰافَّةً﴾ [٣]، وقال: ﴿تبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعالَمِيْنَ نَذِيْراً﴾ [٤].

فالله سبحانه وإن أراد تشريعاً أن يؤمن من في الأرض كلّهم جميعاً ولكنه لم يشأ ذلك تكويناً، حفظاً لبقاء الاختيار الّذي به يتكامل الإنسان، فالتلازم بين

---

١. الأنعام، ١٤٨. ٢. يونس، ٩٩. ٣. النساء، ٧٩.
٤. الفرقان، ١.

المقدّم والتالي في القياس الاستثنائي متحقّق، أي لو شاء ربّك تكويناً أن يؤمنوا لآمنوا جميعاً، لامتناع تخلّف المراد عن الإرادة التكوينيّة، وحيث إنهم لم يؤمنوا، يستكشف عن عدم إرادة الله سبحانه بإيمانهم تكويناً، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ الهُدىٰ﴾ [١]، أي لو شاء تكويناً لاضطرهم على الهدى ولآمنوا جميعاً بالضرورة، ولكن لم يشأ ذلك صوناً لاختيارهم الّذي هو بين الجبر والتفويض؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَىٰ اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٢]، أي اللازم على الله سبحانه، هو بيان سواء السبيل والصراط المستقيم والطريق الوسطىٰ، التي هي القصد بين طرفي الإفراط والتفريط، وليس علىٰ الله الّذي كتب علىٰ نفسه الرحمة أزيد من ذلك، ولكن بعض النّاس يجور عن هذه السبيل وينحرف عنها ويفسق عن أمره، ولو شاء الله هدايتهم بمشيئته التكوينيّة ـ التي لايتخلف المراد عنها ـ لهداهم أجمعين بلا جورٍ لأحدٍ منهم ولا اعتساف، فهو تعالىٰ شاء هدايتهم تشريعاً ولم يشأها تكويناً؛ فلذا قال سبحانه: ﴿وَقل الحقّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [٣].

وعند استبانة الميز بين الإرادتين بالقول المطلق، واتّضاح الأُصول العامّة في الهدايتين والإرادتين، تصل النوبة إلىٰ تبيين مغالطتهم في تفكّرهم الإلحادي، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيل﴾ [٤]، أي لو شاء الله تكويناً أن يؤمنوا ولم يشركوا ما أشركوا بالضرورة، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاء الله مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وما يَفْتَرُونَ﴾ [٥]، أي لو شاء الله تكويناً أن لايقتلوا أولادهم تقرباً إلىٰ الآلهة ولا يجعلوهم قرابين لها، ما فعلوه البتة، وحيث إنّهم قد أشركوا، وكذا قتلوا أولادهم للآلهة، يعلم

---

١. الأنعام، ٣٥. ٢. النحل، ٩. ٣. الكهف، ٢٩.

٤. الأنعام، ١٠٧. ٥. الأنعام، ١٣٧

أن الله سبحانه لم يشأ ذلك تكويناً.

فاستبان أن المشيئة التي لا يتخلّف المراد عنها، هي التكوينية منها لا التشريعيّة، وإنها لم تتعلّق بالإيمان والطاعة حتى لا يتخلّفا عنها، وإنّما المتعلّقة بذلك هو خصوص المشيئة التشريعيّة الّتي يكون الإنسان المكلّف مختاراً في الامتثال بها وعدمه.

فهذا التفكّر الصحيح، هو البرهان العقلي المصون عن شوب أيّ غلط فكري، وذاك الّذي ابتلى به المتفكّر الوثني هو قياس مغالطي، منشأه هو ما تقدّم من اشتراك المشيئتين واشتباه الأمر بينهما عليهم؛ فلذا قال سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلّٰهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾ [١]؛ لأنّ الحجة التي تبلغ إلىٰ النتيجة ولا تعقم عنها، هي التي أقامها الله تعالىٰ دون ما تمسّكوا به، من الّتي لا تبلغ إليها وتعقم عنها لابتلائها بالمغالطة، تدبّر.

تبصرة: في تعرّض القرآن لمقال كل صنف

لما كان القرآن هدى للنّاس وذكرى للبشر ونذيراً للعالمين، فلذا يتعرّض مقال كلّ صنف منهم، فإن كان حقّاً أيّده، وإن كان باطلاً فصّله إلىٰ ما كان لشهوة عمليّة وما كان لشبهة علميّة. ثمّ إنّه يحلّل الشبهة العلميّة أحسن تحليل ويزيحها أحسن إزاحة، بحيث لم يبقَ مجال للريب، وكذا يحلّل الشبهة العملية أجمل تحليل ويعالجها أحسن علاج، بحيث لم يبق مجال للابتلاء بها. وذلك كله لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد، وإلاّ يزيد شبهة علىٰ شبهتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ [٢].

والغرض، أنّ القياس المغالطي الذي ابتلى به المتفكرون من الوثنيين، لقد

---

١. الأنعام، ١٤٩.
٢. البقرة، ١٠.

تعرّض له القرآن وبيّن موضع الغلط وعالجه أحسن علاج.

وهناك قياس استثنائي آخر لمن كان لـه شهوة عمليّة ولا يبالي بها قـال، بل يتفوّه بكل ما جرىٰ علىٰ لسانه، والقـرآن ينقله ويحلّل ما فيه ويبيّن منشأه الجاهلي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لِلَّذِيْـنَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً ما سَبَقُـونا إلَيْهِ وَإذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذا إفْكٌ قَدِيْمٌ﴾ [١].

وحـاصله، أنّ هـؤلاء الكفرة قـد حسبـوا أنفسهم سـابقين بالخيرات، وأنـه لا يفوتهم شيء منها، وأنه لو كان هنـاك خيرٌ لأدركوه ولما سبقهم إليه غيرهم، وإذا لم يقبلوا شيئاً ولم يقصدوه فإنّما هو لأجل نقصه وعدم الخيريّة فيه، ومن هذا القبيل الإيمان بالله الواحد وبما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله).

ثمّ إنّهم ألّفوا علىٰ هذا الزعم الزائف قياساً استثنائياً لا دليل علىٰ التلازم بين مقدّمه وتـاليه، عدا حسبان أنّهم علىٰ شيء، ولكن القـرآن بيّن عدم التلازم بينهما، بأنّ منشـأ هذا الحسبان الجاهلي هـو عدم الاهتـداء بما يهدي إليه الله من الطـريقة الّتي هي أقوم، ومن الخير الّذي يدعو إليه، حيث قال تعالىٰ: ﴿أفَمَنْ أَسّسَ بُنْيانَهُ عَلىٰ تَقْوى مِنَ اللهِ وَرِضْوان خَيْرٌ أمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَـهُ عَلىٰ شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظّالِمِيْنَ﴾ [٢]؛ فلذا قال سبحانه: إنّ منشأ قولهم بأن الايمان ليس خيراً بـل هو دس وزور وفرية ضبطهـا التاريخ وكذب لـه قدمة، إنّما هـو عدم الميـز بين الخير والافـك، وعـدم التشخيص بين الخير والشر ونحـو ذلك. وسيوافيك ما فيه بيان مبادئ القياس الجاهلي مما له دخل في تلفيق الدليل.

في أن للنّبي دعوة و دعوى و مقابلة الوثنيين تجاه كل واحدة منهما

ثمّ إنّـه كما أنّ البحث المتقـدّم، كان حول التقليـد المحض وحـول التفكّر

---

١. الأحقاف، ١١.
٢. التوبة، ١٠٩.

المغالطي وبيان مبادئها وتحليل مناشئ الغلط فيما يرجع إلىٰ التوحيد، كذلك فيما يرجع إلىٰ النبوّة بحث، ينبغي أن يشار إلىٰ نموذج منه، إذ للنبي (صلى الله عليه وآله) دعوة ودعوىٰ، حيث إنّه يدّعي رسالته ونزول الوحي عليه وصيرورته نبيّاً، وكذا يدعو إلىٰ الله الواحد الّذي لا شريك له، وإلىٰ اليوم الآخر الّذي يحشر النّاس فيه جميعاً إلىٰ المبدأ العدل الحكيم، وهؤلاء الوثنيون قد قاموا تجاه كلّ واحد من الدعوىٰ والدعوة، ولكن الجهلة منهم قابلوا ذلك بالجمود الفكري والوقوف علىٰ السنّة الجاهليّة وحفظها، والمتفكرين منهم قابلوه بتلفيق القياس المغالطي الدالّ علىٰ زعمهم التافه، أنّ الإنسان يستحيل أن يصير رسولاً أو يستبعد أن يكون نبيّاً، بل إن كان للنبوّة أصل وللرسالة مبدأ فلابدّ وأن تكون من أوصاف الملائكة، وأنّ الّذي يصلح أن يتحمّل رسالة الله هو الملك السماوي فقط.

ولا يبعد أن يكون زمام الفريقين من الجهلة والمتفكّرين بيد المستكبرين منهم، حيث إنّ هؤلاء الملأ قد استأجروا ضعفاء العقول، وكذا استخدموا الذين جعلوا علمهم جهلاً ليوحون إلىٰ أوليائهم ليجادلوا الحقّ، ويستكبروا عن قبوله ويصيروا صنفاً واحداً تجاه مدعى النبوّة، بحيث يعسر ميز كلّ واحد من هذه الطوائف بعضها عن بعض، ولكن المستفاد من المباحث القرآنية هو أنّ الجدال في الحقّ والتعرّض له والردّ عليه، عدا المكر السياسي والدسائس والحيل العمليّة إنّما كان لأمرين:

أحدهما: حفظ السنّة الجاهليّة التي ألفوا آباءهم عليها.

وثانيهما: إلقاء الشبهة بكسوة الاستدلال. والأوّل هو التقليد والتوقّف عن الحركة، والثاني هو التفكّر المغالطي حسبما تقدّم بيانهما. ولنأتِ بنموذج من ذلك فيما يرجع إلىٰ دعوىٰ النبوّة، فنقول:

إنّ نطاق الجهلة من المشركين في ذلك كلّه واحد، وهو حفظ السنّة الموروثة

وأنّهم وجدوا آباءهم على ذلك، ولم يسمعوا بخلاف ذلك في أدوارهم الغابرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمّا جائَهُمْ مُوسىٰ بِآياتِنا بيّنات قالُوا ما هٰذا إلّا سِحْرٌ مُفْترى وَما سَمِعْنا بِهٰذا في آبائِنا الأوّلِيْنَ وَقالَ مُوسىٰ رَبِّي أعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالهُدىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونَ لَهُ عاقِبَة الدّار إنّهُ لا يَفْلح الظّالِمُونَ﴾ [1] ، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَعجبوا أنْ جائَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهم وَقالَ الكافِرُونَ هٰذا ساحِرٌ كَذّابٌ... ما سَمِعْنا بِهٰذا في المِلّةِ الآخرة إنْ هٰذا إلّا اخْتِلاق أأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذّكْر مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْري بَلْ لَمّا يَذُوقُوا عَذاب﴾ [2]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالّة علىٰ أنّ عمدة ما استند إليه غثاء المشركين، هو حفظ الجاهلية الموروثة و إبقاء سنّتها الدائرة.

مبادئ تكذيب رسالة النبي (ص) مختلفة

وأمّا مستند متفكّريهم، فهو أنّ الرسالة من شؤون الملائكة، وأنّ الإنسان يمتنع أن يصير نبيّاً أو يبعد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَما مَنَعَ النّاسَ أنْ يُؤمِنُوا إذْ جائَهُمْ الهُدىٰ إلّا أنْ قالُوا أبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً قُلْ لَوْ كانَ فِي الأرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنّيِنَ لَنَزّلْنا عَلَيْهِم مِنَ السّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ [3]، ﴿فَقالَ المَلأُ الّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هٰذا إلّا بَشَرٌ مِثْلكُمْ يُرِيْد أن يَتَفَضّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللهُ لأنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهٰذا فِي آبائِنا الأوّلِينَ إن هُوَ إلّا رَجُلٌ بِهِ جِنّة فَتَرَبّصُوا بِهِ حتّىٰ حِيْن﴾ [4]، ﴿فَقالَ المَلأُ الّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إلّا بَشَراً مِثْلنا وَما نَراكَ اتّبَعَكَ إلّا الّذِيْنَ هُمْ أراذلنا بادئَ الرأي وَما نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنّكُمْ كاذِبِيْنَ﴾ [5]، ﴿وَلَئِنْ أطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلكُم إنّكم إذاً لَخاسِرُونَ﴾ [6]، ﴿فَقالُوا أنُؤمِنْ لِبَشَريْن مِثْلنا

---

١. القصص، ٧ ـ ٣٦.
٢. ص، ٤,٧,٨.
٣. الإسراء، ٥ ـ ٩٤.
٤. المؤمنون، ٥ ـ ٢٤.
٥. هود، ٢٧.
٦. المؤمنون، ٣٤.

وَقَوْمهما لَنا عـابِدُونَ﴾ [١]، ﴿فَقـالُوا أَبَشَراً مِنّـا واحِـداً نَتّبعـهُ إنّا إذاً لَفِـي ضَـلالٍ وَسُعُر﴾ [٢]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالّة بالظهور أو الإشارة علىٰ أنّ البشر بزعم هؤلاء لا يصير رسولاً، وعلىٰ أنّ من شرائط الرسالة هو كون الرسول ملكاً، وعلىٰ أنّ البشريّة مانعة عنه.

والقدر المتّفق عليه بين جهلة الـوثنيين وغثائهم وبين متفكّـريهم وكذا بين الملأ المستكبرين منهم، هو نفي دعوىٰ النبوّة وتكذيب ادّعاء الرسالة وإن اختلفوا في مبادئ التكذيب، وحيث إنّهم اتّفقوا علىٰ إنكار داعيـة الرسالة، نسبوا مدّعيها إلىٰ الجنون والكهـانة والسحـر والشعر، ونسبوا إليـه الافتراء والغرض السـوء، وهو إرادة إخراج النّاس من أرضهم الّتي يعيشون عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿قالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إنّ هٰذا لَساحِرٌ عَلِيْمٌ يريد أنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أرْضِكُمْ فَماذا تَأمُرُونَ﴾ [٣]، وحيث إنّهم لم يهتدوا بالوحي فتهوّسوا فيه بآراء شتّىٰ.

ومن ذلـك قول قريش في القـرآن، تارةً بأنّه اسطـورة، وأُخرىٰ بأنّه كهـانة، وثالثة بأنّـه شعر وهكذا، ولعلّه المراد من قول الله سبحانه: ﴿الّـذِيْنَ جَعَلُوا القُرآنَ عضين﴾ [٤]، أي جعلـوا له أعضـاء وأبعاضـاً، فعضّوه وبعّضـوه بنسب متعـدّدة ولم يستقـرّوا علىٰ شيء. إذ لا معيـار للسـبّ والشتـم ولا ميـزان للـزور والإيـذاء، ولكنّ الله سبحانه قد نزّه ساحة الرّسـالة عن ألواث هذه النسب، وطهّر فِناء النبوّة عن هذه الهذيانات.

منشا استكبار المتفكّرين من الوثنيين

ثـمّ بيّن أنّ منشأ استنكـار الجهلـة، هو الجمـود علىٰ التقليـد وحفظ السنّـة

---

١. المؤمنون، ٤٧. ٢. القمر، ٢٤. ٣. الأعراف، ١١٠ ـ ١٠٩.

٤. الحجر، ٩١.

الجاهليّة، وأفاد أنّه مانع عن أيّ تكامل، وكذا بيّن أنّ منشأ استكبار متفكّريهم هو المغالطة في القياس والانحراف عن صراط التفكّر الصحيح.

أمّا الأمر الأوّل، فهو أنّ الله قد وصف الأنبياء (عليهم السلام) بالهداية والصفوة والاجتباء والإخلاص والعصمة عن إغواء الشيطان ووسوسته والنزاهة عن الذنب والبراءة عن الشرك وأهله والخصومة للخيانة وأهلها، وما إلىٰ ذلك من الكمالات الوجوديّة، وقال تعالىٰ: ﴿قٰالَ الملأ الّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إنّا لَنَرٰاكَ فِي سَفٰاهَةٍ وإنّا لَنَظُنّكَ مِنَ الكٰاذِبِيْنَ قٰالَ يٰا قَومِ لَيْسَ بِي سَفٰاهَة وَلٰكِنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العٰالَمِيْنَ﴾ [١]، ﴿كَذٰلِكَ مٰا أتَىٰ الّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُول إلاّ قٰالُوا سٰاحِر او مَجْنُون اتواصوا بِهِ بَلْ هُم قَوْمٌ طٰاغُونَ﴾ [٢]، ولقد أفاد الله سبحانه أن إسناد الجنون ونحوه إلىٰ ساحة الرّسالة، إنّما هو للطغيان وعدم التفكّر، ولو أنّهم كانوا أهل الدراية والعقل لعلموا أنّ الرّسول مصون عن ذلك كلّه، حيث قال تعالىٰ: ﴿أوَلَمْ يَتَفَكّرُوا مٰا بِصٰاحِبِهِمْ مِنْ جِنّة إنْ هُوَ إلاّ نَذيرٌ مُبِيْنٌ﴾[٣].

وحيث إنّهم لم يتأمّلوا ولم يتدبّروا، فلا محالة قد أسندوا أمرهم إلىٰ ما يركنون إليه، وهو البأس والبطش والسلطنة وما إلىٰ ذلك من ذرائع الطغيان والتواصي بالطغوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَتَوَلّىٰ بِرُكْنِهِ وَقٰالَ سٰاحِر أو مَجْنُون﴾ [٤].

ثمّ إنّ الله سبحانه لمّا بيّن مدار الهداية والدراية، وأنّ الأنبياء الّذين يدورون مدارها، هم الهداة والدراة؛ فلذا سفّه المعرضين عن ذلك المدار وحكم بسفاهتهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَرْغَب عَنْ مِلّةِ إبْرٰاهِيْمَ إلاّ مَنْ سَفه نَفْسَه﴾ [٥]، ﴿... ألا إنّهُمْ هُمُ السُّفَهٰاءُ وَلٰكِنْ لاٰ يَعْلَمُونَ﴾ [٦].

وأمّا الأمر الثاني، وهو بيان أنّ منشأ استنكار الجهلة، هو التقليد وحفظ ما

---

١. الأعراف، ٧ ــ ٦٦.
٢. الذّاريات، ٣ ــ ٥٢.
٣. الأعراف، ١٨٤.
٤. الذّاريات، ٣٩.
٥. البقرة، ١٣٠.
٦. البقرة، ١٣.

ورثوه من الآباء الّذين لا يهتدون ولا يعقلون، فهو كما قال تعالىٰ: ﴿قالُوا يا شُعَيْب أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبدُ آباؤنا أو أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشاءُ إِنّكَ لأَنْتَ الحَلِيْمُ الرّشِيْد... قَالُوا يا شُعَيْب ما نَفْقَهُ كَثِيْراً مِمّا تَقُولُ وإِنّا لَنَراكَ فِيْنا ضَعِيْفاً وَلَولا رَهطكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيْز﴾[1]، يعني أنّ الجمود علىٰ الاستنان بالسنّة الهالكة الموروثة، أوجب أن لا يفقهوا كثيراً مما يقوله شعيب النبيّ، إذ التقليد ينافي التحقيق حسبما تقدّم. فلذا لم يفقهوا أصل النبوّة ولم يقبلوا دعواها منه ولا من غيره ممّن يدّعيها، كما لم يفقهوا دعوتهم إلىٰ التوحيد والمعاد ونحوهما.

وأمّا الأمر الثالث ـ أي بيان أنّ منشأ استكبار المتفكّرين منهم، هو الانحراف عن صراط الفكر الصحيح ـ فهو أنّ التفكّر السالم عن عيوب المغالطة في المعارف الإلٰهيّة لا يمكن بدون معرفة الإنسان معرفة سالمة عن أيّ نقص، إذ الجاهل بنفسه فهو بغيره أجهل؛ ولذا عدّها أصحاب المعرفة مفتاح سائر المعارف وباب تلك المدائن العلميّة، فلا يمكن فتحها ولا الدخول فيها إلاّ بسبب معرفة الإنسان نفسه.

وحيث إنّ التفكّر الوثني قد استقرّ في معرفة الإنسان علىٰ مادّيته، وأنّ جميع شؤونه مادّية، وأنّ نفسه كبدنه مادّي محكوم بالتطوّر المنتهي إلىٰ الزوال، وأنّ الموت ضلال في الأرض ونفاد رأساً، وأنّ الإنسان جسم نام ناطق ولا غير، فهو كالشجر ينمو ويفنىٰ ولا حياة له بعد الموت أصلاً؛ فلذا أشركوا في المبدأ الربوبي والعبادي أوّلاً، وأنكروا النبوّة والرسالة رأساً ثانياً، ونفوا المعاد واليوم الآخر ثالثاً، إذ الإنسان بعد فرض مادّيته لا يقدر علىٰ معرفة ربّه، فلا يقدر علىٰ عبادته والاستعانة منه والتوكّل عليه والالتجاء إليه؛ فلذا ركنوا إلىٰ الآلهة وجعلوها وسائط فيض بينهم

---

١. هود، ٨٧ , ٩١.

وبين الله وشفعاء لهم وعبدوها ليقرّبوهم إلىٰ الله الزلفىٰ، وهكذا الإنسان المفروض كونه مادّياً لا يقدر علىٰ مخاطبة الله واستماع كلامه ورؤية جماله بقلبه، إذ القلب كالقالب مادّي بالفرض، فلا يتيسّر له تلقّي الوحي من ربّه، بل إن كان هناك وحي وتلقٍّ له فإنّما هو للملك، وإن كان في البين رسالة وإبلاغ، فإنّما ذلك له أيضاً، لا للإنسان.

وهكذا الإنسان المزعوم كونه مادّياً لا مجال له لأن يحيىٰ بعد الموت والزوال، إذ المعدوم لا يعاد والزائل لا يعود. فهذا المبنىٰ الغلط قد أنتج هاتيك الأوهام الغالطة، كما هو الداء العضال الغاشي علىٰ قلوب المادّيين، فغشيهم من الجهل والعمى ما غشيهم.

الموت انتقال

ولما كان القرآن نوراً مبيناً، ومن أظهر خواصّه هو إنارة المواضع المظلمة؛ فلذا بدأ بتعريف الإنسان وبيان حقيقته، المؤلّفة من نفس ناطقة مجرّدة عن المادّة مبرّأة عن أحكامها، ومن بدن مادّي واقع تحت تدبير تلك النفس، واهتمّ بتعليم أنّه ـ أي الإنسان ـ كادح إلىٰ ربّه كدحاً فيلاقيه، فله أن يعرف ربّه بمقدار الإمكان، وأن يمتنع اكتناهه وله أن يعبده ولا يعبد سواه ويستعينه ويستهديه ويعتمد عليه ويرجع إليه في الشؤون كلّها، ويتخلّص بالتوحيد عن حبائل الشرك. وهكذا تفهيم، أن الإنسان المتجرّد روحه ونزاهة ضميره وصلوح قلبه وطهارة نفسه، قابل لأن يتلقّىٰ الوحي من لدن حكيم عليم، ويصل إلىٰ حدّ يقول: «ما كنت أعبد ربّاً لم أره» [1]، وكيف لا، والملائكة الّذين هم سجود له قابلة لذلك، فللإنسان أن يصير نبيّاً بلا استحالة ورسولاً بلا استبعاد.

---

١. الكافي، ج ١، ص ٩٧، ح ٦.

وهكذا يتبيّن أنّ الموت انتقال من دار إلىٰ دار، وأنّ الإنسـان لا يضلّ بالموت في الأرض، وأنّه لا يعدم حتّىٰ يعاد، ولا يفنىٰ حتّى يعود، بل إنّما هو منتقل بالموت من الدّنيا إلىٰ برزخ يكون روضة مـن رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران، ثمّ إلىٰ اليوم الآخر والقيامة الكبرى.

فباستبـانة هذه المعـارف، ينجو الإنسان عـن غائلـة إنكار الوحـي والنبوّة والرسـالة، ويتحرّر عن إصر سلسلـة نفي المعاد وغـل إنكاره ـ أعاذنـا الله من أي تفكّـر لا يصحّحـه الوحـي الإلٰهي، ومـن أيّ اعتقـاد لا يمضيه، ومـن أيّ خلـق لا يـرتضيه، ومـن أيّ عمل لا يصـوّبه، وهـدانا الله إلىٰ مـخّ الحقّ ومح الصـواب، وأورثنا الكتاب، وورّثنا منطق من يستنطق القرآن، وهم العترة الطاهرة (سلام الله عليهم اجمين) ـ ولكل من هـذه المسائل بحث يختصّ بها، والّذي هو المبحـوث عنها هنا، هو الّذي دار علىٰ ألسنة المتفكّـرين من الوثنيين وقلّدهم أذنـابهم، من أنّ الإنسان لا يصير رسولاً إلهياً، وأنّ البشرية بما هي بشريّة مانعة عن نيل ذلك المقام الشامخ أولاً، ولأن مـدعىٰ النبـوّة بشر، كغيره من آحـاد النـوع الإنساني، فلـو فرض جـواز صيرورة البشر نبيّاً واغمض النظر عن امتناعه، لجاز لغير مدّعيها أيضاً ذلك ثانياً؛ لأنّهم أمثال، وحكـم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد؛ فلذا ترىٰ القرآن الكريم ينقل أصل الامتناع عنهم تارة، والاستدلال بالمتماثل وإنّ حكم الأمثال واحد تارة اُخرىٰ، فيجيب عن الاستدلال للامتناع تارة، وعن الاستدلال باتّحاد حكم الأمثال تارةً اُخرىٰ.

اثبات امكان الرسالة للبشر

وحاصل مـا أفاده القرآن في إمكان الـرسالة للبشر بالمعنىٰ العام ـ الشامل لضرورتها، إذ هي ـ أي رسالة الإنسان في الجملة ـ أمر ضروري لا ريب فيه ـ هو أنّ

للإنسان روحاً مجرّداً عن المادة لا يحويه مكان ولا يضبطه زمان ولا يتشكّل بشكل خاص هندسي ولا يحكم عليه ما يحكم علىٰ المادّة، وبه يصير صالحاً لتعلم الأسماء والحقائق من الله سبحانه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ آدمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [١]، وبه يصير معلّماً للملائكة وينبّئهم بالأسماء والحقائق، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَا آدَم أَنْبِئهم بِأَسماء هؤلاء﴾ [٢]، وبه يصير مسجوداً للملائكة أجمعين. فبذلك كلّه يليق لأن يصير خليفة لله تعالىٰ، كما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيْفَة﴾ [٣]، وقال: ﴿فَسَجَدَ المَلَائِكَة كُلّهم أَجْمَعُون﴾ [٤]، إلىٰ غير ذلك من الكمالات الوجوديّة الّتي لا تنالها المادّة ولوازمها، ولا يصل إليها المقدار وأحكامه.

فإذا جاز للملك المتعلّم الساجد أن ينال الوحي والرسالة، فللإنسان الكامل المعصوم المعلّم إيّاه المسجود له جائز أيضاً بالضرورة، فإذا جاز للإنسان أن يصير رسولاً إلٰهياً، فلا مجال للاستبعاد أو الاستحالة حتّىٰ يقول قائلهم: ﴿أبعث الله بشراً رسولاً﴾ [٥]، أو يقول: ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ [٦]، أو يتفوّه بقوله: ﴿لولا أنزل عليه ملك﴾ [٧]، فالإنسان صالح للرسالة الإلٰهية.

وأمّا ضرورة كون الرّسول إنساناً وعدم كفاية رسالة الملك، فهو أمرٌ آخر أشار إليه القرآن وبيّنه أيضاً، وتوضيحه أنّ البحث في النبوّة والرّسالة، إنّما كان يتمّ في أُمور:

منها: إثبات ضرورتها وعدم كفاية العقل وحده لهداية المجتمع البشري.

ومنها: إثبات إمكان الرّسالة للإنسان بلا امتناع.

ومنها: بيان ضرورة كون الرّسول المبعوث إلىٰ النّاس إنساناً، يعيش معهم ويأكل ويمشي في الأسواق، كأحد منهم من دون كفاية رسالة الملك.

١، ٢. البقرة، ٣١. ٣. البقرة، ٣٠. ٤. الحجر، ٣٠ ـ ص ٧٣.

٥. الإسراء، ٩٤. ٦. المؤمنون، ٢٤. ٧. الأنعام، ٨.

ومنها: أُمور أُخرىٰ لا مجال للإشارة إليها هنا، فضلاً عن البحث عنها.

وحيث إنّ القرآن قد بحث في غير مورد ضرورة هداية النّاس إلىٰ سعادتهم الخالدة، وقد تعرّض لعدم كفاية العقل في تأمينها، حسبما قرّرنا في الرسالة المعمولة في ذلك، وبيّن لزوم بعث رسول خارجي مؤيّد للرّسول الداخلي ـ أي العقل ـ فيما يعلمه، معلّمٍ إياه فيما لا يعلمه ومنبّهٍ له فيما ارتكز في فطرته ومثير لدفائن علومه، صرّح بأنّ ذلك الرّسول الظاهري المبعوث إلىٰ هدايتهم، لابدّ وأن يكون من يباشرهم ويحتجّ عليهم ويجادلهم، وأُسوة لهم وحجّة عليهم وملجأ للحوادث الواقعة، وهادياً لهم في الحرب والسلم، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويأخذ من أموالهم صدقة تطهّرهم، وينظّم أُمورهم ويُعبّئ عساكرهم، وما إلىٰ ذلك ممّا أسّسه الكتاب وفصّله العترة وحصّله الثقلان أحسن تفصيل.

ومن المعلوم، أنّ الرّسول الّذي هذا شأنه لا يمكن أن يكون ملكاً لا يراه النّاس ولا يباشرهم، بل يجب أن يكون إنساناً مثلهم، حتّىٰ يتيسرّ له ذلك. إذ الرّسول لابدّ وأن يكون مماثلاً للمرسَل إليه، فيما إذا كان شأنه الهداية الخارجيّة، لا لمجرّد الإلقاء في الروع أو إنزال الوحي في القلب مثلاً؛ فلذا قال سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ [1]، يعني أنّ الملك إنّما يصلح لرسالة الملائكة لا لرسالة النّاس، ولو كان القاطنون في الأرض ملائكة لا ناساً لأرسل الله إليهم ملكاً رسولاً، وحيث إنّ الساكنين في الأرض الماشين فيها ناس، فلابدّ وأن يكون الرسول المبعوث إليهم منهم، يعني لابدّ وأن يكون إنساناً يعيش معهم، ويموت معهم كي يكون أسوة لهم وحجّة عليهم.

---

١. الإسراء، ٩٥.

ولو فـرض أنّ الله أرسل ملكاً إلىٰ النّـاس، فلابـدّ وأن يصوّره بصورة الـرجل ليمكن لهم أن يـروه ويسألوه ويرجعـوا إليه، فإذا تصـور بصورة الرجل عـاد الأمر جَذَعاً، ولكـانوا يقولون أيضـاً أبعث الله بشراً رسولاً. إذ لو لم يصـوّر الملك بصورة الإنسان المادّي، لما أمكن لهم أن يستمعوا كـلامه ويتأسوا به، ولو تصـوّر بصورته لأمكن لهم ذلـك، ولكن كـانوا يقولـون أيضاً: ﴿ما هـذا إلاّ بشر مثلكم يـريد أن يتفضّل عليكم، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين﴾ [١].

لزوم التناسب بين الرسول و المرسل إليه

وإلىٰ ما قرّرنا يشير قوله سبحانـه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنٰاه مَلَكاً لَجَعَلْنٰاهُ رَجُلاً وَلَلَبسنٰا عَلَيْهِم مٰـا يَلْبِسُونَ﴾ [٢]، والّـذي يستفاد مـن هذه الآيـة هو لـزوم التناسـب بين الرّسول والمرسل إليه؛ ليحاوره وليصير قدوة لـه، وهكذا لزوم كونه رجلاً، لا مطلق إنسان أعـمّ منه ومن المرأة، كما يشير إليـه قوله تعـالىٰ: ﴿وَمٰا أرْسَلْنٰا مِـنْ قَبْلِكَ إلاّ رِجٰالاً نُوْحِي إلَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أهْلَ الذّكْرِ إنْ كُنتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ﴾ [٣].

لأنّ الرسـول لابدّ وأن يكـون مرجعاً للحـوادث الواقعـة في الحرب والسلم وغير ذلك من شؤون المجتمع الإنساني، وهـو لا يتيسر لو كان إمرأة يسألها النّاس مـن وراء حجاب ليكـون أزكـىٰ لهم، كما قال تعـالىٰ: ﴿وإذٰا سألْتُمُـوهُـنَّ مَتاعـاً فَاسْئَلُـوهُنَّ مِـنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ ذٰلِكُـمْ أطْهَرُ لِقُلُـوبِكم وَقُلُـوبِهن...﴾ [٤]، فالدِّين الّذي يـرىٰ طهارة القلـوب في سؤال المرأة مـن وراء حجاب، لا يمكـن أن يكون قيّمـه ومُبلِّغه ومسـؤولـه ومعلِّمه إمـرأة، ولا يمكـن للنّـاس تماسّها ومعـاشرتها في السرّ والعلن.

---

١. المؤمنون، ٢٤. ٢. الأنعام، ٩. ٣. النحل، ٤٣.

٤. الأحزاب، ٥٣.

وهكذا يستفاد من الآية المبحوث عنها أمر آخر، وهو أنّ لُبس الحقّ بالباطل وكتمانه بـه زيغ القلـب ومرضه، والقـرآن إنّما هو شفـاء لما في الصدور مـن الجهل والكبر والطمع وحبّ مـا هو رأس كلّ خطيئة، كما قـال سبحانه: ﴿قَدْ جٰاۤءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُـمْ وَشِفٰاۤءٌ لِمٰا فِي الصُّدُورِ﴾ [١]، فإذا لم يستشـف به الّـذي في قلبه مرض، يمسك الله سبحانـه فيضه عنه، فإذا أمسك رحمته الخاصّـة ولم يرسلها إليه ولم يكن هناك مرسل آخر، كما قال تعـالىٰ: ﴿وَمٰا يُمْسك فَلاٰ مُرْسِل لَهُ﴾ [٢]، يزداد المرض والزيغ؛ إذ المرض يتزايد لو لم يعالج.

وهـذا هو الّـذي يشير إليـه قولـه تعالىٰ: ﴿فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ فَزٰادَهُـمْ اللهُ مَرَضاً﴾ [٣]، وقوله تعـالىٰ: ﴿فَلَمّا زاغوا أزاغ الله قُلُوبَهُمْ﴾ [٤]، فإذاً لو ابتلي إنسان بلبس الحقّ بـالباطـل ولم يعالـج مرضـه هذا بما هـو شفاء لمافي الصـدور، يسلب فيض الله الخاصّ عنـه، فيدوم لبسه ويستمرّ، كما قـال تعالىٰ: ﴿وَلَلَبَسْنٰا عليهـم مٰا يَلْبِسُون﴾ [٥]، وهذا اللّبـس الإلٰهي إنّما هو لبس ثـانوي يعذّبـون به جزاء بما كـانوا يلبسون، كـالاضلال الجزائي، حيث قـال تعالىٰ: ﴿يُضِلّ بِـهِ كَثيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيْراً وَمٰا يضلّ بِـهِ إلاّ الفٰاسِقِيْنَ﴾ [٦]، إذ الإضلال الابتـدائي قبيح لا يصـدر من الله، والّذي يصـحّ إسناده إليه هـو الإضلال الثانـوي، الّذي يكـون جزاء وفاقـاً لعمل الفاسق الضّال عن سبيل الله بعد تبيّنها عن سبيل الغي.

والغرض، هـو أنّ الله الّذي هـو نور السماوات والأرض لا يلبـس الحقّ علىٰ أحد بـالباطل أبـداً، بل يهدي الكلّ إليـه بالحقّ ولا يلبسه بشيء أصـلاً، كما قال: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [٧]، وقال: ﴿قُلْ جٰاءَ الْحَقُّ وَمٰا يُبدِي

---

١. يونس، ٥٧. ٢. فاطر، ٢. ٣. البقرة، ١٠.
٤. الصّف، ٥. ٥. الأنعام، ٩. ٦. البقرة، ٢٦.
٧. البقرة، ١٤٧.

الْبٰاطِلُ وَمٰا يُعِيْدُ﴾ [١]، يعني أنّ الحقّ إنّما يتنزّل من عنـد الله لا من عند غيره، فإذا جاء الحقّ فـلا مجال معه للباطـل، لا الباطل الّذي كـان له سبق وجـود يقدر على العود، ولا الباطل الّذي ليس مسبوقاً به صالح للحدوث، كما تقدّم، فلا يمكن أن يلبس الله الحقّ بالباطل، فمعنىٰ قولـه تعالىٰ: ﴿... وَلَلَبَسنا عَلَيهم مٰا يَلْبِسُونَ﴾ [٢] هو ما تقرّر، وبذلك كلّه يتّضح إمكان الـرّسالة الإلٰهية للبشر بلا محذور، فبه اندفع توهّم المتفكّرين من المشركين.

ليس النبي مماثلاً لسائر الناس

وأمّا حـاصل مـا أفاد القرآن الحكيـم في دفع شبهـة التمسّك بقـانون اتّحاد الأمثـال، فهو أنّ لـوجـود النوع الإنسـاني درجـات بعضها فـوق بعـض، أدناهـا كالحجارة أو أشـد قسوةً وتنزّلاً، وأعلاها كـالمرآة الصافية الّتي لا تكـذب ما رأته، وبينهما مرات شتّىٰ، وليـس كلّ واحدٍ صالحاً لتحمّـل أعباء الرسالـة الّتي لا يعلم موضعها وموطنها إلاّ الله، كما قال: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْث يَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ﴾ [٣].

وهـؤلاء المتشبّثون بقـانون التماثـل لاستنـادهم في معـرفة الامـور إلىٰ الحسّ والمادّة قـالـوا ﴿ مـا هـذا إلاّ بشر مثلكـم يـأكـل ممّـا تـأكلـون منـه ويشرب ممـا تشربون﴾ [٤]، ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ [٥]، ولكن القرآن المبتنـى علومـه علىٰ أنّ معيار معـرفة الأشيـاء هو العقـل والوحـي لا الحسّ، وأنّ الموجود أعمّ من المادّة والمجرّد عنها، أفـاد بأنّ التماثل في بعض الأُمور لا يكفي في اتّحاد الحكم مالم تستوعب المثلية جميعها. وحيث إنّ للنبي (صلى الله عليه وآله) قلباً طاهراً عن دنـس الطبيعة ورجسهـا، ومنزهـاً عن ريـن المادة ورجزهـا، وسالماً عـن حبّ

---

١. سبأ، ٤٩.	٢. الأنعام، ٩.	٣. الأنعام، ١٢٤.
٤. المؤمنون، ٣٣.	٥. المؤمنون، ٤٧.

الدّنيا وزخرفها، ومبرأ عن ضيق نشأة الشهادة وزيغها، فهو صالح لأن يوحى إليه ويتلقاه من لدن حكيم خبير، فلا تماثل بين من شرح الله صدره وبين من خُتِم على قلبه، ولا تشابه بين من لا يزيغ بصره ولا يطغىٰ وبين من ران علىٰ قلبه ما كان يكسب، فلا يجد من لا يهمّه إلاّ نفسه البهيميّة ما يجد من جاهد نفسه وهواه، كما كان يجاهد خصمه وعدوه.

وإلىٰ ما ذكر من اختصاص التماثل بين النبي (صلى الله عليه وآله) وبين هؤلاء ببعض الجهات دون بعضها الآخر يشير قول الله تعالىٰ: ﴿وَقالُوا قُلُوبنا في أكِنّةٍ مِمّا تَدْعُوْنا إلَيْهِ وَفِي آذانِنا وقر وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنَكَ حِجاب فَاعْمَلْ إنّنا عامِلُون قُلْ إنّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوْحَىٰ إليّ أنّما إلٰهُكُمْ إلٰهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيْمُوا إلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوه﴾ [١].

إذ المحجوب الّذي قلبه في كنان وفي أُذنه وقر، كيف يسع له أن يكون مثلاً لمن خرقت أبصار قلبه الحجب النوريّة، فضلاً عن الحجب الظلمانيّة، ووصل إلىٰ معدن العظمة وصار روحه معلقاً بعزّ قدس الله سبحانه، فإذا لم يكن هناك تماثل في الدرجة الوجوديّة فلا مجال معه لاتّحاد الأثر. ومآل هذا التحليل إلىٰ منع الصغرى، وأنّ التماثل بين النبيّ (صلى الله عليه وآله) وغيره ـ أي التماثل التام ـ ممنوع، فمع عدم التماثل لا مجال للتمسّك بالكبرىٰ الناطقة بوحدة حكم الأمثال، إذ المثل دليل على شبهه لا علىٰ غيره.

تنبيه: في أنّ الناس ليسوا أمثالاً للأنبياء في الكمال الوجودي، وأنّ الأنبياء أمثال لهم في الفقر الذاتي

إنّ في المسألة مطلبين لابدّ وأن يعتنىٰ بهما:

الأوّل: هو أنّ سائر النّاس ليسوا أمثالاً للأنبياء، حتّىٰ يُوحىٰ إليهم ما أُوحي

---

١. فصّلت، ٦ ـ ٥.

إلىٰ هؤلاء الأنبياء، وينزل إليهم ما أُنزل علىٰ هؤلاء.

والثاني: هو أنّ الأنبياء من جهة الفقر الوجودي، وأنّه لا يمكن أن يصدر منهم شيء بالاستقلال، وأنّ جميع ما يأتون به فهو مستند إلىٰ إذن الله سبحانه، وأنّهم لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياةً ولا نفعاً ولا ضرّاً، أمثالٌ لسائر النّاس، فمالم يأذن الله بشيء لما قدروا علىٰ الاتيان به؛ لأنّ الأنبياء كالأُمم محكومون بالفقر ذاتاً وصفةً وفعلاً؛ فلذا لا يصحّ للنّاس اقتراح الآية كلّما اشتهوا، كما لا يمكن للأنبياء الإتيان بها مالم يأذن الله سبحانه.

ولعلّه، يمكن استنباط هذين المطلبين من قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلهم أَفِي الله شَكٌّ فاطِرِ السّمٰواتِ والأرْضِ يَدْعُوْكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُم وَيُؤَخِّرَكُم إلىٰ أجَلٍ مُسمّى قالُوا إنْ أنْتُمْ إلاّ بَشَرٌ مِثْلنا تُرِيْدُون أن تَصُدّونا عمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤنا فَأتُونا بِسُلْطانٍ مُبِيْنٍ قالَتْ لَهُمْ رُسُلهم إنْ نَحْنُ إلاّ بَشَرٌ مِثْلكُمْ وَلكنّ الله يَمُنّ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أن نأتِيكُمْ بِسُلْطانٍ إلاّ بإذْنِ اللهِ وَعَلىٰ الله فَلْيَتَوَكّلِ المؤمِنُونَ﴾ [١]. إذ المستفاد من قولهم للأنبياء: ﴿إن أنتم إلاّ بشر مثلنا﴾، هو ادّعاء التماثل وعدم المزيّة لهؤلاء الأنبياء.

الممكن مفتقر إلى الواجب في وجوده

كما أنّ المستفاد من قولهم: ﴿تريدون أن تصدّونا عمّا كان يعبد آباؤنا﴾ هو لزوم حفظ السنّة الموروثة والرجوع إلىٰ الأموات ابتداءً وإدامةً والرجوع التقليدي إليهم بقاءً، والمستفاد من قولهم: ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ هو اقتراح الآية حسب ما يشاؤون.

وأمّا المستفاد من قول الأنبياء في الجواب: ﴿إن نحن إلاّ بشر مثلكم

---

١. إبراهيم، ١١ ـ ١٠.

ولكن الله يمنّ علىٰ من يشاء من عباده﴾ هو أنّ التماثل في الجملة أي في بعض الأوصاف والدرجات الإنسانية حقّ متّفق عليه، ولكن الامتنان الإلهي أوجب لبعض ممّن يشاء من عباده درجة فائقة من الإنسانية، بها يمتاز الأنبياء عن سائر الناس، فلا تماثل حينئذٍ في البين حتّى يتمّ دعواه من المشركين.

وأمّا المستفاد من قولهم في الجواب: ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلاّ بإذن الله﴾ فهو إنّ الإنسان وإن بلغ ما بلغ وامتاز عن أبناء نوعه بأيّ امتياز، فهو لا يخرج عن حوزة الفقر الوجودي، ولا يلج باب الغنى المختصّ بالله الّذي قال: ﴿يا أيُّها النّاسُ أنْتُمُ الْفُقَراءُ إلىٰ اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِي الحَمِيدُ﴾ [١]، فهؤلاء الأنبياء العظام في استعانتهم بالله وافتقارهم إليه وتوقف جميع أعمالهم علىٰ إذنه أمثالٌ للنّاس، ولكن الله يأذن لهم حسب ما يشاء دون غيرهم. فلذا يتيسر للنبي أن يقول: ﴿وأبْرِيء الأكْمَهَ والأبْرَصَ وَأُحْيي المَوْتَىٰ بِإذْنِ اللهِ﴾ [٢] دون غيره من آحاد النّاس. ومن هذا الإذن الخاص ينتزع الإعجاز ويصحّ معه التحدّي وتثبت به النبوّة وتتمّ لأجله الحجّة.

وبهذا التحليل أيضاً يظهر أمر آخر، وهو تبيين موضع المغالطة من متفكّري المشركين أو غيرهم ممن يقترح المعجزة بما تشتهي أنفسهم المسوّلة والأمّارة، وكذا بيان سرّ قول الأنبياء تجاه اقتراح هؤلاء: ﴿إن نحن إلاّ بشر مثلكم﴾ [٣].

المَلَك كالانسان عبد داخر

وهكذا سرّ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أنْ يأتِي بِآيَةٍ إلاّ بِإذْنِ الله لِكُلّ أجَلٍ كِتاب﴾ [٤]، إذ الممكن سواء كان نبيّاً أو غيره، وسواء كان ملكاً أو إنساناً، مفتقرٌ

---

١. فاطر، ١٥. ٢. آل عمران، ٤٩. ٣. إبراهيم، ١١.

٤. الرّعد، ٣٨.

إلىٰ الله في أصل وجوده ومفتاق إليه في إيجاده؛ لأنّ الإيجاد كالوجود ربط محض إلىٰ إيجاده تعالىٰ، والاّ لزم التفويض الّذي هو أسوأ حالاً من الجبر السيّئ الممتنع عقلاً، الممنوع نقلاً.

ومن هنا يتّضح معنىٰ قوله تعالىٰ في تعريف الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُون لاَيَسْبِقُوْنَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُوْنَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُم وَلاَ يَشْفَعُوْنَ إلاّ لِمَنْ ارْتَضىٰ وَهُمْ مِنْ خِشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [١]، ويظهر أنّ الملك كالإنسان عبد داخر، فلا يصحّ الالتجاء إليه بدون إذن الله الّذي حرّم عبادة غيره، ومنع اتّخاذ غيره نـدّاً له تعالىٰ، وبذلك يلوح موضع الغلط الفكري لمن يتّخذ الملائكة أرباباً لهم بالاستقلال.

فتحصّل، أنّ أوساط الناس ليسوا أمثالاً للأنبياء في الكمال الوجودي، و إن كان الأنبياء (عليهم السلام) أمثالاً لهم في الفقر الذاتي، فلذا لامجال لقانون التماثل في كمال الرسالة، و إن كان له مجال في احتياج المرسلين إلى الإذن الإلهيّ.

تبصرة: في اعتقاد الوثنيين في الملائكة

إنّ الّذي يستفاد من القرآن، هو أنّ الوثنيين كانوا معتقدين في المَلَك، أنّه فوق الإنسان، وأنه صالح لتلقّي الوحي والرسالة من الله دون الإنسان، وأنّ له تقرّباً خاصّاً إليه تعالىٰ ليس للإنسان ذلك، وكذا كانوا يعتقدون أنّه ولد الله سبحانه، ولو أنّهم كانوا يعتقدون أنّه مثل الإنسان ذو جسم ومادّة لما عبدوه ولما حكموا بأنّه صالح لتلقّي الرسالة دون الإنسان، ولما اعتقدوا بشفاعته.

وأمّا القرآن فنفىٰ بعض هذه الأمور مطلقاً، كربوبيّة الملك ومعبوديّته وولديّته لله سبحانه، ونفىٰ بعضها الآخر مقيّداً لا مطلقاً، كشفاعة الملك، حيث

---

١. الأنبياء، ٢٨ ـ ٢٦.

إنّه نفى استقلاله فيها وأثبت له ذلك بالإذن ولم يتعرّض لكونه فوق الإنسان المادّي المحسوس ولم ينفه، بل قال: بأنّ الإنسان مالم تتبدّل نشأة شهادته إلىٰ نشاة الغيب لما أمكن له أن يرىٰ الملك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاٰ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاٰئِكَةُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوا عُتُوّاً كَبِيْراً يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاٰئِكَةَ لا بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِيْنَ وَيَقُوْلُونَ حجراً مَحْجُوراً﴾ [١]، يعني أنّ رؤية الله سبحانه مستحيلة، سواء كانت في عالم الشهادة والحسّ أو في البرزخ وعالم التمثّل.

إذ لا صورة مثالية للحقّ المحض المجرّد عن ايّ قيد عقلي، فضلاً عن قيد وهمي أو خيالي، وأمّا رؤية الملائكة، فهي وإن لم تمكن في نشأة الشهادة بالحسّ المادّي إلّا أنّ لها إمكاناً في نشأة البرزخ والمثال. فلذا يرونهم ذلك اليوم ولكن لا بشرىٰ لهم حينئذٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرىٰ إِذْ يَتَوفَّىٰ الَّذِيْنَ كَفَرُوا الْمَلاٰئِكَةَ يَضْرِبُونَ وِجُوهَهَمْ وَأَدْبٰارَهُمْ وَذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيْقِ﴾ [٢]، فلذا يقول: هؤلاء الكفّار المضروب وجوههم، بعدّة من الملائكة وأدبارهم، بعدّة أُخرىٰ منهم حجراً محجوراً، أي نحتجر بحجركم ونلوذ بمعاذكم صوناً عن الضرب والتعذيب.

والحاصل، أنّ معتقَد الوثنيين في الملائكة، هو أنّهم فوق البشر وأنّهم يصلحون لما لا يصلح له الإنسان وما إلىٰ ذلك، ولقد نفىٰ القرآن بعض ما كانوا يعتقدون فيهم، ولم ينفِ تجرّدهم عن الجسم المادّي ونحو ذلك، بل أمضاه بعدم إمكان رؤيتهم في نشأة الحسّ؛ لأنّ شهودهم يتوقّف علىٰ تبدّل الحسّ المادّي بالبرزخ المثالي أو تغيّر الدّنيا بالآخرة، حتّى يتجلّىٰ للإنسان ملك الموت مثلاً، كما قال مولانا السجّاد (عليه السلام): «وتجلّىٰ ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب» [٣].

---

١. الفرقان، ٢٢ ـ ٢١. ٢. الأنفال، ٥٠. ٣. الصحيفة السجادية، دعائه عند ختم القرآن.

إيضاح: في الفرق بين التقليد و الوراثة الكريمة

قد تقدّم أنّ التقليد انجماد فكري، مانع عن الرقي إلىٰ ذروة التحقيق المبتنىٰ عليه المعارف الحقّة، وأنّ التحجّر الذهني بضاعة الجهلة الّذين شعارهم هو: ﴿إنّا وجدنا آبائنا علىٰ أُمّة و إنّا علىٰ آثارهم مقتدون﴾ [١]، ودثارهم هو: ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين﴾ [٢]، وأنّ القرآن الحكيم قد وضع عن الإنسان إصر القلادة والغلّ، وهداه إلىٰ العقل البرهاني أو النقل القطعي بلا تطارد بينهما، بل مع التلازم والتعانق؛ لأنّ البرهان العقلي يصدق لما بين يديه ولما هو فوقه وأمامه من الوحي القطعي؛ ولأنّ الوحي القطعي أيضاً مصدق لما بين يديه من البرهان العقلي، وسبحان الوحي القطعي عن طرد البرهان العقلي، وحاشا العقل الصراح والبرهان المنزّه عن شائبة المغالطة عن التمرّد تجاه الوحي وعدم تخضّعه لديه، وعدم إقراره بما جاء به، والالتجاء إليه والثقة عليه؛ لأنّه نفسه ـ أي العقل البرهاني ـ قد قام علىٰ ضرورة الوحي وجوداً، وعلىٰ عصمته عن أيّ وهن وسوء، وصيانته عن أيّ هون وحزازة، وطهارته عن أيّ لوث وقذارة، ونزاهته عن أيّ جهل وخطيئة، وبراءته عن أيّ عيب ونقص وصفاً، فمعه لا يمكن أن لا يتعبد بالوحي القطعي ولا يؤمن به، وإلاّ لزم أن لا يعتقد بنفسه. وهذا هو محذور الجمع بين النقيضين الممتنع بالضرورة.

مدار التقليد من قال لا ما قال

ثمّ إنّ الإنسان المتفكّر علىٰ منهج الصواب، إذا قام عنده الحقّ إمّا بالبرهان أو بالوحي يعتقد به، وإذا كان آباؤه معتقدين بذلك أيضاً يبتهج به ويشتدّ عزمه به. وهذا هو الوراثة الكريمة، لا التقليد الدائر مدار من قال، لا ما قال.

---

١. الزخرف، ٢٣.
٢. المؤمنون، ٢٤ ـ القصص، ٣٦.

إذ التقليد إنّما هو ركون إلىٰ شخص معين وأخذ ما يصدر عنه بالسمع والقبول، بدون عرضه علىٰ العقل أو الوحي، وأمّا الوراثة الكريمة فهي طمأنينة إلىٰ الحقّ الّذي نطق به العقل أو دلّ عليه الوحي، واتّفق أنّ المتقدّمين أيضاً كانوا يعتقدون بذلك، ومن هذا القبيل توصية الأنبياء أبناءهم بالإسلام، وكذا اتّباع أبنائهم لهم وابتهاجهم بهذا الاتّباع، وهكذا أمر الله سبحانه رسوله باتّباع هداهم.

أمّا الأول: فكقوله تعالىٰ: ﴿إذْ قٰالَ لَهُ رَبّهُ أسْلِمْ قٰالَ أسْلَمْتُ لِرَبّ الْعٰالَمِينَ ووَصّىٰ بِهٰا إبْراهِيْمُ بَنِيْهِ وَيَعْقُوبُ يٰا بنيَّ إنّ اللهَ اصْطَفىٰ لَكُمُ الدِّيْنَ فَلاٰ تَمُوتُنَّ إلاّ وأنْتمْ مُسْلِمُونَ أمْ كُنْتمْ شُهَداءَ إذ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إذْ قٰالَ لِبَنِيْهِ مٰا تَعْبُدونَ مِنْ بَعْدِي قٰالُوا نَعْبُدُ إلٰهَكَ وَإلٰه آبٰائِكَ إبْراهِيْمَ وَإسْمٰعيلَ وَإسْحٰاقَ إلٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [1]؛ لأنّ التواصي بالحقّ، هو غير الوصيّة بالتقليد والتحجّر الفكري، فإبراهيم (عليه السلام) وكذا يعقوب (عليه السلام) قد أوصىٰ بالحقّ بنيه.

وأمّا الثاني: فكقوله تعالىٰ: ﴿... إنّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤمِنُونَ بِالله وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبٰائي إبْراهِيْمَ وَاسْحٰق وَيَعْقُوب مٰا كٰانَ لَنٰا أن نُشْرِكَ بالله مِنْ شَيءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ الله عَلَيْنٰا وَعَلىٰ النّاسِ وَلٰكِنّ أكْثَرَ النّاسِ لاٰيشكرون﴾ [2]؛ لأنّ اتّباع الحقّ بعد اتّضاحه ليس هو التقليد، وإن صادف أنّه كان ديناً للآباء، إذ المتّبع هناك هو الحق، لا مقال الأب والجد والسنّة الموروثة ونحوها؛ ولذا ذكر برهان التوحيد ونفىٰ الشرك في قوله: ﴿... مٰا كٰان لَنٰا أنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شيءٍ﴾ [3]، وذلك لأنّ الله الّذي لا حدّ لربوبيّته فلا يمكن أن يكون شيء دونه ربّاً لشيء أصلاً.

وأمّا الثالث: فكقوله تعالىٰ: ﴿أُولٰئِكَ الّذِيْنَ هَدَىٰ الله فَبِهُدٰاهُمْ اقْتَدِه قُلْ

---

١. البقرة، ١٣٣ ـ ١٣١. ٢. يوسف، ٨ ـ ٣٧. ٣. يوسف، ٣٨.

لاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرى لِلْعالَمِيْنَ﴾ [١]؛ لظهور الآيـة في أنّ الله أمر رسوله بـاقتداء هداية الأنبياء الماضين لا بـاقتدائهم، بحيث يصير تـابعاً لهم، بل يكون تابعاً للحقّ الّذي يكون هؤلاء أيضاً اتباعاً له، وذلك لأنّ الّذي أوحىٰ إليهم وأنزل عليهـم وتجلّىٰ لهم واستقرّ في قلوبهم، تحقّق ذلـك كلّه بالنسبـة إلىٰ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أيضاً، ويشهد له قوله تعـالىٰ: ﴿إِنّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلىٰ نُوْحٍ وَالنَّبِيينَ مِـنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنـا إِلىٰ إِبْراهِيْـمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰـقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبـاطِ وَعِيْسىٰ وَأَيّوبَ وَيُونُسَ وَهٰرُونَ وَسُلَيْمٰانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً﴾ [٢].

التقليد لابد و أن ينتهي إلى التحقيق

فتحصّل، أوّلاً: إنّ مجرّد توافق عقيدة شخص لمعتقد قـوم تقدّموا عليه ليس تقليـداً وإتباعـاً لهم، بعـد أن كان معيـار الاعتقاد عنـده هـو الحقّ المبرهن عليـه بالعقل، أو الناطق به الوحي.

وثانياً: إنّ الفرق بين قول يوسف: ﴿واتّبعتُ ملّة آبائي﴾ [٣] وبين قول هؤلاء الجهلة من المشركين: ﴿إنّا وجدنا آباءنا علىٰ أُمّة وإنّا علىٰ آثارهم مقتدون﴾ [٤]، هو الفرق بين الحقّ الحقيق بالتصديق وبين التقليد الباطل الّذي يلزم الاتّقاء عنه.

وثالثاً: إنّ الحقّ يؤخـذ به في أيّ زمـان ومكان ومـن أيّ ناطـق وكاتـب، كما قال مـولانا الـرضا (عليه السلام): «الحكمـة ضـالّـة المؤمـن، فاطلبـوهـا ولـو عنـد المشرك تكونوا أحـقّ بها وأهلها» [٥]، وهذا هـو الّذي يقـال فيه: أُنظـر إلىٰ ما قـال ولاتنظر إلىٰ من قال.

ورابعاً: إنّ الاتباع والانقياد لا يصحّ إلاّ في الفروع دون الأُصول.

---

١. الأنعام، ٩٠. ٢. النساء، ١٦٣. ٣. يوسف، ٣٨.
٤. الزخرف، ٢٣. ٥. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الآداب، ص ٣٠٥، ح ٦٠.

وخامساً: إنّ التقليد لابدّ وأن ينتهي إلىٰ التحقيق، حتّى يثبت أنّ المتبوع معصوم، أو منصوب من قبله بالنصب الخاصّ أو العامّ، وهذا هو الذي ورد فيه عن أبي جعفر (عليهما السلام) في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه﴾ [١]، قال (عليه السلام): «علمه الّذي يأخذه عمن يأخذه» [٢].

إذ العلم البرهاني طعام طيب قد تهيّأ من مادّة بديهية معدودة من علوم متعارفة ومن صورة بديهيّة الانتاج، صورها إيّاها العقل السليم عن آفة الغلط وعاهة الخيال. ولا يعتبر فيه أزيد من الصدق الضروري، كالقائل المعيّن أو الكاتب المعلوم ونحو ذلك. إذ لا تأثير لفكره ولا للفظه ولا لعمله ولا لكتابته ولالشأن من شؤونه؛ فلذا يستوي فيه البرّ والفاجر، كالعلم الرياضي ونحوه. وهذا بخلاف ما لمبدئه الفاعلي تأثير فيه بنحو من الأنحاء، إذ لابدّ هناك أن يحرز كونه صالحاً لأن يركن إليه؛ لعصمته أو لنيابته عن المعصوم نيابة خاصّة به، أو عامة له ولغيره.

وسادساً: إنّ الحجر الأساسي في معرفة المبدأ والمعاد والوحي والنبوّة، هو معرفة الإنسان نفسه، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «أفضل العقل معرفة الإنسان نفسه» [٣]، وقال (عليه السلام): «صديق كلّ امرئ عقله وعدوّه جهله» [٤]، وقال (عليه السلام): «صديق الجاهل في تعب» [٥].

وسابعاً: إنّ مدار المعرفة ومعيارها العقل لا الحسّ، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «واعلم أنّ كلّ ما أوجدتك الحواس، فهو معنىٰ مدرك

---

١. عبس، ٢٤.
٢. بحارالأنوار، ج ٢، باب ١٤، ص ٩٦.
٣. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الآداب، ص ٣٠٢، ح ٤٤.
٤. مسندالإمام الرضا «ع»، كتاب العقل، ص ٣، ح ١.
٥. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الآداب و المواعظ، ص ٣٠٢، ح ٤٤.

للحواس، وكلّ حـاسّة تدلّ علىٰ ما جعـل الله عزّ وجلّ لها في إدراكها والفهـم من القلب بجميع (يجمع) ذلك كله»[١].

وثامناً: إنّ التفكر إنّما هو بتحقيق الأُصول أوّلاً، وتفـريع الفروع واستنباطها منها ثانياً، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «... فاعقل ذلك وابن عليه ما علمت صواباً»[٢].

وتاسعاً: إنّ معـرفـة الله بقـدر الطوق البشري ميسـورة، وأنّـه لا مجال فيهـا للتفريط بأن يطلبه الإنسان بالحس، ولا للإفـراط بأن يشتهي إحاطته بالقلب، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «ولكن يدلّ علىٰ الله عزّ وجلّ بصفاته ويدرك بأسمائه ويستـدلّ عليه بخلقـه، حتّـىٰ لا يحتاج في ذلـك الطـالـب المرتاد إلىٰ رؤيـة عين ولا استماع أُذن ولا لمس كفّ ولا إحاطة بقلب، فلو كانت صفاته جلّ ثناؤه لا تدلّ عليه وأسماؤه لا تدعو إليـه والمعلمة من الخلق لا تدركه لمعناه، كـانت العبادة من الخلق لأسمائه وصفـاته دون معنـاه، فلولا إن ذلـك كذلـك لكان المعبـود الموحّد غيرالله تعالىٰ لأنّ صفاته وأسمائه غيره»[٣].

وقال (عليه السلام) أيضاً: «والأسماء كلّهـا تدلّ علىٰ الكمال والـوجود ولا تـدلّ علىٰ الإحاطة، كما تدلّ علىٰ الحدود الّتي هـي التربيع والتثليث والتسديس، لأنّ الله عزّ وجلّ وتقدّس تـدرك معرفته بالصفات والأسماء، ولا تدرك بالتحـديد بالطول والعرض والقلّة والكثرة واللّون والوزن وما أشبه ذلك، وليس يحلّ بالله جلّ وتقدّس شيء من ذلك، حتّىٰ يعرفه خلقه بمعرفتهم أنفسهم بالضرورة التي ذكرنا»[٤].

وقال (عليه السلام) أيضاً في جواب سؤال عمران عن الحكيم ـ أي الله سبحانه ـ:

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٩٠، ح ٣.

٢. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٨٦، ح ٣.

٣،٤. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٨٩، ح ٣.

«في أيّ شيء هو، وهل يحيط به شيء، وهل يتحوّل من شيء إلىٰ شيء، أو به حاجة إلىٰ شيء، أخبرك يا عمران فاعقل، ما سألت عنه فإنّه من أغمض ما يرد علىٰ المخلوقين في مسائلهم وليس يفهمه المتفاوت عقله العازب علمه ولا يعجز عن فهمه أُولو العقل المنصفون»[١].

فالعقل إذا أنصف، ولم يتلوّث بلوث التفريط، ولم يتدنّس بدنس الإفراط، ولم يتقذّر بقذر المغالطة في مادّة القياس الفكري ولا في صورته، ولم يفته بعض المقدّمات عن النتائج، ولم يغفل ولم يعزب علمه عن مثقال ذرّة ممّا يؤثر في الاستدلال، فهو قادر علىٰ فهم أغمض المعارف، وهو فهم التوحيد وغنا الله عمّا سواه وافتقاره إليه سبحانه. وهذا هو الترغيب إلىٰ البرهان العقلي والترهيب عن القياس الوهمي الّذي أنتجه التدبّر في القرآن، قد صدّقه مستنطقه، وهو الإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام)، كما قال (عليه السلام): «... وبالعقول يعتقد التصديق بالله»[٢]، وقال (عليه السلام) أيضاً: «... فكلّ ما في الخلق لا يوجد في خالقه، وكلّ ما يمكن فيه يمتنع في صانعه»[٣]. إذ بقوله (عليه السلام): وبالعقول ... إلى آخره رغّب إلىٰ البرهان، وبقوله (عليه السلام): فكلّ ما في الخلق ... إلى آخره حذّر عن المغالطة.

المقام الثاني: في موقف الشهود القلبي تجاه القرآن الحكيم

إنّ العلم بالشيء قد يكون بلا واسطة أمر آخر أصلاً، وقد يكون بواسطته. والأول، هو العلم الحضوري الّذي لا واسطة هناك بين المعلوم والعالم. والثاني، هو العلم الحصولي الّذي يكون هو بنفسه واسطاً بين المعلوم الخارجي وبين العالم، وإن لم يكن بين ذلك العلم وبين العالم واسطة، وإلّا لتسلسل الأمر.

---

١. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٩١، ح ٣.

٢،٣. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ١٢٣، ح ١١.

ولذا يكون كلّ علم حصولي حضورياً معلوماً بالذات، ولا علم أزيد منهما. إذ لا معلوم عدا معلومهما، إذ المعلوم إمّا وجود وإمّا ماهيّة أو ما في حكمها وهو المفهوم.

والأوّل، لا يعلم إلّا بالحضور، ولا يمكن نيله إلّا بشهوده في موطنه وهو الخارج؛ لامتناع تحقّقه في الذهن، وإلّا لزم انقلاب الخارج ذهناً.

و أمّا الثاني، فهو من حيث أنّه معلوم بالذات في الذّهن وموجود لدىٰ النفس ومشهود لها، علمٌ حضوري. ومن حيث إنّه حاكٍ عن ما ورائه ووسيلة لنيل النفس إلىٰ الخارج المحكيّ، علمٌ حصولي.

وهذا العلم الحصولي ينقسم إلىٰ التصوّر والتصديق، ثمّ خصوص التصديق منه ينقسم إلىٰ الصواب والخطأ، وللميز بينهما ميزان متكفّل لبيان المواد الحقّة المنزّهة عن الخطأ، ولبيان الصور المنتجة المبرّأة عن العقم. وقد تقدّم في المقام الأوّل، أنّ الميزان القسط الّذي أنزله الله بالحقّ علىٰ قلب من هو بنفسه لسان صدق وميزان حقّ، هو المعيار الوحيد للميز بين القياس البرهاني الواجد لشرائط المادّة وآداب الصورة، وبين القياس المغالطي الفاقد لبعضها أو لكلّها.

والمبحوث عنه في هذا المقام، هو تشريح الشهود القلبي والعلم الحضوري، وتبيين إمكانه والدليل علىٰ تحقّقه خارجاً والتحريض إلىٰ تحصيله، والهداية إلىٰ ما هو الشهود القلبي الّذي يشهد القلب فيه ما هو المحقّق خارجاً، وما هو التمثل الشيطاني أو النفساني الّذي لا وجود له في الخارج عن صقع النفس، ولا اعتداد به مالم يكن له مبدأ رحماني أو ملكي.

اعتناء القرآن بالعلم الحضوري أشدّ

والذي ينبغي أن يتنبّه له، هو أنّ اعتناء القرآن بهذا القسم من العلم أشدّ

من اعتنائه بالقسم الأوّل، وإن كان تعرّضه للقسم الأوّل ودعوته إليه وتبيين معارفه في كسوته أكثر. والسرّ هو ما تقدّم في مقدّمة الجنّة الرابعة، من الميز بين هذين القسمين من العلم، مضافاً إلىٰ أنّ القرآن نفسه علم حضوري ووحي شهودي، لا حجاب هناك بين قلب النبيّ وبين الواقع المشهود، لا حجاب صورة ذهنية تُري الموجود الخارجي ولا غطاء مفهوم ذهني يحكيه، ولا يمكن معرفة هذا القسم من العلم إلاّ بنيله في الجملة؛ لأنّ العلم الحصولي قاصر عن بيان حقيقته؛ لأنّه من وراء سحاب الصورة أو من وراء غمام المفهوم، وكلّ واحد منهما، وإن كان حاكياً عن ما ورائه إلاّ أنّ المشهود هو غير المحجوب، و أنّ المعلوم بلا واسطة هو غير المعلوم معها؛ فلذا كان اعتداد القرآن بهذا القسم من العلم أشدّ من اعتنائه بالقسم الحصولي منه.

العلم الحصولي حجاب

ثمّ إنّ العلم الحصولي بالموجود الخارجي، وإن كان بالنسبة إلىٰ العلم الحضوري حجاباً، إلاّ أنّه بالقياس إلىٰ الجهل بالواقع نور وشهود، وكذا العالم بالواقع من وراء حجاب البرهان، وإن كان محجوباً وأعمىٰ بالقياس إلىٰ العالم به بلا واسطة المفهوم والشهاد له بلا غطاء الصورة الذهنية، إلاّ أنّه شاهد وبصير بالقياس إلىٰ الجاهل. فلذا ترىٰ القرآن الحكيم يصف المؤمن بالبصير والسميع، ويصف الكافر بالأعمىٰ والأصمّ، سواء كان المؤمن قد آمن بالأُصول شهوداً أو آمن بها برهاناً، بل الثاني أكثر؛ لصعوبة الأوّل وعسره.

والدليل علىٰ إطلاق النور علىٰ كلا القسمين، أنّه قال سبحانه: ﴿... قُلْ هَلْ يسْتَوي الأعْمىٰ وَالْبَصِيْر أفَلا تَتَفَكَّرُون﴾[1]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جٰائَكُمْ بَصٰائِر

---

١. الأنعام، ٥٠.

مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [١]، وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [٢].

والسرّ في كون العلم بصيرة، هو أنّه بنفسه نور وحضور، وإن كان بالقياس إلىٰ الخارج المحكي حصولاً، فلا اختصاص للبصيرة والشهود ونحو ذلك بالعلم الشهودي، بعدما كان الغالب في المؤمنين هو الإيمان بما جاء به الوحي بعد العلم به برهاناً، ويشهد له قوله سبحانه بعدما أقام البرهان علىٰ التوحيد والترغيب إليه والتحذير عنه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [٣].

إذ العلم بكون ما نزل إلىٰ الرسول (صلى الله عليه وآله) حقّاً أعمّ من الحصولي والحضوري، بل الأوّل هو الدارج بين الناس، فمن علم حصولاً بالبرهان أنّ الوحي حقّ وآمن به، فهو علىٰ نور من ربّه وهو بصير، ومن جهل به ولم يعلمه لا بالبرهان ولا بالعيان، فهو أعمى. وقد بيّن الله سبحانه أنّ هذا العمىٰ، إنّما هو وصف القلب لا الحسّ البصري، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَىٰ الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [٤].

فالنفس الإنسانية التي من شأنها أن تدرك الحقائق حصولاً أو حضوراً، إذا عميت عليها ولم تدركها، صارت أعمىٰ وأصمّ، ولا خصوصيّة لذلك بالشهود القلبي والعلم الحضوري، بل يعمّه والعلم الحصولي الدارج، وإن كان شموله للشهود القلبي وظهوره فيه أقرب وأتمّ من شموله للعلم الحصولي.

---

١. الأنعام، ١٠٤. ٢. هود، ٢٤. ٣. الرعد، ١٩.
٤. الحج، ٤٦.

وإلىٰ هذين القسمين من العلم قد أشار مولانا الرضا (عليه السلام) في قوله (عليه السلام): «... ولكن القوم تاهوا وعموا وصمّوا عن الحقّ من حيث لا يعلمون وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمىٰ وَأَضَلُّ سَبِيْلاً﴾[١]، يعني أعمىٰ عن الحقائق الموجودة»[٢]؛ لأنّ قوله (عليه السلام): «يعني أعمىٰ عن الحقائق الموجودة» عام بالنسبة إلىٰ قسمي العلم من الحصولي البرهاني والحضوري الشهودي، كما أنّ قوله (عليه السلام): «وقد علم ذوو الألباب أنّ الاستدلال علىٰ ما هناك لا يكون إلاّ بما هاهنا...»[٣] خاص بالنسبة إلىٰ الحصولي بالبرهان، ولكن لم يعبّر فيه بالعمىٰ والبصر.

والغرض، أنّ العلم البرهاني، وإن كان حجاباً بالقياس إلىٰ الشهود القلبي، ولكنه نور و حضور في نفسه، فالعالم به بصير والجاهل به أعمىٰ، ولكن الكلام هنا في العلم الحضوري وكونه نوراً، وكون العالم به شاهداً وبصيراً، وكون الجاهل به غائباً وأعمىٰ، وما إلىٰ ذلك من المباحث المهمّة الراجعة إليه.

إمكان العلم الشهودي و تحقّقه في الخارج

وقد تبين في ثنايا المقال، أنّ العلم الحضوري ما هو، واللازم هنا هو بيان تحقّقه خارجاً وإمكان نيله كذلك، وما يترتّب عليه من الآثار الحسنة المستفادة من بيان مولانا الرضا (عليه السلام) فنقول:

أمّا تحقّق العلم الشهودي خارجاً، فهو أنّ كل واحد منّا يدرك ذاته ويشهد نفسه بلا حجاب صورة ذهنيّة ولا غطاء مفهوم.

لأنّ كلّ مفهوم ذهني حتّىٰ مفهوم (أنا)، فهو بالحمل الشائع أجنبي عن الذات وخارج عنها، ويحمل عليه أنّه هو (لا أنا)؛ لأنّ ذات كلّ واحد منّا موجود

---

١. الإسراء، ٧٢.
٢،٣. مسندالإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٩٠، ح ٣.

خارجي منشأ لغير واحد من الآثار الخارجيّة، وذلك المفهوم ـ أيّ مفهوم كان حتّىٰ مفهوم (أنا) ـ أمر ذهني لا يترتّب عليه الأثر.

ولأنّ كلّ مفهوم ذهني حتّىٰ مفهوم (أنا)، أمر كلّي صالح للانطباق علىٰ كثيرين، وذات كلّ واحد منّا موجود عيني ممتنع الانطباق علىٰ كثيرين، فلا يكون شيء من المفاهيم الذهنية هو عين ذاتنا، فلا يكون العلم بها هو العلم بذاتنا، فلا يكون العلم بذاتنا علماً حصوليّاً، بل يكون العلم بها علماً شهودياً، لا حجاب هناك بين العالم والمعلوم العينيّ، ولا مجال هناك لانقسام المعلوم إلىٰ ما بالذات وما بالعرض، كما كان له مجال في العلم الحصولي.

توافق البرهان و الوجدان في علم النفس بذاتها

والحاصل، أنّ البرهان والوجدان قد توافقا علىٰ أنّ علم النفس بذاتها شهودي، وأنّ العلم هو عين المعلوم العيني، كما أنّه عين العالم أيضاً، وأنّه لا حجاب هناك أصلاً، وحيث إنّ العلم عين النفس الإنسانية، والنفوس الإنسانية معادن كمعادن الذهب والفضّة، ولها درجات شتّىٰ ـ مضافاً إلىٰ كون كلّ نفس بمنزلة معدن خاص، يكون بين مراتب تكوّنه وبلوغه حدّ النصاب، وخروجه عن بطن الأرض إلىٰ ظهرها، وتصفية جوهره عن ترابه المصاحب له، وإذابته للتخليص، وصياغته بصيغ خاصّة تليق لأن يتزيّن به تفاوت وتمايز ـ فالعلم الشهودي له درجات متعدّدة، وكل نفس يكون وجودها أقوىٰ، يكون علمها الحضوريّ بذاتها أشدّ. و كلّ نفس يكون وجودها أضعف، يكون علمها الحضوري كذلك، حتّىٰ ينتهي إلىٰ حدّ في غاية الضعف، يخالطه الجهل ويشوبه النسيان ويمتزجه الذهول، كما يأتي.

وقد تبيّن في الكلام أنّ علم النفس بصورها الذهنيّة أيضاً حضوري، وإن

كان علمها بها تحكيه تلك الصور حصولياً. إذ لو كان علمها بها حصولياً ـ والعلم الحصولي هو الصورة الحاصلة من الشيء لدىٰ النفس ـ يلزم أن يكون علم النفس بتلك الصور بواسطة علمها بصور ذهنيّة أُخرىٰ، فيذهب الأمر لا إلىٰ نهاية، وهو محال. فعلم النفس بها حضوري، كما يساعده الوجدان.

ومن هذا القبيل أيضاً، علم النفس بقواها المدركة والمحرّكة الّتي تستخدمها بعد العلم بها؛ لجريان ما تقدّم من توافق البرهان والعيان علىٰ كون العلم بذلك حضوريّاً. فالمتحصّل، هو أنّ علم النفس بذاتها وبقواها و بشؤونها الذاتيّة حضوري، يكون الموجود الخارجي بوجوده العيني مشهوداً للعالم، كما أنّ علم أيّ موجود مجرّد عن المادّة بذاته حضوري.

هذا هو القول الإجمالي في تحقّق العلم الشهودي في الخارج، وإمكان نيله في الجملة، بالنزاهة عن الموانع الحاجبة عنه، وبالبراءة عمّا يوجب الاخلاد إلىٰ الأرض والاغترار بزهرة الحياة الدّنيا، وبالقداسة عمّا يصدّ عن الحقّ وعمّا ينسي الآخرة، من اتّباع الهوىٰ وطول الأمل، حسبما يأتي بيان ذلك إن شاء الله.

الآثار المترتّبة على العلم الشهودي

وأمّا الآثار الحسنة المترتّبة عليه، فهي أنّ العلم الشهودي عين المعلوم الخارجي المشهود، بلا ميز بينهما وجوداً ولا حكماً، فإذا كان المشهود غنيّاً عمّا عداه، قائماً بذاته، فالعلم به أيضاً غني عن غيره، قائم بذاته، كعلم الواجب سبحانه بذاته، وإذا كان المشهود مفتقراً إلىٰ غيره، قائماً بمبدئه، فالعلم به أيضاً كذلك.

فكما لا يمكن تحقّق ذلك المعلوم منقطع الارتباط عمّا عداه، كذلك لا يمكن تحقّق العلم به منقطع الارتباط عن العلم بمبدئه، فلا مجال لتوهّم انقطاع العلم الشهودي بالفقير المحض والربط الصرف، عن العلم الشهودي بالغنيّ المحض

والمستقل الصرف. إذ المفروض أنّ العلم عين المعلوم، وأنّ المعلوم عين الربط إلىٰ المبدأ، فالعلم به عين الربط إلىٰ العلم بالمبدأ؛ لأنّ جميع ما يرتبط بالمعلوم المشهود أو يرتبط هو إليه، من العلل والمعاليل والمصاحبات في العليّة أو المعلوليّة منحفظة الارتباط بالعلم الشهودي به.

وبهذا يتّجه معنىٰ ما ورد عن عن مولانا أميرالمؤمنين (عليه السلام): في غير مورد: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» [1]، وغاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه، وكيف يعرف غيره من يجهل نفسه، و«من عرف نفسه كان بغيره أعرف» [2]، و«نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس» [3]، و «لا تجهل نفسك فإنّ الجاهل معرفة نفسه جاهل كلّ شيء» [4]، و«أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه» .

والخبير المتتبّع يجد ما ورد في الترغيب إلىٰ معرفة النفس نصوصاً جمّة، ويستنبط من ضمّ بعضها إلىٰ بعض أنّ معرفة النفس شهوداً ممكنة، وأنّ الآثار الحسنىٰ المترتبة عليها كثيرة، وأنّ السيّئات المترتبة علىٰ الجهل بها ونسيانها غير مغفورة، وأنّ الّذي كان علمه بها أشدّ وأغزر، كان علمه بربّه أكثر، وما إلىٰ ذلك من الآثار الحسنة أو السيّئة المترتّبة علىٰ معرفة النفس وجوداً وعدماً.

أهمّ ثمرة معرفة النفس معرفة الله

ومن هنا يظهر، أنّ ما أفاده المحدّث محمّد بن الحسن العاملي (قدّس الله نفسه الزكيّة) من الوجوه الاثني عشر في بيان هذا الحديث المعروف [5]، وجرىٰ عليه الحجة السيّد عبدالله شبّر (رضوان الله عليه) ممّا يمكن استفادتها منه بعنوان التبيين أو تفريع

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ٣٠١.

٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١١٠٤.

٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٢، ح ١٦.

٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٥، ح ١٨٥.

٥. الفوائد الطّوسية، ص ٧٩.

الآثار عدا الوجه الثاني عشر، حيث قال (قدّس سرّه): إنّه علّق محالاً علىٰ محال، أي كما لا يمكن معرفة حقيقة النفس، كذلك لا يمكن معرفة حقيقة الرب، فيجب أن يوصف بما وصف نفسه تعالىٰ، والله أعلم [١].

إذ لا مجال لامتناع معرفة حقيقة النفس؛ لأنّها أمر موجود مجرّد يشهد ذاته إن لم يحجبها الذنب كما يأتي، ولا مجال أيضاً للتلازم بين معرفة حقيقة النفس وبين معرفة كنه ذات الحقّ سبحانه، كما أنّ ما أفاده (قدّس سرّه) بعنوان الوجه العاشر يمكن استفادته من قوله (عليه السلام): «من عرف نفسه جاهدها» [٢]، فراجع.

والغرض، هو أنّ معرفة النفس بالعلم الحضوري ممكن، وأنّ العلم الحضوري عين المعلوم، وأنّ المعلوم العيني هنا عين الربط إلىٰ الله، فالعلم الحضوري به عين الربط إلىٰ العلم الحضوري بالله سبحانه، ولا ثمرة أهمّ من معرفة الله، ولعلّه لذا قال مولانا الرضا (عليه السلام): «أفضل العقل معرفة الإنسان نفسه» [٣]. إذ العلم الكامل هو الّذي يصحبه العمل الصالح، ولا يفترقان حتّى يصلا إلىٰ الهدف السامي، بأن يصعد إليه العلم والاعتقاد و يرفعه العمل الصالح. ومن المعلوم، أنّ العلم الشهودي بالنفس و بخالقها القيّوم لها يوجب الإيمان بما جاء به الوحي من الله، ويستلزم العمل الصالح.

عدم التلازم بين العلم الحصولي و الايمان و العلم الصالح

وأمّا العلم الحصولي بالمبدأ والتصديق البرهاني بالوحي والمعاد، فهو و إن يوجب الإيمان بذلك و يستلزم العمل الصالح، ولكن بنحو الإيجاب الجزئي الّذي

---

١. مصابيح الأنوار في مشكلات الأخبار، ج ١، ص ٢٠٤.

٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ٢١٢.

٣. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الآداب و المواعظ، ص ٣٠٢، ح ٤٤.

لا يناقضه السلب الجزئي؛ فلذا يمكن أن لا يكـون في بعض الموارد ناجحاً أصلاً، بـل يصير حجّة و وبـالاً علىٰ العـالم المتيقّـن، كما هو المستفـاد مـن قـوله تعـالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْـتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلىٰ عِلْـمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِـهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰوَةً فَمَـنْ يَهْدِيْهِ مِـنْ بَعْدِ اللهِ أَفَـلا تَذَكَّـرُونَ﴾ [1]؛ لدلالتـه علىٰ عدم التلازم الضروري بين العلـم الحصولي وبين الإيمان، وعلىٰ عـدم التنافي بينـه وبين الكفر والنفاق.

ثمّ إنّه سبحانه قد يذكر بعد بيان هذا الأصل العام، موارد جزئيّة تشهد علىٰ عـدم التلازم الـوجودي بين اليقين الحصـولي وبين الإيمان والعمـل الصالـح، كما تشهد علىٰ عـدم التضاد بين العلم الحصـولي وبين الإنكار والطغيان، حيـث قال تعـالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهٰا وَاسْتَيْقَنَتْهٰـا أَنْفُسُهم ظُلْماً وَعلـوّاً فَانْظُـرْ كَيْفَ كٰـانَ عٰاقِبَـةُ المُفْسِدِيْنَ﴾ [2]؛ لدلالته علىٰ أنّ اليقين الحصـولي بأن ما أتى به مـوسىٰ آية مبصرة علىٰ نبوّته، قـد لا يصحبه خضوع العقل العملي الّذي به يعبـد الرحمان و يكتسب الجنان، بل قد يخالفه ويتبدّل هناك العدل بـالظلم والتواضع بالاستعلاء، كما كان شعارهم يـومئذ: ﴿قد أفلح اليـوم مَن استعلىٰ﴾ [3]، فلاتلازم بين العلـم القطعيّ الذهنيّ و بين العمل الصالح؛ لأنّ لكلّ منهما مبدأ خاصّاً يختصّ به.

إذ العلم، مبدأه العقل النظري المتكفّل لإدراك الأُمور سواء كانت مما يتعلّق بالعمل كمسائل الحكمة العمليّة، أو لا يتعلّق به، كمسائل الحكمة النظريّة.

وأمّـا العمل، فمبـدأه العقـل العملي المدبّر للطبيعـة والبـدن، وهما قوّتـان أوشأنان مـن قوىٰ النفس أو شؤونها، كـالمدركة والمحركة اللتين هما مـن قواها أو شؤونها في المرحلة النـازلة. حيث إنّه يمكـن أن يكون إحداهما موجـودة والأُخرىٰ

---

١. الجاثية، ٢٣.　٢. النمل، ١٤.　٣. طه، ٦٤.

معدومة، أو إحداهما ضعيفة والأُخرىٰ قويّة، أو كلتاهما ضعيفتين أو قويتين، كما هو المشاهد في العالم العادل من قوّتهما معاً فيه. والمشاهد في الجاهل الظالم من ضعفهما أو عدمهما معاً فيه، والمشاهد في العالم غير العادل من وجود إحداهما دون الأُخرىٰ فيه، وهكذا المشاهد في المتنسّك الجاهل. والتفصيل في محلّه.

والغرض، هو إمكان افتراق العلم البرهاني عن العمل الصالح؛ لأنّ لكلّ منهما سبباً يختصّ به، وليس أحدهما عين الآخر ولا كلاهما معلولاً سبب ثالث، كما أنّه ليس أحدهما معلولاً تامّاً للآخر ولا الآخر سبب تامّ له، وإن كان بينهما ربط في الجملة، حسبما يظهر بالتأمّل.

فحينئذٍ، لا مجال للتلازم الضروري بينهما، كما قال سبحانه أيضاً: ﴿الَّذِيْنَ آتيناهُمُ الكِتٰاب يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰائَهُمْ وَإِنّ فَرِيْقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰائَهُمُ الَّذِيْنَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢]؛ لدلالة ذلك علىٰ أنّ إنكار علماء أهل الكتاب من باب كتمان الحقّ المعلوم بالبديهة، كمعرفة الأب ابنه، يعني أنّ العلم برسول الله وأوصافه الخاصّة قد بلغ حدّ الحس والبداهة، ومع ذلك أنكروه وكتموا الحقّ، حتّىٰ كأن لم يعرفوه أصلاً، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [٣].

يعني أنّه لا وجه لإنكارهم بعد ما كانوا عرفوا رسولهم، فلا حجّة لهم يوم القيامة يحتجّون بها عندالله؛ لأنّ هلاكهم كان هلاكاً عن بيّنة، كما أنّ حياة العلماء الصلحاء كانت حياة عن بيّنة، حيث قال: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [٤].

---

١. البقرة، ١٤٦. ٢. الأنعام، ٢٠. ٣. المؤمنون، ٦٩.
٤. الأنفال، ٤٢.

فتحصّل، أنّ العلم الحصولي لا يلازم العمل الصالح ولا يضارّ العمل الطالح، فليس هو أفضل العلوم، بل الأفضل هو الّذي أشار إليه مولانا الرضا (عليه السلام)، وهو العلم الشهودي الّذي يلازم العمل الصالح، ولا مجال معه للعمل الطالح، وهو العلم الحضوري بالنفس الّذي هو عين العلم المرتبط بمشاهدة الربّ سبحانه بمقدار الطاقة البشريّة، ولا مجال للذنب مع مشاهدة جماله وجلاله، كما لا مجال لشهود جماله وكبريائه مع الذنب، حسبما يظهر؛ لأنّ الذنب إعراض عن ذكر الله وإخلاد إلىٰ الأرض، ولا مجال لشهود النفس، مع ذهول الربّ الّذي هو سببها المقوّم لها، إذ لا وجه لشهود المعلول مع الغفلة عن علّته.

إتّباع الهوى صادّ عن المشاهدة

ولعلّه لذا قال سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [1]، يعني أنّ اتّباع الهوىٰ صدّه عن مشاهدة جمال الحقّ والارتفاع بها، وأوجب الإعراض عن آياته. وهذا أصل قرآني لا اختصاص له بعصر دون عصر، كما في مجمع البيان عن أبي جعفر (عليهما السلام)، حيث قال: «الأصل في ذلك بلعم [2]، ضربه الله مثلاً لكل مؤثر هواه علىٰ هدى الله من أهل القبلة» [3].

والحاصل، أنّ الإيمان بالله واليوم الآخر وأنّ العمل الصالح الّذي هو عبارة عن امتثال ما جاء به الوحي، هما اللّذان عبّر عنهما بالكلم الطيّب المصاعد إلىٰ الله وبالرافع له، إنّما يتحقّقان بالعلم الشهودي بالنفس، الّذي هو شجرة طوبى تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربها، وكفى بذلك أثراً مهمّاً مترتباً عليه.

---

١. الأعراف، ١٧٦ ـ ١٧٥. ٢. ناظر إلى «بلعم باعور» من بني إسرائيل.

٣. مجمع البيان، ج ٤، ص ٧٦٩ و نورالثقلين، ج ٢، ص ١٠٢.

دوران معرفة الغيب و الشهادة مدار معرفة الله

وحيث إنّ العلم الشهودي بالنفس غير منفك عن العلم الشهودي بالله، الّذي هو القيّوم عليها وعلىٰ كلّ نفس بما كسبت وعلىٰ كلّ شيء بما له من الخواص والآثار، فيترتّب عليه ـ عدا ما تقدّم من الآثار الحسنىٰ ـ العلم الحضوري بمظاهر الأسماء الإلٰهية الّتي ملأت أركان كلّ شيء من السماوات والأرضين. وكلّما كان الروح قوياً و كان العلم الشهودي به شديداً، كان العلم الحضوري بقيّومه شديداً، و يتفرّع عليه، كون العلم بمظاهر الأسماء الحسنىٰ أيضاً شديداً وبالعكس.

فالأمر في معرفة الغيب والشهادة والاطّلاع علىٰ السرائر والضمائر والعثور علىٰ ما كان وما يكون وما هو كائن، يدور مدار معرفة الله سبحانه، الدائرة مدار معرفة النفس شهوداً، فهي الطريقة المثلىٰ والسبيل الأقوم للسائر في الصراط و الصائر إلىٰ الله سبحانه.

إذ كما أنّ شهود المسبّب المتقوّم لا يمكن الاّ بشهود السبب القيّم عليه، كذلك شهود السبب القيّوم علىٰ كلّ نفس بما كسبت، وكذا المهيمن علىٰ كلّ شيء ظهر في ساهرة الامكان لا ينفك عنه شهود معاليله ومظاهره، وكما أنّ وجود النفس العارف ذاتها ربط محض وفقر صرف، كذلك شهودها لبارئها ولآثاره الصادرة منه فاقة بحتة إلىٰ علم خالقها و فانية في علمه سبحانه بالأشياء، فلا يلزم محذور أصلاً.

علم الانسان الكامل علم امكاني

لأنّ علم الإنسان الكامل الّذي عرف نفسه بلا حجاب، وعرف ربّه بلا غطاء بالأشياء الغائبة والحاضرة، علم إمكاني وفقر محض، كأصل وجوده وكأصل علمه بنفسه وعلمه بخالقه، إذ العلم الذاتي والاصالي والمستقل لا يتصوّر

في مورد أصلاً، إلاّ لمن هو وجود محض وعلم صرف وهو الله سبحانه.

فالّـذي عرف نفسـه شهوداً تامّـاً وعرف ربّه بـالطوق البشري، فلـه أن يرىٰ الأشياء كما هي، ولو كان نيلها كما هـي ممتنعاً لما سأل رسول الله في قوله (صلى الله عليه وآله): «ربِّ أرني الأشياء كما هي» ، ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللهُ عَمَلَكُـمْ وَرَسُولُـهُ وَالمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلىٰ عـالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهٰـادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُـمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١).

الأعمال تعرض على رسول الله و الائمة

إذ المستفاد منـه، هو أنّ كلّ عمـل يعمله الإنسان في السرّ والعلـن يراه الله تحقيقاً لا تسويفاً، وهكـذا رسوله والمؤمنون الّذين أظهر مصـاديقه العترة الطاهرة، كما ورد التطبيق عليهـم منهم، حيـث قال عمـر بن أُذينـة: كنت عنـد أبي عبدالله فقلت لـه: جعلت فـداك، قول الله عزّ وجـلّ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُـوا فَسَيَرَىٰ اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ﴾ (٢) ، قال (عليه السلام): «إيّانا عنىٰ» (٣).

وقال عبدالله بن أبـان الزيّات وكان مكيناً عند مـولانا الرضا (عليه السلام) له: ادع الله لي ولأهل بيتي، فقال (عليه السلام): أولست أفعل، والله إن أعمالكـم لتعرض عليّ في كلّ يوم وليلة، قال: فاستعظمت ذلك، فقال (عليه السلام): أما تقرأ كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ﴾ (٤)، قال: هو والله عليّ بن أبي طالب (٥). وليس المراد هو الحصر في أميرالمؤمنين بل ذكره بعنوان كونه أبا الأئمة؛ فلذا قال (عليه السلام): «... إنّ أعمالكم لتعـرض عليّ»، وهذا الوجـه هو المصحّح لقول مولانا الرضا (عليه السلام) حسبما نقله الوشّاء: «إنّ الأعمال تعرض علىٰ

١،٢. التوبة، ١٠٥.
٣. بحارالانوار، ج ٢٣، باب ٢٠، ص ٣٣٩.
٤. التوبة، ١٠٥.
٥. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، باب التفسير، ص ٣٣٩، ح ٩٦.

رسول الله (صلى الله عليه وآله) أبرارها وفجّارها» [١]، وهذا المعنىٰ هو المراد بشهادة الأعمال الّتي هي من شؤون الولاية للإنسان الكامل.

وقد أفاده القرآن الكريم في مواضع، منها قوله تعالىٰ: ﴿كَلاّ إنَّ كِتٰابَ الأَبْرٰارِ لَفِي عِلِّيّينَ * وَمٰا أَدْرٰاكَ مٰا عِلِّيُّونَ * كِتٰابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [٢]، ولا اختصاص للأعمال بالظاهرة منها، بل هي الأعم منها ومن العقائد والأوصاف النفسانيّة الّتي قد أذن الله سبحانه للكرام الكاتبين، الّذين وكّلهم بحفظ ما يكون من الإنسان في الصحف النورانيّة المصونة عن المادّة ولوازمها، وتلك الصحائف محاطة بصحائف أُخرىٰ فوقها، حيث قال تعالىٰ: ﴿إنَّ كِتٰابَ الأَبْرارِ لَفِي عِلّيّينَ﴾ [٣]، ثمّ فسّر العلّيّين بأنّه كتاب مرقوم، فالكتاب في كتاب آخر فائق محيط به، يشهد ذلك الكتاب المحيط المقرّبون، فلا يشذّ عن شهودهم العلمي بصحائف الأعمال شيء، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن هذا القبيل، ما رواه مولانا الرضا (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «ما ينقلب جناح طائر في الهواء إلاّ وعندنا فيه علم» [٤]، ومنه ما كتب عبدالله بن جندب إلىٰ مولانا الرضا (عليه السلام) يسأله عن تفسير قوله تعالىٰ: ﴿اللهُ نُورُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ...﴾ [٥]، فكتب (عليه السلام) في الجواب: «أمّا بعد، فإنّ محمّداً كان أمين الله في خلقه، فلمّا قبض النبي (صلى الله عليه وآله) كنّا أهل البيت ورثته، فنحن أُمناء الله في أرضه، عندنا علم المنايا والبلايا وأنساب العرب ومولد الإسلام، وما من فئة تضلّ مائة وتهدى مائة، إلاّ

---

١. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، باب التفسير، ص ٣٣٩، ح ٩٧.

٢. المطففين، ٢١ ـ ١٨.

٣. المطففين، ١٨.

٤. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ٢٤٦، ح ٤٦٥.

٥. النور، ٣٥.

ونحن نعـرف سائقهـا وقائدهـا وناعقها، وإنّـا لنعرف الـرجل إذا رأينـاه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفـاق، وإنّ شيعتنا لمكتوبون بـأسمائهم وأسماء آبائهـم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس علىٰ ملّة الإسلام غيرنا وغيرهم إلىٰ يـوم القيامـة، نحن آخـذون بحجزة نبيّنـا، و نبيّنا آخـذ بحجزة ربّنـا، والحجزة النور، وشيعتنا آخذون بحجزتنا...» [۱].

ولعلّ هـذا النور، هـو العمود النـوري الّذي تقدّم نقلـه من مـولانا الـرضا (عليه السلام) أنّه قـال: «إنّ الله عزّ وجـلّ قد أيّدنـا بروح منه مقـدّسة مطهّـرة ليست بملك لم تكن مع أحد ممّن مضىٰ إلاّ مع رسـول الله، وهي مع الأئمة منّا تسدّدهم وتوفّقهم، وهـو عمود من نور بيننـا وبين الله عزّ وجلّ...» [۲]، ولسنا الآن بصدد علم الإمام بالغيب، إذ له مقام خاصّ ودليل مخصوص.

الآثار المترتّبة على العلم الشهودي بالنفس

والغرض هنا، الإشارة إلىٰ بعض الآثار المرتبة علىٰ العلم الشهودي بالنفس، والّذي يهمّنا، هو تبيين موقف الشهود القلبـي لدىٰ القرآن الحكيم، وبيان الطريق الهاديـة إليه، وذكـر عقباتها الكـؤودة والإشارة إلىٰ شرائط طيّهـا، وإلىٰ الموانع عـن قطعهـا، وإلىٰ ما يمكـن عـلاجاً لها، وإلىٰ الميـز بين الشهـود القلبي وبين التمثّـل الشيطاني؛ ليتبيّن ما هو المرغوب إليه عمّا هو المرغوب عنه.

الحجاب ذو مراتب حسب مراتب التوجه إلى النفس

فنقول: إنّ الله سبحانه نور لا ظلام له أصلاً، فلا حجاب عليه ولا حجاب

---

۱. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ۱، كتاب الإمامة، ص ۹۲، ح ۱۸.

۲. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ۲، كتاب الإحتجاجات، ص ۱۳۳، ح ۱۵.

له، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «... حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لاحجاب بينه وبينها غيرها...» [1]، يعني أنّه لا حجاب له تعالىٰ أصلاً، فلا ذاته حجاب لذاته ولا غيره حجاب له، فهو يشهد ذاته، كما يشهد غيره، وإنّما الحجاب بينه تعالىٰ وبين الأشياء هو نفس الأشياء.

فكما أنّ المضاف في الإضافة الإشراقيّة هو عين الإضافة لا غيرها، يعني أنّه ليس بين المضاف والمضاف إليه شيء عدا المضاف، فهكذا المحجوب في هذا الحجاب هو عين الحاجب المانع، فليس بينه وبين المحجوب عنه شيء عدا نفس المحجوب، وما دام المحجوب متوجّهاً إلىٰ نفسه، فهو في حجاب وكنان، وإذا انقطع التفاته عن نفسه وأناب إلىٰ خالقه، فلا حجاب حينئذٍ بينه وبين بارئه تعالىٰ، فيشاهده بحسب وسعه، ثمّ يشاهد بنوره الأشياء، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «... أما بلغك قول الرسول (صلى الله عليه وآله): اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله، قال: بلىٰ، قال (عليه السلام): وما من مؤمن إلاّ وله فراسة ينظر الله علىٰ قدر إيمانه ومبلغ استبصاره وعلمه» [2].

فالحجاب إنّما هو التوجّه إلىٰ النفس بالنظر الاستقلالي المعبّر عنه بالهوىٰ، لاالتوجّه إليها بما هي مرآة الحقّ، فإنّ هذا الالتفات ـ كما تقدّم ـ إنّما هو علم شهودي بالمسبّب المتقوم الّذي يمتنع انفكاكه عن شهود السبب المقوم، إذ المرآة بما هي مرآة لا تحكي إلاّ الصورة المرئيّة فيها ولا تهدي إلاّ إليها، فكلّما كان التوجّه الّذي فيه هوىٰ النفس قويّاً، كان الحجاب غليظاً، وكلّما كان ضعيفاً كان رقيقاً.

وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار مولانا الرضا في جواب الرجل الّذي سأله بقوله: «فلِمَ احتجب ـ أي الله سبحانه ـ ؟ قال (عليه السلام): إنّ الاحتجاب عن الخلق لكثرة

---

١. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ١٢٣، ح ١١.

٢. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ١٣٣، ح ١٥.

ذنوبهم، فأمّا هو فلا يخفىٰ عليه خافية في آناء اللّيل والنّهار، قال السائل: فلِمَ لاتدركه حاسّة البصر؟ قال: للفرق بينه وبين خلقه الّذين تدركهم حاسّة الأبصار منهم ومن غيرهم، ثمّ هو أجلّ من أن يدركه بصرٌ أو يحيط به وهم أو يضبطه عقل...»[١]، فلا حجاب إلاّ الذنب، فالمذنب هو المحجوب ما دام مذنبا، فمن أذنب واحتجب بذنبه ومات بلا انابة خارقة لحجاب الذنب فهو في كنان العصيان وحجاب الطغيان، كما قال سبحانه: ﴿كَلاّ بَلْ رانَ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ * كَلاّ إنّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمّ إنّهُمْ لَصالُوا الجَحِيْمِ﴾[٢].

الحجاب المستور هو هبوط القلوب

وحيث إنّ الذنب الّذي اجترحوه صار بعينه ريناً علىٰ قلوبهم، ولا ميز بين الذنب المكتسب وبين المذنب إلاّ في المفهوم، إذ العمل القلبي قد صار بالملكة عين العامل، يظهر أنّ مراد قوله تعالىٰ: ﴿وَإذا قَرأتَ القُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الّذِيْنَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً﴾[٣]، ليس هو الحجاب الخارجي المنفصل عن قلوب هؤلاء الكفّار المسدول عليهم، بل المراد هو هبوط قلوبهم ودفن نفوسهم في قبور سيّئاتهم المكتسبة، الّتي صارت طبعاً لها وريناً عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنا عَلىٰ قُلُوبِهِم أكِنّةً أنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وإذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلىٰ أدْبارِهِمْ نُفُوراً...﴾[٤].

وحيث إنّ الذنب حجاب والمذنب محجوب عن الحقّ، قال سبحانه: ﴿وَإنْ تَدْعُوهُمْ إلىٰ الهُدىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾[٥]، يعني أنّهم أهل الحس والنظر لا أهل الشهود والبصر.

---

١. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التوحيد، ص ٢٧، ح ٢٧.
٢. المطففين، ١٦ ـ ١٤.
٣. الإسراء، ٤٥.
٤. الإسراء، ٤٦.
٥. الأعراف، ١٩٨.

ويؤيّد ما أنتجه التدبّر في القرآن، من أنّ العمل السيّئ حاجب، قول مولانا السجّاد الّذي هو من المستنطقين للقرآن، حيث قال (عليه السلام): «... وأنّ الراحل إليك قريب المسافة، وأنّك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك...»[١]، وهكذا قول مولانا الكاظم (عليه السلام) في دعائه يوم السابع والعشرين من رجب، حين انطلقوا به نحو بغداد: «وإنّك لا تحتجب عن خلقك... وقد علمت أنّ أفضل زاد الراحل إليك عزم إرادة يختارك بها وقد ناجاك بعزم الإرادة قلبي»[٢].

الرحلة إلى الله سهلة المنال

فتحصّل، أنّ الرحلة إلىٰ الله سهلة المنال وقريبة المسافة، لمن كان له زاد العزم وقوت الإرادة ومطيّة التقوىٰ وراحلة الطهارة عن أيّ ذنب، ولكن عسرة المنال بعيدة المسافة، لمن احتجب بالذنب واستتر بالعصيان ﴿أُولٰئِكَ يُنٰادَوْنَ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ﴾[٣]، ﴿كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ﴾[٤]، وإنّ الحجاب منحصر في الذنب، فما لا ذنب هناك فلا كنان، وما كان الذنب حقيراً و لمّا كان الحجاب رقيقاً، وإنّ الطهارة من الذنب من أهمّ شرائط الشهود القلبي، كما هو المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقٰاناً...﴾[٥].

المراد من الهداية

إذ المراد من هذا الفرقان، هو النور الخاصّ الّذي به ينكشف الحقّ ويزاح الباطل، لا الفرقان العام المعبّر عنه بالهداية العامّة الّتي يستوي فيها المتّقون

---

١. دعاء أبوحمزة الثمالي.
٢. مفاتيح الجنان، ص ١٥٣.
٣. فصّلت، ٤٤.
٤. غافر، ٣٥.
٥. الأنفال، ٢٩.

والفجّار؛ لأنّ الله سبحانه أنـزل القرآن هدىً للناس بلاميز فيـه بين أهل التقوىٰ و أهل الفجـور، وكذا هو المستفاد مـن قوله تعـالىٰ: ﴿وَمَنْ يُؤمِنْ بـالله يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيْمٌ﴾ [١]، ومن قـوله تعالىٰ: ﴿وَإنْ تُطِيْعُـوه تَهْتَدُوا...﴾ [٢]، حيث إنّ المراد من الهداية في هذه الآيات وما يضاهيها ممّا اشترط فيها الإيمان والإطاعة، هي الهداية الخاصّـة المعبّر عنها بـالإيصال إلىٰ المطلـوب، الّذي هـو لقاء الله وشهـود أسمائه الحسنىٰ وأمثاله العليا.

لزوم فهم الأسرار للمؤمن

لما ثبت أن لا حجاب هناك إلّا الذنب المفـروض انتفائه بالتقوىٰ والطاعة، فينبغـي للمؤمـن أن يفهم هـذه الأسرار ويصير ممن يحدّثـه الله وملائكتـه، حسبما يستفاد من قول مـولانا الرضا (عليه السلام): «إنّي أُحبّ أن يكـون المؤمن محدَّثـاً قال: قلت: وأيّ شيء المحدَّث، قال: المفهّم» [٣]؛ لأنّ الله وملائكته، إنّما يعلّمون المؤمن ويفهّمـونه مـا لا يعلمون غيره، حيـث قال سبحـانه: ﴿هُـوَ الَّذي يُصَلّي عَلَيْكُـمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلىٰ النّورِ وَكانَ بِالمُؤْمِنِيْنَ رَحِيْماً﴾ [٤]؛ لظهوره في اختصاص تصلية الله وملائكته بمن آمن وأطاع وأتقىٰ وصدق بالحسنىٰ.

وهذه التصلية، هـي الرحمة الخاصّة المسهّلة للسير إلىٰ الله، ولما كـان الراحل إليه تعـالىٰ قريب المسـافة، وتوقّف تسهيـل السبيل إليه علىٰ الايثـار والاتقاء وعلىٰ الإيمان بالعاقبة المحمودة لمن آمن واتّقىٰ، قال سبحـانه هادياً إلىٰ ذلك: ﴿فَأَمّا مَنْ أعْطَىٰ وَاتّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالحُسْنىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسْرىٰ﴾ [٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَهْدِي بِهِ الله

---

١. التغابن، ١١. ٢. النور، ٥٤.
٣. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإيمان و الكفر، ص ٢٦٠، ح ١٥.
٤. الأحزاب، ٤٣. ٥. الليل، ٧ ـ ٦.

مَنْ اتَّبع رِضْوانَهُ سُبل السّلام وَيُخرِجُهُمْ مِنْ الظّلماتِ إلىٰ النّور بإذْنِهِ وَيَهْدِيْهِم إلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيْم﴾ [١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالّذيْنَ جاهَدُوا فِيْنا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنا وإنّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنين﴾ [٢].

تحقق الهداية بشرح الصدر

وقد بيّن سبحانه، أنّ هذه الهداية الخاصة إنّما تتحقق بشرح الصدر وتوسعته في قبال ضيق الصدر وتعميته، حيث قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهِ يَشْرَح صَدْرَهُ للإسْلام وَمَنْ يُرِد أنْ يُضِلَّهُ يجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ في السّماء كَذٰلِكَ يَجْعَلُ الله الرِّجْسَ عَلىٰ الّذيْنَ لا يُؤمِنُونَ﴾ [٣]، والصدر المشروح هو الصدر البصير، كما أنّ الصدر الضيّق هو الصدر الأعمىٰ عن الحقائق، فمن أراد الله أن يشرح صدره، يقول له: كن مشروحاً، فيكون كذلك. إذ لا رادّ لإرادته، كما لا مجال لصيرورة الصدر بصيراً وشاهداً بالفعل، ولا يكون هناك أمر موجود مشهود للصدر المشروح، وان لا يراه الصدر الضيّق الأعمىٰ.

وهذا الشرح هو نور خاص إلٰهي، به ينظر المؤمن إلىٰ العالم من غيبه وشهادته، كما رُوي عن مولانا الرضا (عليه السلام) عن آبائه عن عليّ (عليه السلام) عن النبيّ(صلى الله عليه وآله) أنّه قال: «المؤمن ينظر بنور الله» [٤]، ولعلّ هذا المؤمن المشروح الصدر بالهداية الموصلة إلىٰ المقصد، أكرم علىٰ الله سبحانه من ملك مقرّب، كما روىٰ مولانا الرضا (عليه السلام) عن آبائه عن عليّ (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إنّ المؤمن يعرف في السماء، كما يعرف أهله وولده، وإنّه لأكرم علىٰ الله من ملك مقرّب» [٥].

---

١. المائدة، ١٦. ٢. العنكبوت، ٦٩. ٣. الأنعام، ١٢٥.

٤. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإيمان و الكفر، ص ٢٦١، ح ٢٠.

٥. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإيمان و الكفر، ص ٢٦٠، ح ١٧.

فإذا شرح الله صدر المؤمن، السالك إلىٰ الله بقدمي الإيمان والعمل الصالح وأراه من آياته وعلّمه من لدنه علماً خاصّاً لا يتعدّاه العمل ولا يتبدّل بالجهل ولا يغشاه النسيان ولا يغطّيه السهو ولا يداخله الوهم ولايتطرّق إليه الخيال، تنفجر الحكمة من قلبه علىٰ لسانه، كما روي عن مولانا الرضا (عليه السلام) عن آبائه عن عليّ، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «ما أخلص عبد لله عزّ وجلّ أربعين صباحاً إلاّ جرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه» [١]، ولا خصّيصة للّسان، بل المراد هو انفجار ينابيع الحكمة الّتي هي خير كثير من جميع شؤون حياته الطيّبة، سواء في ذلك اللسان وغيره؛ لأنّ جميع القوىٰ المدركة والمحرّكة مجاري فيض القلب وتابعة له في الكمال والنقص. فإذا صلح صلحت، وإذا فسد فسدت، ولاتأتمر إلاّ بأمره ولا تنتهي إلاّ بنهيه؛ لأنّه إمام لها أخذاً وتركاً وهي أمّته كذلك، ولا مجال لاستقلالها وغنائها عنه، كما لا مجال لافتقارها إلىٰ غيره.

لسان العاقل وراء قلبه

وما ورد ـ من أنّ «لسان المؤمن وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه» [٢] ـ ليس هو، بأنّ لسان العاقل فقط تابع لقلبه وأمّا لسان المنافق فليس تابعاً له، بل قلبه مطيع له متأخر عنه ومؤتمّ به إئتمام المأموم بإمامه، بل المراد هو أنّ قلب المنافق ـ لكونه أعمىٰ عن الحقائق ـ لايبصر إلاّ هواه ولا يرىٰ إلاّ زهرة الحياة الدّنيا ولا يأمر إلاّ بالمنكر ولا ينهىٰ إلاّ عن المعروف، كما قال سبحانه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٣]، غافلاً عن خاتمة الأمر

---

١. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإيمان و الكفر، ص ٢٩٠، ح ١٤٣.

٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٦، ح ١ و فصل ٦١، ح ٦٣.

٣. التوبة، ٦٧.

بالمنكر، وذاهلاً عن عاقبة النهي عن المعروف، وجاهلاً عن ثمرة قبض اليد عن التعاون علىٰ البرّ والتقوىٰ، وعامِهاً عن نتيجة نسيان الله سبحانه، ثمّ إنّه يبدو له بعد ذلك سوء ما كسب وقبح ما اجترح، فيدرك حينئذٍ، أنّه بئس ما صنع وحاق به ما كان يكتسب.

رأس الحكمة مخافة الله

فعلىٰ أيّ تقديرٍ، يكون اللّسان مطلقاً وراء القلب ومؤتمّاً به، كما أنّ سائر الأعضاء أيضاً كذلك، وهذا العبد المخلص لله الّذي أُوتي الحكمة الّتي رأسها مخافة الله، هو الّذي أحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في النّاس، فيكون صراط مشيه في ارتباطه مع الله ومع نفسه ومع النّاس لله وفي سبيل الله وعلىٰ ما يرضاه الله ويرضاه الرّسول، فتتفجّر ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ بنانه، كما تتفجّر منه علىٰ بيانه وتنفجر من قلبه علىٰ سمعه وبصره، كما تنفجر منه علىٰ لسانه وتنبع منه علىٰ سكوته، كما تنبع منه علىٰ كلامه؛ لأنّه يسكت عن الباطل وإمضائه، كما ينطق بالحقّ ويمضيه وتجري منه علىٰ قعوده، كما تجري منه علىٰ قيامه وتنفجر منه علىٰ صلحه وسلمه، كما تنفجر منه علىٰ حربه وجهاده؛ لأنّه وجّه وجهه للّذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، إنّ صلاته ونسكه و محياه ومماته لله ربّ العالمين لا شريك له، وبذلك أُمِرَ أن يكون من المسلمين؛ ولأنّه يدور مع الحقّ، حيثما دار.

ولعلّه من هذا الباب، أنّه يصلّي ويسلّم علىٰ الإمام المعصوم (عليه السلام) في جميع شؤونه، كما في زيارة آل ياسين: «السلام عليك يا تالي كتاب الله وترجمانه، السلام عليك في آناء ليلك وأطراف نهارك... السلام عليك حين تقوم، السلام عليك حين تقعد، السلام عليك حين تقرأ وتُبيِّن، السلام عليك حين تصلّي

وتقنت، السلام عليك حين تركع وتسجد، السلام عليك حين تهلّل وتكبّر، السلام عليك حين تحمد وتستغفر، السلام عليك حين تصبح وتمسي، السلام عليك في الليل إذا يغشىٰ والنهار إذا تجلى...» [١].

ذكر الله و آثاره

والغرض، هو أنّ الإخلاص موجب لتنوّر القلب الحاكم علىٰ القوىٰ والأدوات، فكلّما قوي الإخلاص، تقوّى نور القلب حتّى ينتهي إلىٰ سدرة منتهاه، وهو الإخلاص المحض الّذي للإنسان الكامل المعصوم (عليه السلام)، وكلّما ضعف الإخلاص يضعف نور القلب.

وإذا ضرب عصا الإخلاص علىٰ القلب الخاص المستعد، انبجست منه العيون الخرّارة العلميّة والعمليّة علىٰ القوىٰ العلاّمة والعمّالة الصافية عن أيّة كدورة؛ لأنّ التكدّر من الشيطان الغوي المغوي، فإذا تذكّر العبد وأخلص في ذكراه وذكر الله في نفسه تضرّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولم يكن من الغافلين، ذكره الله تعالىٰ كما وعده في قوله تعالىٰ: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [٢]، فإذا ذكره الله سبحانه لا يقترنه الشيطان؛ لأنّه لا يهجم على الإنسان إلاّ عند الغفلة عن ذكر الله ولا يدهم إلاّ لدىٰ النسيان عن ذكره ونبذ كتابه وراء ظهره؛ لأنّه كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُه مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ [٣]، إنّما يرىٰ الغافل ويهجم عليه ويغويه عن سبيل الله.

المؤمن في حصن الله

وأمّا المؤمن المتذكّر، فهو يراه ويشاهد هجومه وينظر إضلاله و إغواءه،

---

١. مفاتيح الجنان، ص ١٥٣. ٢. البقرة، ١٥٢. ٣. الأعراف، ٢٧.

فيستعيذ بالمعاذ ويلتجأ بالملجأ وهو الله سبحانه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذٰا مَسَّهُمْ طٰائِفٌ مِنَ الشَّيْطٰان تَذَكَّرُوا فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (١)، وقال تعالىٰ: ﴿وإمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطٰان نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بالله إِنَّهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ﴾ (٢)، وقال تعالىٰ: ﴿... وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُوْنِهِ مُلْتَحداً﴾ (٣). فإذا أبصر وتذكّر واستعاذ بالله الّذي لاملتحد ولا ملجأ دونه، ينصره الله ويحفظه ويتفضّل عليه ولا رادّ لفضله ولا كاشف لضرّه، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ يُمْسِسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاٰ كٰاشِفَ لَهُ إلاّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاٰ رٰادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيْبُ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيْم﴾ (٤).

والحاصل، أنّ المؤمن المتذكّر في حصن الله، فلا ينفذ إليه الشيطان؛ لأنّه لايستطيع أن يظهر عليه ولا يستطيع له نقباً، حيث إنّ الشيطان مرجوم من الحصن ومبعد عن السدّ الّذي بناه الله سبحانه من قدرته، فإذا لم يكن للشيطان عليه سبيل ولا لقبيله إليه طريق ولا لخيله ورجله إليه مسير ولا لجنوده إليه مسلك أصلاً، يكون جميع ما يشاهده بالقلب ويسمع بالصدر ويرىٰ بالبصيرة حقّاً، ويكون جميع ما يتمثّل له في المنام أو اليقظة ربانياً أو ملكياً لا نفسانيّاً ولا شيطانيّاً.

إذ المفروض، أنّه قد أفلح بتزكية نفسه وذكر ربّه ونجا عن الخيبة بتدسيتها وراض نفسه بالتقوىٰ وهذّبها بالطاعة وحذّرها عن الطغوىٰ، فعرف جميع حبائل النفس الأمّارة بالسوء أو المسوّلة، وكذا عرف جميع مصائد الشيطان وقبيله واتّقىٰ من ذلك كلّه، فلا بضاعة للشيطان ولا سلاح له حتّىٰ يداخل به في شهوده، كما لم يكن له ذلك بالنسبة إلىٰ فكره الذهني وعلمه الحصولي، وإلىٰ ذلك يشير قوله تعالىٰ: ﴿كَلاّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِيْن لَتَرَوُنَّ الجَحِيْم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهٰا عَيْنَ

---

١. الأعراف، ٢٠١. ٢. الأعراف، ٢٠٠. ٣. الكهف، ٢٧.
٤. يونس، ١٠٧.

الْيَقِيْنِ...﴾ [١]، ولا اختصاص بذلك لـروية الجحيم، إذ المؤمن المتّقي الّذي جعل الله لـه نوراً، كما يرىٰ النّار ويسمع عواء أهلها، كذلك يرىٰ الجنّة ودعوىٰ أهلها و هو التسبيح والحمد، وتحيّة أهلها وهو السلام.

المؤثر في طباع أكثر الناس هو الانذار

والسرّ في ذكر الجحيم، هو أنّ الغالب علىٰ النّاس هو الخوف من النّار، وأنّ المؤثّر في طباع أكثرهم هو الإنذار، لا التبشير؛ ولذلك ترىٰ القرآن الحكيم، إنّه يحصر شأن الرسول فيه، مع أنه كان مبشّراً، كما كان منذراً: ﴿قُلْ يا أيُّها النّاسُ إنَّما أنا لَكُمْ نَذِيْرٌ مُبِين﴾ [٢].

فمن أخلص لله يشاهد الحقّ شهوداً لا يشوبه الباطل، ويرىٰ الأسماء الحسنىٰ ومظاهرها من الرضا والرحمة ومظهرها وهي الجنة، ومن السخط والغضب ومظهره وهي النّار، ومن القبض والبسط ومظاهرهما، ومن الإضلال والهداية ومراياهما، وهكذا.

القيامة و مشاهدها موجودة بالفعل

والسرّ في ذلك كلّه، هو ما تقدّم من أنّ الله سبحانه نور لا حجاب لـه أصلاً، وكذا أسماؤه الحسنىٰ لا كنان لها ولا غطاء عليها، إنّما الغطاء هو المسدول علىٰ أعين الكفّار والمنافقين بالذنب، ويفصح عنه قوله تعالىٰ: ﴿وَعَرَضْنا جَهَنَّم يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِيْنَ عَرضاً * الَّذِيْنَ كانَتْ أعْيُنُهمْ في غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لايَسْتَطِيْعُونَ سَمْعاً﴾ [٣]؛ لظهوره في أنّ أعين الكفّار في غطاء عن ذكر الله، لاأنّ ذكر الله في غطاء، فالقصور إنّما هو في أعينهم لا في ذكره تعالىٰ، وهكذا

---

١. التكاثر، ٧ ـ ٦.　٢. الحج، ٤٩.　٣. الكهف، ١٠١ ـ ١٠٠.

قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطائَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيْد﴾ [١]؛ لدلالته علىٰ أنّ القيامة ومشاهدها موجودة بالفعل، وأنّها مصونة عن الغطاء، وأنّ الغطاء إنّما هو مسدول علىٰ بصر الكافر، وأنّه سيكشف يوم القيامة فيصير حديداً ذا حدّة نافذة، يرىٰ مظاهر الغضب ويسمع مشاهد السخط، مع كونه أعمىٰ عن مظاهر الرحمة ومشاهد الرضاء.

بيان ذلك: أنّ الذنب رَين ينطبع به القلب، فيصير محجوباً عن رؤية آيات الله في الأنفس والآفاق، فيصير أعمىٰ، كما قال مولىٰ العارفين سيّدالشهداء الحسين بن عليّ (عليهما السلام): «... عميت عين لا تراك عليها رقيباً» [٢]، فلا يرىٰ شيئاً من أسمائه الحسنىٰ الجمالية ولا الجلالية، فإذا مات وانتقل إلىٰ دار تبلىٰ فيها السرائر وكانت سريرته أعمىٰ، يظهر باطنه ويحشر يومئذٍ أعمىٰ، كما قال سبحانة: ﴿... وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيْمَةِ أعْمىٰ﴾ [٣]، يعني أعمىٰ عن الحقّ وجماله ورحمته الخاصّة، فلذا قال تعالىٰ: ﴿إنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [٤].

الاعمال قلائد في الاعناق

وحيث إنّ الأعمال تصير قلائد في الأعناق وسلاسل في الأرجل، وأنّ الأشخاص الظالمين يصيرون حطباً للنار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمّا القاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [٥]، وأنّهم وقود النار؛ فلذا يرون أنفسهم، أنّهم يسجرون في النّار ويقولون حينئذٍ: ﴿رَبَّنا أَبصرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً﴾ [٦]، فهم مع كونهم

١. ق، ٢٢.
٢. مفاتيح الجنان، دعاء الامام الحسين «ع» في يوم عرفه، ص ٢٧٢.
٣. طه، ١٢٤.
٤. المطففين، ١٥.
٥. الجنّ، ١٥.
٦. السجدة، ١٢.

عمياً عن شهود الجمال والرحمة، يكونون مبصرين للنّار ولهيبها، وهم مع كونهم صمّاً عن سماع كلام الحقّ، يكونون سامعين تغيّظ النار وزفيرها، كما قال تعالىٰ: ﴿إذٰا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهٰا تَغَيُّظاً وَزَفِيْراً﴾ [١]، وقال تعالىٰ: ﴿إذٰا اُلْقُوا فِيهٰا سَمِعُوا لَهٰا شَهِيْقاً وَهي تَفُور﴾ [٢]؛ لأنّهم كانوا في الدّنيا يستمعون هتاف الشيطان فقط، وما كانوا يستطيعون سمع الحقّ وما كانوا يبصرونه، فتظهر هذه الحالة لهم يوم القيامة، فلا يرون جمال الرحمة ولا يسمعون كلام الله.

إذ لا يكلّمهم الله يوم القيامة تكليم عناية وتشريف، ولا ينظر إليهم نظر رأفة ورحمة؛ لأنّ الله حرّم الكلام والنظر الخاصّين علىٰ الكفّار العمى عن الحقّ والصم عنه، كما حرّم الماء وغيره من أرزاق الجنّة عليهم، كما قال سبحانه: ﴿وَنٰادَىٰ أصحابُ النّارِ أَصْحٰابَ الجَنَّةِ أنْ أفِيْضُوا عَلَيْنٰا مِنَ الْمٰاءِ أو مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ قٰالُوا إنّ اللهَ حَرَّمَهُمٰا عَلىٰ الكٰافِرِيْنَ﴾ [٣]، والمراد من التحريم هنا، هو المنع التكويني لا النهي التشريعي إذ لا تشريع في دار الجزاء ونشأة الحساب.

يوم القيامة يوم ظهور الملكات و الاخلاق

وبهذا التحليل، يظهر أنّه لا تنافي بين ما يدلّ علىٰ أنّ هؤلاء الطغاة اللئام يحشرون يوم القيامة عمياً صمّاً، وبين ما يدلّ علىٰ أنّهم يرون النّار ويسمعون لها شهيقاً وهي تفور؛ لما مرّ من أن يوم القيامة هو يوم ظهور الملكات والأخلاق، وقد كانوا في الدّنيا بالقياس إلىٰ الحقّ عمياً صمّاً، وبالقياس إلىٰ الباطل مبصرين و مستمعين، فتبلىٰ هذه السريرة الخاصّة لهم ذلك اليوم وقد كانوا في الدّنيا، كما قال الله ﴿وَإنْ يَرَوا كُلّ آيةٍ لاٰ يُؤْمِنُوا بِهٰا وَإنْ يَرُوا سَبِيْلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً

١. الفرقان، ١٢. ٢. الملك، ٧. ٣. الأعراف، ٥٠.

وَإِنْ يَرَوا سَبِيْلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيْلاً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِيْنَ﴾ (١)، ﴿وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوا بآيـاتنا وَلِقَاءَ الآخِرَةِ حَبَطَتْ أعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إلاّ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

ولا غرو في هـذا التفكيك في العلم الشهودي، بأن يشاهد الإنسان شيئاً ولا يشاهد شيئاً آخر، ويسمع صوتاً ولا يسمع صوتاً آخر، وهكذا، كما لا عجب في ذلك بالنسبة إلىٰ العلم الحصولي، بأن يفهم الإنسان شيئاً ولا يفهم شيئاً آخر مقابلاً له، مثلاً إنّ الّذي استقرّ في قلبه بعض المباني المادّية، فهو لا يفهم إلاّ ما له مساس بالمادّة، وأمّا ما هو خارج عنها فلا يفهم منه شيئاً، بل يراه أُسطورة لا واقعيّة لها، كما حكاه الله عنهم في قوله تعالىٰ: ﴿قٰالُوا يٰا شُعَيْب مٰا نَفْقَهُ كَثيْراً مِمّا تَقُول...﴾ (٣)، وفي قوله تعالىٰ: ﴿... لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَلَهُمْ أعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهٰا وَلَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِكَ كٰالأنْعٰام بَلْ هُمْ أضَلُّ أُولٰئِكَ هُمْ الْغٰافِلُونَ﴾ (٤)، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ حَتّىٰ إذٰا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قٰالُوا لِلّذِيْنَ أُوتُوا العِلْمَ مٰاذا قٰالَ آنِفاً أُولٰئِكَ الّذِيْنَ طَبَعَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أهْوٰاءَهُمْ﴾ (٥)، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتنا قٰالُوا قَدْ سَمِعْنٰا لَوْ نَشٰاءُ لَقُلْنٰا مِثْلَ هٰذا إنْ هٰـذا إلاّ أساطيرُ الأوّلِيْنَ﴾ (٦)، إلىٰ غير ذلك من الآيات الحاكية عدم فقههم ما هو خارج عن نطاق الحس وفائق علىٰ حوزة المادّة، وإن كانوا يدركون المحسوسات وما لها من الآثار المادّية الداثرة، وكذا يدركون المعاني الخيالية التي لاواقعيّة لها في الخارج، من التشبيهات و الاستعارات و الكنايات الشعريّة الّتي أعذبها أكذبها.

---

١. الأعراف، ١٤٦.
٢. الأعراف، ١٤٧.
٣. هود، ٩١.
٤. الأعراف، ١٧٩.
٥. محمد، ١٦.
٦. الأنفال، ٣١.

بعض الناس مختال

وهؤلاء نوع من النّاس قد عبرّ القرآن الحكيم عن مثل هذا النوع بالمختال، أي الّذي يحوم حوم الخيال ولا يدور مدار العقل الّذي هو الحقّ، حيث قال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١)، فهؤلاء يدركون الأوهام المنسوجة بأيدي الوهم والخيال، ولا يدركون الحقائق الّتي صنعها الله الّذي بيده ملكوت كلّ شيء، فإن حكم في مورد بأنّهم لا يفقهون شيئاً.

فالمراد من العموم المستفاد من وقوع النكرة في سياق النفي، هو الشيء المعقول، لا الأعمّ منه ومن الموهوم والمتخيّل؛ فبذلك يتّضح ما هو المقصود من قوله تعالىٰ: ﴿فَمَالِ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيْثاً﴾ (٢)، إذ المراد من الحديث الّذي لا يفقهه هؤلاء، هو الحديث العقلي الّذي أسّس بنيانه علىٰ البرهان اليقينيّ، لا الأعم منه ومن المبني علىٰ شفا جرف الوهم والخيال.

الآخرة باطن الدنيا

ومن هذا القبيل، قوله تعالىٰ: ﴿هُمُ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا علىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتّىٰ يَنْفَضُّوا وَللهِ خَزَائِنُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٣)، إذ هؤلاء وإن بلغوا من الدهاء والنكراء حدّاً ﴿إذا قيل لهم آمنوا كما آمن النّاس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ (٤)، حيث إنّهم يحسبون أنفسهم عقلاء، ويزعمون أنّ المؤمنين بالله واليوم الآخر هم السفهاء، ولكنّهم لا يفقهون الحقائق الغيبيّة، ولا يدركون ما هو خارج عن مصاف الحسّ

---

١. لقمان، ١٨.　٢. النساء، ٧٨.　٣. المنافقون، ٧.

٤. البقرة، ١٣.

ومنال الخيال ومدهم الوهم.

والحاصل، كما أنّ التفكيك في العلم الحصولي ممكن، بل واقع، كذلك التفكيك في العلم الشهودي جائز، بل واقع ضروري؛ لأنّه عبارة عن ظهور سريرة التفكيك الحصولي الّذي كان في الدّنيا محقّقاً؛ لأنّ هذه الدار الداثرة دار عمل ولا حساب، والدار الآخرة الّتي هي الحيوان دار جزاء وحساب ولا عمل فيها. فجيمع ما كان الإنسان قد اجترحه في الدّنيا يظهر في الآخرة، ولا يمكن هنالك كسب شيء لم يجرحه، فإذا كان باطن الإنسان في الدّنيا أعمىٰ عن الحقّ وبصيراً بالباطل، يظهر هذا الباطن يوم القيامة، ويظهر الحقّ الّذي كان مرغوباً عنه له، بصورة الجنّة الّتي تجري من تحتها الأنهار أو أعلىٰ منها، كجنّة اللّقاء ويظهر الباطل الّذي كان مرغوباً فيه، له بصورة النّار الّتي تطّلع علىٰ الأفئدة أو أدنىٰ منها، كالنار الجسمانيّة الّتي تحرق الجلود الّتي كلّما نضجت بدّلت جلوداً غيرها؛ ليذوق صاحبها العذاب.

وهذا هو المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أعْمىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [١]، إذ ليس المراد من العمىٰ هنا هو العمى الحسّي؛ لأنّ الّذي لا يغضّ بصره عن المحارم ولا يتحرّز عن خائنة العين فهو بصير، لا أعمىٰ، بل المراد منه هو العمىٰ العقلي؛ لأنّ الّذي لا يفقه أنّ ﴿لله خزائن السماوات والأرض﴾ [٢]، ولا يفهم ﴿أنّ بيده ملكوت كلّ شيء﴾ [٣]، وأنّ ﴿الله يحيي ويُميت﴾ [٤]، وأنّه تعالىٰ ﴿يأتي بالشّمس من المشرق﴾ [٥]، وأنّه ﴿فالق الحبّ والنوىٰ﴾ [٦]، وأنّه يعزّ ويذلّ، وأنّه يقبض ويبسط، وأنّه ﴿خالقُ كلّ شيء وهوعلىٰ كلّ شيء وكيل﴾ [٧]، فهو أعمىٰ عن الحقائق وإن كان بصيراً بالمحسوسات.

---

١. الإسراء، ٧٢. ٢. المنافقون، ٧. ٣. المؤمنون، ٨٨ ـ يس، ٨٣.
٤. آل عمران، ١٥٦. ٥. البقرة، ٢٥٦. ٦. الأنعام، ٩٥. ٧. الزمر، ٦٢.

وحيث إنّ الآخرة باطن الدّنيا وأنّ باطن كلّ إنسان فهو يظهر هناك، فمن كان باطنه أعمىٰ في الدّنيا يظهر عماه في الآخرة، كما تقدّم عن مولانا الرضا (عليه السلام) في قوله: «... ولكن القوم تاهوا وعموا وصمّوا عن الحقّ من حيث لايعلمون، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمىٰ وَأَضَلُّ سَبِيْلاً﴾ [١]، يعني أعمى عن الحقائق» [٢].

الفرق بين الرسالة و الولاية

ثمّ إنّه قد تقدّم، أنّ الحقّ سبحانه نور لا حجاب له ذاتاً ولايعتريه الخافية عرضاً، وأنّ النفس الإنسانية موجود مجرّد لا حجاب له بالذات، وإن يطرأ عليه الغطاء بالعرض، و أنّ شهود النفس متقوّم بشهود الحق سبحانه، كما أنّ وجودها متقوّم بوجوده تعالىٰ، وأنّ شهود الحقّ موجب لشهود أسمائه الحسنىٰ ومظاهره العليا، وأنّ الحاجب عن الشهود ـ لكونه عرضيّاً ـ يزول لامحالة، وهو يوم ظهور الحقّ ظهوراً تامّاً، لا يبقىٰ معه مجال للريب وموقع للحجاب، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيْهِمُ اللهُ دِيْنَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِيْنُ﴾ [٣]، وأنّ شهود الحقائق الخارجية ميسور للإنسان، الّذي يشاهد نفسه ولا يغفل عنها بلا اختصاص لذلك بالأنبياء.

إذ النبوّة، وإن كانت موهبة خاصّة لا تنال غيرهم، والرّسالة وإن كانت عطيّة مخصوصة لاتنال سائر الناس، حيث إنّ ذلك عهدٌ إلٰهي، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، كما أنّها أيضاً محدودة زماناً ومنقطعة أمداً مع بقاء شريعة الخاتم (صلى الله عليه وآله)، إلاّ أنّ الولاية موهبة عامّة لا انقطاع لأمدها ولا نهاية

---

١. الإسراء، ٧٢.

٢. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ٩٠، ح ٣.

٣. النور، ٢٥.

لعددها؛ لأنّ الله سبحانه هو الولي، ولهذا الإسم مظهر في كلّ جيل وكلّ عصر ومصر، وأنّ الطريقة المثلىٰ الّتي هي أقوم، هي معرفة النّفس شهوداً، وأنّ الّذي يبغيها عوجاً يتيه في الأرض، وأنّ الّذي يسلكها بلا اعوجاج لا يضلّ ولا يغوى، وأنّ الحجاب المانع عن شهود النّفس المستلزم لشهود الربّ، هو الذنب لا غير.

حبّ الدنيا حجاب عن ذكرالله

وقد وعدنا بيان ما هو الحجاب الأصيل، وبيان ما هو الفلاح عن ذلك الحجاب، فلزم انجاز ذلك الوعد.

فنقول: إنّ حبّ الدّنيا الّذي هو رأس كلّ خطيئة، هو الحجاب عن ذكر الله والغطاء عن معرفة النّفس وشهودها، بحيث لا يجتمع حبّها مع ذكر الله، وكذا مع معرفة الله، حيث قال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيْلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدىٰ﴾ [١]؛ لدلالته علىٰ أنّ إرادة زهرة الحياة الدّنيا حاجبة عن ذكر الله، فالدّنيا مصداق للذهول و طالبها ذاهل ليس بذاكر، و إرادتها مساوقة للذهول عن ذكرالله، فكلّ من أرادها فقد ذهل عن الله ونسيه، وكلّ من نسي الله أنساه الله نفسه، كما قال سبحانه: ﴿... نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ [٢].

فكلّ من أراد الحياة الدّنيا فقد ذهل عن نفسه ونسيها، وهكذا كلّ من نسي الله ينساه الله ـ سبحانه عن الذهول والسهو ـ كما قال: ﴿... نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنّ الْمُنَافِقِيْنَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٣]، وحيث إنّ النسيان لا يتطرّق إلىٰ من لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، كما قال سبحانه: ﴿... وَمَا كَانَ

١. النجم، ٣٠ ـ ٢٩. ٢. الحشر، ١٩. ٣. التوبة، ٦٧.

رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[1]، فلابدّ من أن ينتزع النسيان المنسوب إليه تعالىٰ من مقام الفعل، لا الذّات ولا الوصف الذّاتي.

النسيان أمر عدمي

ولما كان النسيان أمراً عدمياً، فمنشأه أمر عدميّ لا محالة، إذ لا ينتزع الأمر العدميّ من متن الأمر الوجودي بما أنّه وجودي، بل إن كان ولابدّ فمن حيثيّة عدميّة وهو إمساك الفيض الخاص وعدم إرساله، حسبما تقدّم، فإذا أمسك الله فيضه الخاصّ ولم يرسله إلىٰ من أعرض عن ذكره وأراد الحياة الدّنيا ـ والمفروض أنّه لا مرسل غيره ـ فيصير ذلك الغافل الناسي الساهي عن ذكره فاقداً لكمال وجودي، وقد بيّن القرآن أنّ فقد ذلك الكمال الوجودي هو العمى عن شهود الحقّ، كما قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَومَ الْقِيٰمَةِ أَعْمىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْراً * قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيٰاتُنا فَنَسِيتَهٰا وَكَذٰلِكَ الْيَومَ تُنْسىٰ﴾[2]؛ لظهوره في أنّ كون المعرض عن ذكر الله أعمى، إنّما هو مصداق لنسيان الله، و أنه لو ذكره الله لصار بصيراً. فمن نسيه الله يصير أعمىٰ، ومن ذكره الله يصير بصيراً شاهداً، كما أنّ المعرض عن الدّنيا والذاكر لله يصير مذكوراً لله سبحانه.

الذكر و النسيان متقابلان

وحيث إنّ الذكر والنسيان متقابلان، فإذا كان العمىٰ منشأ لانتزاع النسيان، تكون البصيرة منشأ لانتزاع ذكر الله عبده. وحيث إنّ المراد من العمىٰ هنا هو عمىٰ القلب، يكون المراد من البصيرة هنا هو بصر القلب، فقلب الذاكر

---

١. مريم، ٦٤. ٢. طه، ١٢٦ ـ ١٢٤.

شاهد بصير، كما أنّ قلب الغافل الناسي أعمىٰ، فيدور الشهود القلبي مدار ذكر الله وحبّه، ويدور العمىٰ القلبي مدار ذكر الدّنيا وحبّها المساوق لنسيان الله ونسيان النفس، فيترتّب علىٰ حيثيته العدمية وهو النسيان، أمر عدميّ وهو العمىٰ والصمم، ونحو ذلك. ويترتّب علىٰ حيثيّته الوجودية وهو ذكر الدّنيا وحبّها والحنين إليها، أمر وجودي وهو العذاب يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَذُوْقُوا بِمٰا نَسِيتُمْ لِقٰاء يَوْمِكُمْ هٰذا إنّا نَسيناٰكُمْ وَذُوقُوا عَذٰابَ الخُلْدِ بِمٰا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]، وقيل ﴿الْيَوْمَ نَنْسٰاكُمْ كَمٰا نَسِيتُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا وَمٰأواكُمْ النّارُ وَمٰا لَكُمْ مِنْ نٰاصرِيْنَ ذٰلِكُمْ بِأنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزواً وَغَرَّتْكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيٰا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهٰا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[٢].

منشأ النسيان

لظهور هذه الآية، في أنّ منشأ العذاب هو نسيان المعاد، الّذي هو الرجوع إلىٰ الله الّذي هو المبدأ، وفي أنّ منشأ النسيان هو الاغترار بالدّنيا واشراب حبّها في القلب، وهذا هو الأمر الوجودي الّذي يظهر بصورة العذاب يوم القيامة، كما أنّ ذكر الله وحبّه أمر وجودي يترتّب عليه عدا الأمر الوجودي المتقدّم، وهو الشهود القلبي، أمر وجودي آخر، وهو الرفاه والتنعّم في جنّة عرضها السماوات والأرض. وفي أنّ منشأ الاستهزاء بآيات الله هو الولع بذكر الدُّنيا الغرور وحبّها الّذي هو رأس كلّ خطيئة في الدّنيا، ومنشأ كلّ عذاب في الآخرة، كما أنّ حب الله هو رأس كلّ صواب في الدّنيا، ومنشأ كلّ تنعّم في الآخرة.

وإلىٰ ذلك كلّه يشير قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنٰا أخْرِجْنٰا مِنْها فَإنْ عُدْنٰا فَإنّٰا ظٰالِمُونَ * قٰالَ اخْسَئُوا فِيْهٰا وَلا تُكَلِّمُونِ * إنَّهُ كٰانَ فَرِيْقٌ مِنْ عِبٰادِي يَقُولُونَ رَبَّنٰا آمَنّٰا فَاغْفِرْ

---

١. السجدة، ١٤. ٢. الجاثية، ٣٥ ـ ٣٤.

لَنا وَارحمنا وَأنْتَ خَيرُ الـرَّاحِمِين * فَاتَّخَذْتمُوهُـمْ سِخْرِياً حَتّىٰ أنسَـوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إنّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ (١)؛ لظهور هذه الآيات في بيان مبادئ تلك الأوصاف في الدُّنيا والآخرة.

وحيث إنّ الدُّنيا وزينتها وزهرتها حبـالة الشيطان، وأنّه بها يصيد الإنسان، كما قال: ﴿ لأُزَيِّنَـنَّ لَهُمْ فِي الأرْض ﴾ (٢)، فلابّد وأن يستند نسيـان الله والغفلة عن ذكره والإعراض عن تـولية الوجه شطره، إلىٰ الشيطان. إذ النفـس الأمّارة والمسوّلة وسـائر شؤون النفـس المُعرِضـة عـن ذكر الله تحت تـدبير الشيطان، الّـذي اتّخذه الإنسان المغترّ بـالدّنيا وليّاً لـه، وولّىٰ وجهه شطره وبـايع معه، كما قال سبحـانه: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطٰانُ فأنْسٰاهُـمْ ذِكْرَ اللهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ ألا إنَّ حِزْبَ الشَّيْطٰانِ هُمُ الْخٰاسِرُونَ﴾ (٣).

الانسان الذي تحت ولاية الشيطان

فمن هنا يتبيّن أصل آخـر، وهو أنّ المعرض عن ذكر الله الغافـل عنه، المولع بذكر الدّنيا والمحبّ لها تحت ولاية الشيطـان، كما أنّ المعرض عن الدّنيا المطلّق لها المتذكّـر لله والمحبّ لـه تعالىٰ تحت ولايتـه، كما قال تعـالىٰ: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِيْـنَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إلىٰ النُّورِ...﴾ (٤)، وقال: ﴿إنَّ وَليي اللهُ الَّـذِي نَزَّلَ الْكِتٰابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصٰالِحِيْنَ﴾ (٥)، وقال تعالىٰ: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أرْسَلْنٰا إلىٰ أُمَـمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ أعْمٰالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذٰابٌ ألِيْمٌ﴾ (٦).

وحيـث إنّ الأمور الأُخـرويّـة نتائج الملكـات الدّنيـويّـة، فكون الشّيطـان وليّـاً لهؤلاء في الآخرة، إنّما هـو لكونـه وليّاً لهم في الـدّنيـا، وبيده زمـام ناصيتهـم

---

١. المؤمنون، ١١١ ـ ١٠٧. ٢. الحجر، ٣٩. ٣. المجادلة، ١٩.
٤. البقرة، ٢٥٧. ٥. الأعراف، ١٩٦. ٦. النمل، ٦٣.

الخاطئة، وهو المسيطر عليهم والمعبود لهم.

وليس المراد من ولاية الشيطان علىٰ الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتّخذوا آيات الله هزواً واتّخذوا المؤمنين سخريّاً، هو الولاية المستقلّة، إذ لا استقلال لشيء في دار التحقّق إلاّ لله، الّذي هو الحقّ بذاته ومنه الحقّ في أفعاله، بل المراد هو أنّ الشيطان الّذي هو بنفسه جند من جنود القهر الإلٰهي والإضلال الجزائي - لا الإضلال الابتدائي المنزّه منه الله، الّذي أعطىٰ كلّ شيء خلقه ثمّ هدىٰ - يصير مأموراً لإغوائهم ولإزاغة قلوبهم و لتعمية صدورهم ولإخراجهم من نور الفطرة إلىٰ ظلمة الكفر والنفاق، بعد أن زاغوا بسوء اختيارهم، وضلّوا عن سبيل الله بسوء فعالهم، وأقبلوا إلىٰ الدّنيا مدبرين عن الآخرة بسوء نيّاتهم، واشتروا الضلالة بالهدىٰ، فما ربحت تجارتهم الكاسدة بسوء أعمالهم، فحينئذٍ يسلّط الله الشيطان عليهم ليزداد مرض قلوبهم، كما قال سبحانه: ﴿إنّا جَعَلْنا الشّياطِيْنَ أوْلِيْاء لِلّذِيْنَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [١]، وقال: ﴿أنّا أرْسَلْنا الشّياطِيْنَ عَلىٰ الكافِرِيْنَ تَؤُزُّهُمْ أزّاً﴾ [٢].

جميع ما في السموات و الارض عبد لله

والغرض، أنّ التوحيد الأفعالي والربوبيّة المطلقة الّتي لله ربّ العالمين لا تدع مجالاً لأن يستقل شيء في أمره، سواء في ذلك الشيطان وغيره، بل جميع ما في السماوات والأرض عبد داخر له تعالىٰ، وجند خاضع لديه تعالىٰ، ولكنّ الله سبحانه قد يرسل ملكاً ليخرج عبده الصالح من أيّ ظلمة محتملة إلىٰ النّور، دفعاً أو رفعاً، وقد يرسل شيطاناً ليتولّىٰ أمر عبده الطالح بعدما أمهل له غير مرّة، وفتح له أبواباً من التوبة والإنابة والإسلام.

---

١. الأعراف، ٢٧. ٢. مريم، ٨٣.

والحاصل، أنّ الولي المطلق الّذي لا شبيه له في ولايته، ولا شريك له في سلطنته، ولا ندّ له في سيطرته، ولا مثل له في هيمنته، وبالجملة، الولي الّذي ليس كمثله شيء بالضرورة الأزليّة هو الله سبحانه، وأنّ محور التولية ومدار السيطرة إنّما هو النفس ولا غير، فالله وليّها ليخرجها من الظّلمات إلىٰ النور بالتزكية، والشيطان وليّها ليخرجها من النّور إلىٰ الظّلمات بالتدسيس والتخييب.

وأنّ أساس رقي النفس هو شهودها القلبي، الطاهر عن دنس التمثل الشيطاني، وبنيان هبوطها وهويّها هو العمى القلبي، المشوب بالمغالطة الفكرية أو التمثل الشيطاني في المثال المتّصل بها، وأنّ الموعد الوحيد للتضارب والسباق والانتصار بين الحقّ والباطل هو ساحة النفس، ولا همّ للشيطان إلاّ إغوائها، كما أنّ العناية الخاصّة الإلٰهيّة، إنّما هي معطوفة نحو هدايتها وتزكيتها. فالأساس هو النفس ولا غير؛ لأنّ جميع الشؤون المدركة والمحرّكة تابعة لها، كما أنّ جميع ما هو خارج عنها تابع لها.

النفس نقطة مركزية للسعادة و الشقاوة

وحيث إنّ النفس هي النقطة المركزيّة للسعادة والشقاوة، حثّ القرآن العلمي والقرآن العيني علىٰ معرفتها و معرفة ما يصلحها وما يفسدها، وحرّضا علىٰ تهذيبها وتجريدها عن التعلّق بالطبيعة، وحذّراها عن الذهول والنسيان، وأنذراها عن الطغوىٰ والعصيان، وأمراها بالتّقوىٰ والإيمان.

اهتمام القرآن بمعرفة النفس

وإليك بعض ما في القرآن العلمي وبعض ما عن القرآن العيني، ذي النفس المطمئنة الراضية المرضيّة الراجعة إلىٰ لقاء بارئها، الداخلة في عباده المخلصين وفي جنّته الخاصّة؛ ليتبيّن بذلك لزوم الاهتمام بمعرفة النّفس، ويمتاز به

الشهود القلبي الحقّ المرغوب إليه عن التمثّل الشيطاني الباطل المرغوب عنه، قال سبحانه: ﴿يٰا أيهُّا الَّذِيْنَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أنْفُسَكُمْ لاٰ يَضرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذٰا اهْتَدَيْتُمْ إلىٰ اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيْعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [1].

ليس طريق جنّة اللقاء إلاّ معرفة النفس و تزكيتها

ومفاده، هو أنّ الإنسان سالك إلىٰ الله وصائر إليه، ولابدّ للسّالك من الطريق، كما لابدّ له من الغاية. وأمّا الطريق فهي النّفس، وأمّا الغاية فهي جنة اللّقاء، ولا طريق لها إلاّ معرفة النّفس وتزكيتها، ولا غاية للنفس إلاّ لقاء خالقها؛ ولذا اهتمّ به المحقّقون من القدامىٰ وغيرهم في كتبهم القيّمة، وكذا في سيرهم الطاهرة عن رجس الطبيعة.

ولقد كفانا في التعرّض لهذا البحث النفيس، سيّدنا الأُستاذ العلاّمة الطباطبائي (قدّه) في كتابه القيّم (الميزان في تفسير القرآن) في موارد عديدة، سيّما في ذيل هذه الآية المشار إليها [2]، وكذا في سائر تصانيفه الثمينة، سيّما رسالته المعمولة في الولاية [3]، فلا مجال لاستقصاء الكلام في ذلك، عدا نقل بعض ما ورد في النفس، ممّا لم تتح الفرصة لسيدنا الأُستاذ (قدّه) لأن يتعرّض له، أو كان قد رأىٰ أنّ فيما نقله غنية عمّا لم ينقله.

الانسان الكامل أُسوة للمرتاض

وكيف كان، إنّ القرآن العيني ـ أي الإنسان الكامل المعصوم ـ لمّا كان بنفسه قد سلك هذه الطريقة الوعرة الّتي هي أحدُّ من كلّ سيف قاطع، وأدقّ من أيّ شعر دقيق، وبلغ بُغْيَتَهُ وصار بنفسه إماماً لأيّ سالك أراد أن يسلك طريق

---

١. المائدة، ١٠٥.
٢. الميزان في تفسيرالقرآن، ج ٦، ص ١٧٤.
٣. الفصل الثالث و الرابع.

النفس، وقدوة لأيّ سائر عزم أن يسير مسيرها، وأُسوة لأيّ مرتاض أراد أن يروّض نفسه بالتقوىٰ، يلزم نقل بعض ما صدر عن صدره المشروح وقلبه الشاهد ولسانه الناطق بالحقّ.

ما صدر عن علي (عليه السلام) في النفس و الفكر و العقل

قال مولانا الرضا (عليه السلام): «من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن خاف أمن، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، وصديق الجاهل في تعب ... وأفضل العقل معرفة الإنسان نفسه»[١].

وفي (الغرر والدرر) للآمدي، عن مولانا أميرالمؤمنين (عليه السلام): «الاشتغال بتهذيب النفس أصلح»[٢]، «من لم يهذّب نفسه لم ينتفع بالعقل»[٣]، «من لم يهذّب نفسه فضحه سوء العادة»[٤]، «الغفلة أضرّ الأعداء»[٥]، «الغفلة شيمة النوكىٰ»[٦]، «دوام الغفلة يعمي البصيرة»[٧]، «بينكم وبين الموعظة حجاب من الغفلة والغرة»[٨]، «من غلبت عليه الغفلة مات قلبه»[٩]، «ويل لمن غلبت عليه الغفلة فنسي الرحلة ولم يستعدّ»[١٠]، «الفكر عبادة»[١١]، «الفكر جلاء العقول»[١٢]، «التفكّر في ملكوت السماوات والأرض عبادة المخلصين»[١٣]،

---

١. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الآداب و المواعظ، ص ٣٠٢، ح ٤٤.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٣٦٦.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١٣١٩.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١٥١٧.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٥٢٧.
٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٩٤٧.
٧. الأحاديث الساقطة، ح ١١٣.
٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢١، ح ٢٠٩.
٩. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ٧٨٠.
١٠. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٣، ٢٩.
١١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٥٢.
١٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٩٧٨.
١٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٨١٧.

«بالفكر تنجلي غياهب الأُمور» [١]، «صيام القلب عن الفكـر في الآثام أفضل من صيام البطن عن الطعام» [٢]، «من أسهر عين فكرته بلغ كنه همّته» [٣]، «لا بصيرة لمن لا فكر له» [٤]، «الهوىٰ شريك العمىٰ» [٥]، «الهوىٰ إله معبود» [٦]، «إنّ طاعة النفس ومتابعة أهويتها أُسّ كل محنة ورأس كل غواية» [٧]، «إنّك إن اطعت هواك أصمّـك وأعماك وأفسد منقلبـك وأرداك» [٨]، «دواء النفـس الصـوم عـن الهوىٰ، والحمية عن لذّات الدّنيا» [٩]، «صلاح النفـس مجاهدة الهوىٰ» [١٠]، «ردع النفس عن تسويـل الهوى ثمرة النبل» [١١]، «ردع النفـس عن الهوىٰ الجهـاد الأكبر» [١٢]، «كم من عقل أسير تحت هوىٰ أمير» [١٣]، «كيف يجد لذّة العبادة من لا يصوم عن الهوىٰ» [١٤]، «لو ارتفع الهوىٰ لأنف غير المخلص من عمله» [١٥]، «مغلوب الهوىٰ دائم الشقاء مؤبّد الرق» [١٦]، «نظام الدِّيـن مخالفة الهوىٰ والتنزّه عن الـدّنيا» [١٧]،

---

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٨، ح ١٤٤.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٤٤، ح ٦٣.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١١٣٠.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٦، ح ٣٣٨.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٦٣٢.
٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٢٢٤٠.
٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٩، ح ١٠٩.
٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٣، ح ٤٧.
٩. الأحاديث الساقطة، ح ١١٩.
١٠. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٤٣، ح ١٤.
١١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٦، ح ١٧.
١٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٦، ح ١١.
١٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٦٣، ح ٣.
١٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٦٣، ح ١٢.
١٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٥، ح ٩.
١٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٠، ح ١٢٦.
١٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٢، ح ٣٢.

«اليقظة نور»[١]، «لا تنجع الرياضة إلاّ في نفس يقظة»[٢]، «اليقين نور»[٣]، «سبب الإخلاص اليقين»[٤]، «كفىٰ باليقين عبادة»[٥]، «ما أعظم سعادة من بوشر قلبه ببرد اليقين»[٦]، «اليقين يثمر الزهد»[٧]، «الإخلاص أعلىٰ فوز»[٨]، «العمل كلّه هباء إلاّ ما أُخلص فيه»[٩]، «عند تحقق الإخلاص تستنير البصائر»[١٠]، «من أخلص النيّة تنزّه عن الدنيّة»[١١]، «حسن النيّة جمال السرائر»[١٢]، «سوء النيّة داء دفين»[١٣]، «الثقة بالنفس من أوثق فرص الشيطان»[١٤]، «الثقة بالله أفضل عمل»[١٥]، «الذكر نور العقل وحياة النفوس وجلاء الصدور»[١٦]، «استديموا الذكر، فإنّه يُنير القلب، وهو أفضل العبادة»[١٧]، «ذكر الله جلاء الصدور وطمأنينة القلوب»[١٨]، «عليك بذكر الله فإنّه نور القلب»[١٩]، «من ذكر الله

---

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٤٣ و ٢٢٤.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٦، ح ٤٦٤.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٨٩.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٨، ح ٢٩.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٦٥، ح ٣٥.
٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٩، ح ١٠٤.
٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٨٩٤.
٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٦٧٢.
٩. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٤٤٢.
١٠. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٥٢، ح ١٢.
١١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ٧٩٧.
١٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٧، ح ٤.
١٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٩، ح ١٩.
١٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٥٠٤.
١٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٦٥٧.
١٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٢٠٢١.
١٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣، ح ٥٩.
١٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٢، ح ٧.
١٩. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٤٩، ح ٢٣.

سبحانه أحيیٰ الله قلبه ونوّر عقله ولبّه» [١]، «لا عمل كالتحقيق ولا ينفع اجتهاد بغير تحقيق» [٢]، «لا سنّة أفضل من التحقيق» [٣]، «الدّنيا مصرع العقول» [٤]، «إيّاك وحبّ الدّنيا، فإنها أصل كلّ خطيئة ومعدن كلّ بليّة» [٥]، «إنّ النفس الّتي تطلب الرغائب الفانية لتهلك في طلبها وتشقیٰ في منقلبها» [٦]، «إنّ من هوان الدّنيا علیٰ الله أن لا يعصیٰ إلاّ فيها» [٧]، «إنّ الدّنيا منتهیٰ بصر الأعمى لا يبصر ممّا ورائها» [٨]، «إنّك لن تلقیٰ الله سبحانه بعمل أضرّ عليك من حبّ الدّنيا» [٩]، «آفة النّفس الوله بالدّنيا» [١٠]؛ «حبّ الدّنيا يفسد العقل ويصمّ القلب عن سماع الحكمة» [١١]؛ «طلاق الدّنيا مهر الجنّة» [١٢]، «عجبت لمن عرف نفسه، كيف يأنس بدار الفناء» [١٣]، «كما أنّ الشمس واللّيل لا يجتمعان، كذلك حبّ الله وحبّ الدّنيا لا يجتمعان» [١٤]؛ «لحبّ الدّنيا صمّت الاسماع عن سماع الحكمة وعميت القلوب عن نور البصيرة» [١٥]؛ «من غلبت الدّنيا عليه عمى عمّا بين يديه» [١٦]، «هلك من استنام إلیٰ الدّنيا وأمهرها دينه فهو حيثما مالت مال إليها» [١٧]، «ينبغي

---

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١٢٢٣.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٦، ح ٤٩.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٦، ح ٢٠٢.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٩٦٤.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٥، ح ٣٩.
٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٩، ح ١٥١.
٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل٩، ح ٢٨٦.
٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٩، ح ٣١٤.
٩. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٣، ح ٣٢.
١٠. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٦، ح ١٢.
١١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٨، ح ١٢.
١٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٤٧، ح ٧.
١٣. الأحاديث الساقطة، ح ١٤٥.
١٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٦٨، ح ٣٥.
١٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧١، ح ٤٦.
١٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١٢٠٣.
١٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٤، ح ٢١.

لمن علم شرف نفسه أن ينـزّهها عن دناءة الـدّنيا»[١]، «المؤمن من طهُـر قلبه من الدنيّة»[٢]، «الشريعة رياضـة النفس»[٣]، «لقاح الرياضـة دراسة الحكمة وغلبة العادة»[٤]، «من استدام رياضة نفسه انتفع»[٥]، «إذا أحبّ الله عبداً ألهمه حسن العبادة»[٦]، «دوام العبادة برهان الظفـر بالسعادة»[٧]، «من قام بشرائط العبودية أهل للعتق»[٨]، «العلم يهتـف بالعمل فإن أجـابه وإلاّ ارتحل»[٩]، «جمال العالم عمله بعلمـه»[١٠]، «الصمـت روضة الفكـر»[١١]، «طـوبىٰ لمن صمـت إلاّ مـن ذكر الله»[١٢]، «قد أفلـح التقي الصمـوت»[١٣]، «كن صمـوتاً مـن غير عيّ فـإنّ الصمت زينة العالم وستر الجاهل»[١٤]، «الصمت بغير تفكر خرس»[١٥]، «أفضل الجهاد جهـاد النفس عن الهوىٰ وفطامهـا عن لذّات الـدّنيا»[١٦]، «جهاد النفس مهر الجنّة»[١٧]، «حاربـوا هذه القلوب، فإنّها سريعـة العثار»[١٨]، «ذروة الغايات

---

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٧، ح ١١.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٩٧٧
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٥٩٦.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٦، ح ١٦.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ٦٦٠.
٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٧، ح ٩٠.
٧. الأحاديث الساقطة، ح ١١٢.
٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ٨٧٥.
٩. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٩٦٦.
١٠. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٦، ح ٣٧.
١١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٥٩٩.
١٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٤٦، ح ١.
١٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٦٠، ح ٦١.
١٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل٦٧، ح ٤٦.
١٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٣٢٦.
١٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨، ح ٤٠٨.
١٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٦، ح ٣٩.
١٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٨، ح ٦٤.

لا ينهال إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات» [١]، «من عرف نفسه جاهدها» [٢]، «البطنة تحجب الفطنة» [٣]، «إذا مُلِئَ البطن من المباح عمىٰ القلب عن الصلاح» [٤]، «كيف تصفو فكرة من يستديم الشبع» [٥]، «لا فطنة مع بطنة» [٦]، «لا يجتمع الشبع والقيام بالمفترض» [٧]، «التجوع أنفع الدواء» [٨]، «تأدّم بالجوع وتأدّب بالخضوع» [٩]، «نعم العون علىٰ أسر النفس وكسر عادتها التجوّع» [١٠]، «نعم عون الورع التجوّع» [١١]، «عين المحبّ عميه عن معايب المحبوب وأذنه صمّاء» [١٢]، «من نسي الله أنساه الله نفسه وأعمىٰ قلبه» [١٣]، «أفضل الذكر القرآن، به تشرح الصدور وتستنير السرائر» [١٤]، «ليكن سميرك القرآن» [١٥]، «الأمل سلطان الشياطين علىٰ قلوب الغافلين» [١٦]، «المؤمن نفسه أصلب من الصلد وهو أذلّ من العبد» [١٧]، «البكاء من خيفة الله للبُعد عن الله عبادة العارفين» [١٨]،

---

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل٣٢، ح ٣٠.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ٢١٢.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٧٠٣.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٧، ح ١٦٥.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٦٤، ح ٢٠.
٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٦، ح ٩٥.
٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٦، ح ١٣٤.
٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٩٥٣.
٩. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٢، ح ٩٩.
١٠. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨١، ح ٦٣.
١١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨١، ح ٤٣.
١٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل٥٥، ح ٢٩.
١٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١٥٥.
١٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل٨، ح ٤٢٩.
١٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧١، ح ٧٦.
١٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٨٥٣.
١٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٢٠٨٧.
١٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٨١٦.

«البكاء من خشية الله ينير القلب ويعصم من معاودة الذنب» [١]، «الحازم يقظان» [٢]، «الغافل وسنان» [٣]، «إنّما الحزم طاعة الله ومعصية النفس» [٤]، «من طال حزنه علىٰ نفسه في الدّنيا أقرّ الله عينه يوم القيامة» [٥]، «ثمرة المحاسبة صلاح النفس» [٦]، «القلب مصحف الفكر» [٧]، «انتباه العيون لا ينفع مع غفلة القلوب» [٨]، «أصل صلاح القلب اشتغاله بذكر الله» [٩]، «تكاد ضمائر القلوب تطّلع علىٰ سرائر الغيوب» [١٠]، «صوم القلب خير من صيام اللّسان، وصيام اللّسان خير من صيام البطن، فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان» [١١]، «قلوب العباد الطاهرة مواضع نظر الله سبحانه، فمن طهر قلبه نُظِر إليه» [١٢]، «لا يصدر عن القلب السليم إلّا المعنىٰ المستقيم» [١٣]، «رضا المرء عن نفسه برهان سخافة عقله» [١٤]، «رضا العبد عن نفسه مقرون بسخط ربه» [١٥]؛ «ازهد في الدّنيا يبصرك الله عيوبها ولا تغفل فلست بمغفول عنك» [١٦]، «إن عقلت أمرك أو أصبت معرفة نفسك فاعرض عن الدّنيا وازهد فيها» [١٧]، «بالزهد تثمر

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٢٠٣٧.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٣٨.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٣٩.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٥، ح ٣.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١٣٧٣.
٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٣، ح ٦٨.
٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١١٢٩.
٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٨٩٢.
٩. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨، ح ٢٥٧.
١٠. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٢، ح ٢٦.
١١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٤٤، ح ٨٠.
١٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٦١، ح ٦٥.
١٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٦، ح ٤٣٧.
١٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٦، ح ٥٨.
١٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٦، ح ٥٧.
١٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢، ح ١٣٨١.
١٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٠، ح ٢٧.

الحكمة»[١]، «سبب صلاح النفس العزوف عن الدّنيا»[٢]، «من زهد في الدّنيا أعتق نفسه وأرضىٰ ربّه»[٣]، «شرّ الفقر فقر النفس»[٤]، «إعجاب المرء بنفسه حمق»[٥]، «إعجاب المرء بنفسه برهان نقصه وعنوان ضعف عقله»[٦]، «العقل رقيٌّ إلىٰ عليين»[٧]، «بالعقل كمال النّفس»[٨]، «بالعقل يستخرج غور الحكمة»[٩]، «بالعقول تنال ذروة العلوم»[١٠]، «حدّ العقل الانفصال عن الفاني والاتّصال بالباقي»[١١]، «خير المواهب العقل»[١٢]، «لا يزكو عند الله سبحانه إلاّ عقل عارف ونفس عزوف»[١٣]، «من عقل تيقّظ من غفلته وتأهّب لرحلته وعمّر دار إقامته»[١٤]، «الخوف جلباب العارفين»[١٥]، «الخوف سجن النفس عن الذنوب ورادعها عن المعاصي»[١٦]، «السجود النفساني فراغ القلب من الفانيات»[١٧]، «صلاح السرائر برهان صحّة البصائر»[١٨]، «من عرف قدر نفسه لم يهنها

---

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٨، ح ٥١.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٨، ح ١٩.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١١٦١.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٤١، ح ٥٠.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٢٢٧.
٦. غرر الحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٢٠٠٧.
٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٣٧٣.
٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٨، ح ١٤٠.
٩. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٨، ح ٣٠.
١٠. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١٨، ح ٩٧.
١١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٨، ح ٣٩.
١٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٩، ح ١.
١٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٦، ح ٤٤٦.
١٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١٢٦٥.
١٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٧١٥.
١٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٢٠١٠.
١٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٢٢٣.
١٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٤٣، ح ١٦.

بالفانيات»[١]، «النفس الكـريمة لا تؤثّر فيهـا النكبات»[٢]، «من كرمـت نفسه صغـرت الـدّنيـا في عينـه»[٣]، «نـزّهـوا أنفسكـم عـن دنـس اللّـذات وتبعـات الشهوات»[٤]، «ولوع النّفس باللّذات يغوي ويردي»[٥]، «المكور شيطان في صورة إنسان»[٦]، «سيـاسة النفـس أفضل سيـاسة، ورئاسـة العلم أشرف رئاسـة»[٧]، «صـوم النفس إمسـاك الحواس الخمس عـن سائر المآثـم»[٨]، «كلّما ازداد علـم الرجل، زادت عنايته بنفسه وبـذل في رياضتها وصلاحها جهده»[٩]، «ليس علىٰ وجه الأرض أكـرم علىٰ الله سبحانـه من النفـس المطيعة لأمـره»[١٠]، «إنّ النّفس لجوهرة ثمينة، من صانها رفعها ومن ابتذلها وضعها»[١١]، «إنّ الحازم من قيّد نفسه بالمحاسبة وملكها بالمغـاضبة وقتلها بالمجاهدة»[١٢]، «خير الأُمراء مـن كان علىٰ نفسه أميراً»[١٣]، «ينبغي أن يكـون الرجل مهيمناً علىٰ نفسـه، مراقباً قلبه، حـافظاً لسانه»[١٤]، «التوحيد حياة النفس»[١٥]، «سوسوا أنفسكم بالورع»[١٦]، «المواعظ

---

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ٩٧٣.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٥٩١.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٨، ح ١٤٧٥.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٢، ح ١٦.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٣، ح ١٦.
٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٢٤٣, ١٥٠٣.
٧. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٩، ح ٤٠.
٨. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٤٤، ح ٧٩.
٩. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٦٨، ح ١٠.
١٠. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٧٣، ح ٧٩.
١١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٩، ح ١١٨.
١٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٩، ح ١٩٨.
١٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٩، ح ٥٢.
١٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٧، ح ٢٦.
١٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٥٩٣.
١٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٩، ح ٣٩.

صقال النفوس وجلاء القلوب»[١]، «اجعل لنفسك فيما بينك وبين الله سبحانه أفضل المواقيت والأقسام»[٢]، «حرام علىٰ كلّ قلب متولّه بالدّنيا أن يسكنه التقوىٰ»[٣]، «خلو القلب من التقوىٰ يملأه فتن الدّنيا»[٤]، «ملاك التقوىٰ رفض الدّنيا»[٥]، «لا تجعلنّ لنفسك توكُّلاً إلاّ علىٰ الله ولا يكن لك رجاء إلاّ الله»[٦].

النفس الانسانية مجرّد ذاتاً

والمتحصّل من هذه النصوص النوريّة، هو أنّ النفس الإنسانية جوهر مجرّد ذاتاً عن المادّة، وأنّ لها الرقي إلىٰ ذروة الملكوت وشهود الغيب، وأنّ الفكر الصافي الّذي هو من شؤون قوّتها النظرية جلاؤها وإنّ الإخلاص والتقوىٰ والزهد وما إلىٰ ذلك من الملكات الفاضلة، الّتي هي من شؤون قوّتها العمليّة صقالها وصفاؤها، وأنّ توحيد الله ذاتاً وصفةً وفعلاً حياتها، وأنّ ذكر الله آناء اللّيل وأطراف النّهار وكذا عند إقبال اللّيل وإدبار النّهار وعند طلوع الكواكب وإدبار النجوم نورها وسبب طمأنينتها، وأنّ التحقيق في المعارف والأُصول والتحرّز عن التقليد والجمود سنّة فاضلة لا أفضل منها، ولا ينفع اجتهاد ومكابدة بدونها، وأنّ معرفة النّفس أنفع المعارف وشرط لمعرفة غيرها، وأنّ الشريعة السمحة السهلة بأوامرها ونواهيها وبعزائمها ورخصها وبفرائضها ونوافلها وبحلالها وحرامها وبآدابها وسننها وبحدودها وثغورها وبعباداتها ومعاملاتها وأحكامها وسياساتها وبأُصولها وفروعها

---

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ١٣٩٩.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل٢، ح ٢١٩.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٢٨، ح ٣٨.
٤. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٣٠، ح ٤١.
٥. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٠، ح ٩.
٦. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٨٥، ح ١٣٦.

جميعاً رياضة للنّفس، وما لها من رياضة بلا حاجة إلىٰ بدعة، ولا فاقة إلىٰ ابتداع ولا احتياج إلى تشريع؛ لأنّ الله الّذي جعل شريعته رياضة للنّفس قد صرّح بكمالها وتمامها، حيث قال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيْناً﴾[1].

معرفة النفس أقرب الطرق إلى الله

قال سيّدنا الأُستاذ العلاّمة الطباطبائي (قدّه): «ولقد سمعت بعض مشايخي وقد سُئِل عن طريق معرفة النّفس: لِمَ لم يُبيَّن شرعاً وهو أقرب الطرق إلىٰ الله سبحانه، فقال (مدّ ظلّه): وأيّ بيان في الشرع لا يروم هذا المقصد ولا يشرح هذا الطريق»[2]، وقال (قدّه) أيضاً: «ونِعْمَ ما قال بعض أهل الكمال: إنّ الميل من متابعة الشرع إلى الرياضات الشاقّة فرار من الأشقّ إلىٰ الأسهل، فإنّ اتّباع الشرع قتل مستمر للنفس دائمي مادامت موجودة، والرياضة الشاقّة قتل دفعي وهو أسهل إيثاراً»[3].

طلاق الدنيا مهر الجنّة

وإنّ طلاق الدّنيا ـ وهي ما يشغل النّفس عن لقاء الله ـ مهر الجنّة وثمن لقائه تعالىٰ، وإنّ الصمت والجوع والسهر والذكر والخلوة المندوب إليها في الشرع معدّات للنفس، لأن يدفع الرين أو يرفعه لتصير مرآة صافية يتجلّىٰ فيها الغيب، وأنّ جهادها والظفر عليها ومِلك زمامها والإمارة عليها وأسرها تحت العقل الّذي به يعبد الرحمان ويكتسب الجنان، هو الفوز الأكبر، وأنّ الغفلة عن الله والإعراض عن ذكره سبحانه حجاب يمنع عن مشاهدة الحقّ وأسمائه الحسنى.

---

١. المائدة، ٣.　　٢. رسالة الولاية، ص ٥٧.　　٣. رسالة الولاية، ص ٤١.

وأنّ للقلب المتذكّر بصراً وسمعاً وذوقاً يبصر ويسمع ويذوق بذلك ما هو الغائب عن الحواس، وأنّ للقلب الساهي حواس خياليّة يستخدمها الشيطان ويتصرّف فيها ويدرك أو يحرّك بها، كما قال أميرالمؤمنين (عليه السلام): «اتّخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً واتّخذهم له أشراكاً فباض وفرّخ في صدورهم ودبّ ودرج في حجورهم فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم»[1].

تحصيل الحرّية بالعبادة

وإلىٰ بعض ما تقدّم، قد أشار مولانا الرضا (عليه السلام): «إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً ونشاطاً وفتوراً، فإذا أقبلت بصرت وفهمت، وإذا أدبرت كلّت وملّت، فخذوها عند إقبالها ونشاطها، واتركوها عند إدبارها وفتورها»[2]، وإنّ للقلب الاطلاع علىٰ الغيب وما استتر في ضمير الغير، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام) للحسن بن الجهم، لمّا قال له (عليه السلام): «لا تنسني من الدّعاء، قال (عليه السلام): أوتعلم أنّي أنساك؟ قال: فتفكّرت في نفسي وقلت هو يدعو لشيعته، وأنا من شيعته، قلت: لا، لا تنساني، قال (عليه السلام): وكيف علمت ذلك؟ قلت: إنّي من شيعتك وإنّك لتدعو لهم، فقال (عليه السلام): هل علمت بشيء غير هذا؟ قال: قلت: لا، قال (عليه السلام): إذا أردت أن تعلم ما لك عندي، فانظُر إلىٰ ما لي عندك»[3].

وإنّ الانعتاق عن رقّية الدّنيا والحرّية عن زيّ عبوديّتها، إنّما يتحقق بالعبادة لله، وإنّ أفضل أنحاء العبادة ما يكون حبّاً لله، لا خوفاً من النّار

١. نهج البلاغة، الخطبة، ٧.
٢. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الآداب و المواعظ، ص ٣٠٣، ح ٤٩.
٣. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الآداب و المواعظ، ص ٣٠١، ح ٣٨.

ولا طمعاً في الجنّة، وإنّ حبّ الله كالشمس المضيئة وحبّ الدّنيا كاللّيل المظلم فلا يجتمعان أصلاً، وإنّ الهوىٰ مانع عن الالتذاذ بالعبادة وحاجب عن الاتّعاظ بالموعظة الحسنة.

الميزان القسط هو الثقلان

وإنّ الّذي قال: ربّي الله ثمّ استقام علىٰ التوحيد الربوبي، تتنزّل عليه الملائكة وتبشّره، إمّا بالتمثّل الملكي أو بإلقاء الفكر في نفسه، وأنّ الشياطين إنّما تتنزّل علىٰ كلّ أفّاكٍ أثيم، إمّا بالتمثّل الشيطاني أو بإلقاء الفكر الحصولي في ذهنه، ويجمع ذلك قوله تعالىٰ: ﴿... وَإِنَّ الشَّيَاطِيْنَ لَيُوْحُونَ إِلىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ...﴾[1].

وإنّ الميزان القسط للفرق بين الشهود القلبي الصحيح والتمثّل الشيطاني بالباطل، هو القرآن العلمي والقرآن العيني، أعني الثقلين اللّذين لا يفترقان في مورد أصلاً، ويدوران مدار الحقّ حيثما دار، بل الحقّ هو ما حقّقاه والباطل هو ما أبطلاه.

وأنّ طريق وصول القلب إلىٰ الحقّ ومسير نزول الحقّ علىٰ القلب هو العبادة والاستغفار، كما هو المستفاد من قول مولانا الرضا (عليه السلام) لابن اسباط: «ائتِ المسجد في غير وقت صلاة فريضة، فصلِّ ركعتين واستنحر الله مائة مرّة ثمّ انظُر أي شيء يقع في قلبك فاعمل به»[2]؛ لأنّ ظاهره، هو أنّ للقلب الطاهر الاطّلاع علىٰ الغيب، وهو الخير الّذي سيقع بعد ذلك، وأنّ طريق عثوره هو الصلاة وطلب الخير من الله تعالىٰ. إذ لا يوجد الخير إلّا من عند الله، كما قال مولانا

---

١. الأنعام، ١٢١.

٢. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الصلاة، ص ١٨٠، ح ١٢١.

السجّاد (عليه السلام) في دعاء السحر[١] : «وأنّ العثور علىٰ الغيب تارةً في النوم وأُخرىٰ في اليقظة»، كما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا أصبح، قال لأصحابه: «هل من مبشرات، يعني بها الرؤيا» [٢].

رؤيا المعصوم و غيره

وأنّ رؤيا غير المعصوم كيقظته يحتاج إلىٰ الميزان؛ لاحتمال الخطأ في ذلك كلّه، وأنّ رؤيا المعصوم (عليه السلام) كيقظته حقّ وقسط مصون عن تطرّق الخطأ وتمثّل الشيطان، كما قال مولانا الرضا (عليه السلام) للوشّاء: «رأيت أبي (عليه السلام) في المنام، قال (عليه السلام): يا بني إذا كنت في شدّة فاكثر أن تقول: يا رؤوف يا رحيم، والّذي نراه في المنام كما نراه في اليقظة» [٣]، وكما قال أيضاً مولانا الرضا (عليه السلام) للحسن بن علي: «إنّ أبي كان عندي البارحة، قال: قلت: أبوك؟! قال (عليه السلام): أبي، قلت: أبوك! قال (عليه السلام): أبي، قلت: أبوك! قال (عليه السلام): في المنام، انّ جعفراً كان يجيء إلىٰ أبي، فيقول: يا بني افعل كذا، يا بني افعل كذا، قال: فدخلت عليه بعد ذلك قال (عليه السلام): يا حسن إنّ منامنا ويقظتنا واحدة» [٤].

زاد المعاد بتحصيل اليقين و التقوىٰ

وأنّ الآخرة غيب عن الحسّ والطبيعة، ولا يشاهدها إلاّ من تنزّه عن الدّنيا، وأخرج حبّها من قلبه، وطهّره من درنها وقدّسه عن رينها، كما أنّ النائل بالجنّة والواصل إليها لا يكون إلاّ من لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً، وأن طلب

---

١. دعاء أبوحمزة الثمالي.

٢. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب النبوة، ص ٧٦، ح ٥٠.

٣. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ٢، ح كتاب الدعاء، ص ٦٦، ح ٨٦.

٤. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب الإمامة، ص ١٥٨، ح ٢٣٤.

الجمع بين الدّنيا والآخرة من خداع النفس، وأنّ شهودها لا يتيسر إلاّ لمن تزوّد لها علماً بتحصيل اليقين، وعملاً بتحصيل التقوىٰ، اللذين هما الزادان للمعاد، كما أنّ العدوان علىٰ العباد بئس الزاد له.

فلذا، كان أميرالمؤمنين (عليه السلام) ينادي بقوله: «ألا متزوّد للآخرة قبل ازوف رحلته»[1]، مشيراً إلىٰ دنو القيامة وضيق وقتها؛ ولذا يقال لها: «الآزفة»، كما في قوله تعالىٰ ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةِ﴾[2]، كما يعبّر عنها بالساعة؛ لأنّ المسافر ـ الّذي نزل في المسير لحظات ليتروّح ـ لو علم قرب الرحلة وضيقها يستعدّ مجدّاً، ولعلّه لذا قال سبحانه: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ﴾[3]، حيث عبّر عن القيامة بلفظ الماضي؛ لقربها وضيق وقتها، كما أفاده الراغب في مفرداته[4].

عدم اختصاص شهود المعارف الإلهيّة بالانبياء

وأنّ شهود المعارف الإلٰهيّة لا يختصّ بالأنبياء (عليهم السلام) إلاّ فيما يرجع إلىٰ التشريع، إذ لكلّ من آمن بما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) وعمل به واتّقىٰ وأخلص لله، ينكشف له الحقائق بمقدار إيمانه وشرح صدره، كحارثة بن مالك، حيث قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): «عبد نوّر الله قلبه»[5].

وكما أنّ الإنسان إذا مات بالموت الطبيعي، يتجلّىٰ له غير واحد من الحقائق، كذلك إذا مات بالموت الإرادي، وأمات ذكر الدّنيا عن قلبه وأحيى عقله، وأمات نفسه وأحيى قلبه بالموعظة، وأمات هواه المردي ونفسه المسوّلة بالزهادة، وأسمع دعوة الموت أُذن قلبه قبل أن يدعىٰ به، وكان بالنسبة إلىٰ الموت

---

١. غررالحكم و دررالكلم، فصل ٦، ح ٥.

٢. النجم، ٥٧.

٣. النحل، ١.

٤. مفردات غريب القرآن، ص ١٧.

٥. بحارالأنوار، ج ٢٢، باب ٣٧، ح ١٢٦.

كقارب ورد وطالب وجد، وذلّل نفسه بذكرى الموت، يجعل الله سبحانه له فرقاناً يفرق به بين الحقّ والباطل وبين الجنّة والنّار وبين الولي والعدوّ، ويتمثّل له ذلك تمثّل عيان لا يقدر علىٰ شرحه البيان، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الكلام واحد و الأفهام شتّىٰ

ومثل هذا العبد الصالح المتأسّي بالعترة الطاهرة في سيرته، هو الحري بأن يكون مصداقاً لصالحي مواليهم، حسب ما قال مولانا الرضا (عليه السلام): «فقسمة الجنة والنار إذا كانت علىٰ حبّه وبغضه، فهو قسيم الجنّة والنار، فقال المأمون: لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن، أشهد أنّك وارث علم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال أبو الصلت الهروي: فلمّا انصرف الرضا (عليه السلام) إلىٰ منزله أتيته، فقلت له: يابن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ما أحسن ما أجبت به أميرالمؤمنين؟ فقال الرضا (عليه السلام): يا أبا الصلت إنّما كلّمته من حيث هو، ولقد سمعت أبي يحدّث عن آبائه عن عليّ (عليه السلام)، أنّه قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا عليّ، أنت قسيم الجنّة يوم القيامة، تقول للنّار: هذا لي وهذا لك» [1]؛ لظهوره في أنّ الكلام الواحد ـ وهو قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعليّ (عليه السلام): أنت قسيم الجنّة والنّار ـ يبيّن لكلّ شخص بحسب استعداده، فالكلام واحد والافهام شتّىٰ.

الناس معادن كمعادن الذهب و الفضّة

لأنّ النّاس معادن كمعادن الذهب والفضّة، فكلّ من أخلد إلىٰ الأرض واتّبع هواه، فهو محجوب عن نيل البغية، وكلّ من تجافىٰ عن دار الغرور وأناب إلىٰ دار الخلود واستعدّ للموت قبل حلوله ورآه بعين يقينه، فرآه قريباً ولم يره بعين أمله

---

١. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ٢، كتاب الإحتجاجات، ص ١٣٢، ح ١٣.

حتّىٰ يراه بعيداً، فهو يشهد الملكوت ويرىٰ الملك النازل عليه، يسدّده ويؤيده ويبشّره بالأمن من الخوف ولا يكذب فؤاده ما رأىٰ ولا يزيغ بصره ولا يطغىٰ، كلّ ذلك بما هو ميسّر له.

حيث إنّ الله سبحانه ﴿يرفع الّذين آمنوا والّذين أُوتُوا العلم من المؤمنين درجات﴾[١]، فلا يتيسّر لكلّ أحد أن يشاهد ما يشاهده الّذي هو مظهر الرفيع، كما أنّه ليس لأحد أن يشاهد ما شاهده النبي (صلى الله عليه وآله) فيما أُوحي إليه ما أُوحي، ولكن لكل من طهّر قلبه من أرجاس الرذائل ـ كما أوصىٰ بذلك مولانا أميرالمؤمنين (عليه السلام) في قوله (عليه السلام): «طهِّروا قلوبكم من الحسد فإنّه مكمّد مضني»[٢]، «طهِّروا قلوبكم من الحقد فإنّه داء...»[٣] ـ وخلاّه عن الأدناس وحلاّه بالفضائل، أن يشاهد الغيب ويراه شهوداً مصوناً عن الخطأ، ورؤية طاهرة عن الختل، وكلّ من لم يحصل له هذا النصاب، فشهوده مشوب بالتمثّل النفساني، ورؤيته ممزوجة بالتمثّل الشيطاني.

أولوية الثقلين في انجاز ما وعداه

والمائز هو الثقلان، اللّذان لا يحوم حومهما الخاطر النفسي ولا الوسواس الشيطاني؛ لأنّ سماءهما ملئت حرساً شديداً وشهباً ثاقبة، فأيّ شيطان أراد أن يستمع ويسترق، يجد له شهاباً رصداً، فأيّ تمثّل لا يوازيهما فهو مدسوس، وأيّ شهود لا يطابقهما فهو موضوع، وحاشاهما أن لا يصححا شهوداً هو حصيل التقوى، ولا يمضيا كشفاً هو وليد الهدىٰ، ولا يصوّبا إلهاماً هو ثمر الجهاد في الله حقّ جهاده؛ لأنّهما هما اللّذان وعدا السالكين بالشهود والسائرين بالكشف

---

١. المجادلة، ١١.
٢. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٣٣.
٣. غررالحكم و دررالكلم، فصل ١، ح ٣٤.

والمجاهـدين بـالإلهام، فهما بإنجـاز ما وعـداه أولىٰ، وبتحقيق مـا بشّرا به أحـقّ، وبتصديق ما أخبرا به أحرىٰ.

في معنى رؤية الله التي وردت في الاخبار

ولعـلّ إلىٰ بعـض مـا مـرّ مـن معنىٰ الـرؤيـة، وأنّ لنصـوص أهـل البيـت (عليهم السلام) كالقـرآن أسراراً محجوبـة عن أفهـام الأوساط مـن النّاس، وأنّ جهـاد النفس نِعم العون علىٰ كشفها، وأنّ طلاق الدّنيا مهر شهودها، أشار شيخ مشايخنا الإماميّة محمد بن علي بـن بابويه القمّي (قدّ سرّه) في كتابه القيّم المعمـول في التوحيد ونفي التشبيه والجبر، في باب ما جاء في الرؤية، حيث قال (رحمه الله): «والأخبار الّتي رُويت في هذا المعنىٰ وأخرجها مشايخنا (رضي الله عنهم) في مصنّفاتهم عندي صحيحة، وإنّما تركت إيرادها في هذا الباب خشية أن يقـرأها جاهل بمعانيها، فيكذّب بها، فيكفر بالله عزّ وجلّ وهو لا يعلم، والأخبار التي ذكرها أحمد بن محمّد بن عيسىٰ في نوادره، والّتي أوردها محمّد بن أحمد بن يحيـىٰ في جامعه في معنىٰ الرؤية، صحيحة لا يردّها إلاّ مكذّب بـالحقّ أو جاهل به، وألفاظها ألفـاظ القرآن، ولكلّ خبر منها معنىً ينفي التشبيه والتعطيل ويثبت التوحيد، وقد أمرنا الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين أن لا نكلّم النّاس إلاّ علىٰ قـدر عقولهم. ومعنىٰ الرؤيـة الواردة في الأخبار العلم؛ وذلك أن الدّنيا دار شكوك وارتياب وخطرات، فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد مـن آيات الله وأُمـوره في ثوابـه وعقابه مـا يزول بـه الشكوك ويعلـم حقيقة قدرة الله عـزّ وجلّ، وتصديـق ذلك في كتاب الله عـزّ وجلّ: ﴿لقد كنـت في غفلة من هـذا فكشفنا عنـك غطائك فبصرك اليـوم حديـد﴾ [1]، فمعنـىٰ مـا رُوي في هذا الحديث أنّه يرىٰ، أي يعلم علماً يقيناً، كقوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ

---

١. ق، ٢٢.

مَدّ الظلّ﴾ [١]، وَقولـه تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَىٰ الَّـذِي حَـاجَّ إِبْـرَاهِيـمَ فِي رَبِّـهِ﴾ [٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَىٰ الَّذِيْنَ خَرَجُوا مِنْ دِيٰارِهِـمْ وَهُمْ الوف حَذَرَ المَوْت﴾ [٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحٰابِ الْفِيْلِ﴾ [٤]، وأشباه ذلك من رؤية القلب وليست من رؤية العين. وأمّا قول الله عزّ وجلّ: «فلمّا تجلّىٰ ربّه للجبل» [٥]، فمعناه لمّا ظهر عزّ وجـلّ بآية من آيات الآخرة الّتي يكـون بها الجبال سراباً، والّتي ينسف بها الجبال نسفاً، فـدكدك الجبل، فصار تراباً؛ لأنّـه لم يطق حمل تلك الآية، وقد قيل: إنّه بدا له من نور العرش» [٦].

والمستفاد من بيـانه (قدّس سرّه)، هـو أنّ الـرؤية في تلـك النصـوص المعتبرة، ليست هـي رؤية العين الحاسّـة الماديّة؛ لنـزاهة المرئي عـن المادّة ولوازمهـا، وكذا ليست هي العلم الحصولي الذهني؛ لأنّـه مشوب بالشكوك والخطرات، حيث إنّه مـن وراء حجاب المفهـوم وغيـم المعنىٰ الـذهنـي، بل المراد هـي الـرؤية القلبيّـة المنزّهة عن أيّ حجـاب، المبرّأة عن أيّ شكّ، المصونة عن أيّ ارتيـاب، المعصومة عن أيّ خطر.

ثمّ قال (رحمه الله): «ولو أوردت الأخبـار الّتي رويت في معنـىٰ الرؤيـة، لطال الكتاب بذكرهـا وشرحها وإثبات صحّتها، ومن وفّقه الله تعالىٰ ذكـره للرشاد، آمن بجميع ما يرد عن الأئمة (عليهم السلام) بالأسانيد الصحيحة وسلّم لهم وردّ الأمر فيما اشتبه عليه إليهم، إذ كان قولهم قول الله عزّ وجلّ، وأمرهم أمره، وهم أقرب الخلق إلىٰ الله عزّ وجلّ وأعلمهم به (صلوات الله عليهم أجمعين)» [٧].

---

١. الفرقان، ٤٥. ٢. البقرة، ٢٥٨. ٣. البقرة، ٢٤٣.
٤. الفيل، ١. ٥. الأعراف، ١٤٣.
٦. التوحيد، ج ١، باب ما جاء في الرؤية، ص ١١٩. ٧. التوحيد، ص ١٢٢.

الائمة يكلّمون الناس على قدر عقولهم

وأنت بعد التأمّل فيما تقدّم ـ من استحالة تعلّق الرؤية الحسّيّة بالله سبحانه مطلقاً، ومـن امتناع العلم الحقيقي بـه سبحانه من وراء حجـاب المفهوم أو غمام الصورة الذهنيـة ونحو ذلك، إذ ليس شيء مـن ذلك شبيهاً به تعـالىٰ ولا مثيلاً له سبحانه حتّـىٰ يحكيه ويطابق عليه، كما هو المعتبر في العلـم الحصولي، ولا يمكن نيل ذاتـه تعالىٰ بهذا العلم الـذهني، وإلّا يلزم انقـلاب الذهن خـارجاً أو الخارج ذهناً، والكلّ ممتنع، فلا يمكن العلم الحقيقي به تعالىٰ من وراء حجاب الاستدلال وغيـم القياس الحصـولي، وهكذا بعـد التنبّه بما مـرّ من استحـالة إحـاطة العلـم الشهودي بـه سبحانـه، مع إمكـان أصله بل ضرورتـه ـ تعـرف ما المراد مـن قول مولانا الرضا (عليه السلام)، حين قال لـه (عليه السلام) ذو الرياستين: جعلـت فداك، أخبرني عمّا اختلف فيـه النّاس من الـرؤية. فقـال بعضهم: يرىٰ، وقـال بعضهم: لا يرىٰ، يا أبا العبّاس! من وصف الله بخلاف ما وصف به نفسه فقد أعظم الفِرية علىٰ الله، قال الله تعـالىٰ: ﴿لاٰ تُدْرِكُـهُ الأَبْصٰارُ وَهُـوَ يُدْرِكُ الأَبْصٰـارَ وَهُوَ اللَّطِيْـفُ الْخَبِيْرُ﴾ [١]، هٰذِهِ الأبصـار ليست هـي الأعين، إنّما هي الأبصـار الّتي في القلـب، لا يقع عليـه الأوهام ولا يدرك كيـف هو [٢]، إذ المراد من الـرؤية المنفيّة هنـا، هي الـرؤية الحسّيّـة والـوهميّة دون الشهـوديّـة القلبيـة، وإن عبّر في بيانـه (عليه السلام) بالأبصار الّتي في القلب.

ويؤيّد ذلك ما رواه محمد بن الفضيـل، «قال: سألت أبا الحسن (عليه السلام) هل رأىٰ رسول الله ربّه عزّ وجلّ؟ فقال: نعـم، بقلبه رآه، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مٰا كَـذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأىٰ﴾ [٣]، أي لم يرهُ بـالبصر ولكن رآه بـالفؤاد» [٤]،

---

١. الأنعام، ١٠٣.
٢. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٣٢، ح ٧١.
٣. النجم، ١١.
٤. التوحيد، ص ١١٦.

ولاينافي ذلك ما رُوي عنهم (عليهم السلام) من تفسير رؤية الفؤاد برؤية نور العظمة تارةً، ورؤية الآيات تارةً أُخرىٰ، بعدما تقدّم من أنّهم (عليهم السلام) كانوا يكلّمون الرواة والسائلين علىٰ قدر عقولهم، مضافاً إلىٰ أنّ نور العظمة إنّما هو نور الذّات؛ لأنّ العظمة من شؤون القدرة الّتي عين الذات.

ومما يصحّح الرؤية القلبية بالمقدار الميسور، هو ما رواه أبو بصير عن أبي عبدالله (عليه السلام) «قال: قلت له: أخبرني عن الله عزّ وجلّ هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم، وقد رأوه قبل يوم القيامة، فقلت: متىٰ؟ قال: حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [1]، ثمّ سكت ساعة، ثمّ قال: وإنّ المؤمنين ليرونه في الدّنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك، فأُحدِّث بهذا عنك، فقال: لا، فإنّك إذا حدَّثت به فأنكره منكر جاهل بمعنىٰ ما تقوله، ثمّ قدّر إنّ ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالىٰ الله عمّا يصفه المشبّهون والملحدون» [2].

وبالجملة، أنّ القلب لتجرّده عن المادّة صالح لشهود الملكوت، لولاأن يحوم الشيطان حومه، فإذا حومه أعماه وأصمّه وأخرسه؛ لأنّه قرين سوء مأمور من القهر الإلٰهي لأن يسدي الغطاء علىٰ عين قلب كلّ متكبّر جبّار لا يؤمن بيوم الحساب، حيث إنّ الّذي يتعامىٰ عن شهود الآيات المبصرة الّتي لا حجاب عليها ويتعاشى عن رؤية البيّنات الّتي لا سترة لها، وكذا يتصنّع الصمم والخرس يخرج بسوء اختياره عن الأسماء الجماليّة ويحرم منها، ويدخل تحت الأسماء الجلاليّة الحاكمة علىٰ من اشترىٰ الضلالة بالهدىٰ، فيصير مقروناً بوليه المضلّ له، وهو الشيطان، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً

---

١. الأعراف، ١٧٢.
٢. التوحيد، ص ١١٧.

﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [١]، فيزيده العمىٰ والعشا باجتراح الذنوب، إذ العصيان موجب للعمىٰ، والإصرار عليه موجب لزيادته.

الذنوب الموجبة للعمىٰ

وقد ذكر مولانا الرضا (عليه السلام) بعض مصاديق الذنوب الموجبة للعمىٰ في قوله (عليه السلام) جواباً عن سؤال محمّد بن الفضيل، سأله عن قول الله تعالىٰ: ﴿ومن كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلّ سبيلاً﴾ [٢]، فقال (عليه السلام): «ذاك الّذي يسوف الحج ـ يعني حجة الإسلام ـ يقول: العام أحجّ، العام أحجّ، حتّىٰ يجيئه الموت» [٣]، وقد تقدّم منه (عليه السلام) تطبيق ذلك علىٰ من كان أعمىٰ عن الحقائق الموجودة.

فالمستفاد من ذلك كلّه، هو أنّ أيّ عمل لا يرضاه الله ورسوله فهو موجب للعشاء؛ لأنّه مصداق تعاش عمدي وتعامٍ قهري عن ذكر الله، فلا خصيصة لتسويف الحج، بل المدار هو التعاشي عن ذكر الله، الّذي يندرج تحته الاعتقاد والخلق النفساني والعمل الجارحي. فلذا قد يطلق الذكر علىٰ الصلاة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلٰوةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوا إِلىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ [٤]، إذ الصلاة بما هي عبادة خاصّة مصداق لذكره تعالىٰ وسبب لحفظه؛ ولعلّه لذا قال تعالىٰ لموسىٰ عند ابتداء الوحي: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طوىٰ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحىٰ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلٰهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلٰوةَ لِذِكْرِي﴾ [٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ إِسْمَ رَبِّهِ فَصَلّىٰ﴾ [٦].

---

١. الزخرف، ٣٦. ٢. الإسراء، ٧٢.
٣. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٥٢، ح ١٣٦.
٤. الجمعة، ٩. ٥. طه، ١٤ ـ ١٣. ٦. الأعلى، ١٥ ـ ١٤.

تعلّق الرؤية بالثواب

وحيث إنّهم (عليهم السلام) كانوا يكلّمـون النّاس علىٰ قدر عقولهم، الّتـي هي الأوعية للعلوم والمعارف وخيرها أوعـاها، تراهم (عليهم السلام) تارةً يتكلّمون بإمكان رؤية الله سبحانه قلباً، وأُخرىٰ يحكمون بـأنّ الرؤية إنّما هي تتعلّق بالثواب، كما أنّ الحجاب أيضاً قد يفسّر بـالنسبة إلىٰ الثواب؛ فلذا قال مولانـا الرضا (عليه السلام) في قوله تعـالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَـاضِرَةٌ إِلىٰ رَبِّها نَاظِرَةٌ﴾ [١]، يعني مشرقة تنتظـر ثواب ربّها، وقال (عليه السلام) في قوله تعالىٰ: ﴿كَلاّ إِنَّهُمْ عَـنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [٢]، إنّ الله تبارك وتعـالىٰ لا يوصف بمكـان يحلّ فيه، فيحجـب عنه فيه عبـاده، ولكنه يعني أنهم عن ثواب ربّهم لمحجوبون [٣].

وقد تقـدّم منهم (عليهم السلام) أنّـه لا حجـاب أصلاً بين الله سبحـانـه وبين خلقه، إلاّ الخلق نفسه.

ليس وزان شهودالله وزان مجيئه و ذهابه

وليس وزان شهود الله بـالقلب المنزّه عن غيره، هو وزان المجـيء والذهاب ونحو ذلك، ممّا يشعر بالانتقال أو الانفعـال؛ فلذا قال مولانا الرضا (عليه السلام) في قـوله تعـالىٰ: ﴿وَجٰاءَ رَبُّـكَ وَالمَلَـكُ صَفّاً صَفّـاً﴾ [٤]: «إنّ الله تعـالىٰ لا يـوصـف بـالمجيء والذهـاب، تعالىٰ عن الانتقال، إنّما يعني بذلك وجـاء أمر ربّك والملك صفّاً صفّاً».

وقال (عليه السلام) في قوله تعـالىٰ: ﴿سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾ [٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿اللهُ

---

١. القيامة، ٢٣ ـ ٢٢. ٢. المطففين، ١٥.
٣. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣٨١، ح ٢٠١, ٢٠٠.
٤. الفجر، ٢٢. ٥. التوبة، ٧٩.

يَسْتَهْـزِءُ بِهِمْ﴾ [١] ، وقولـه تعـالىٰ: ﴿وَمَكَـرُوا وَمَكَـرَ اللهُ﴾ [٢]، وقـوله تعـالىٰ: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [٣]، «إنّ الله تعالىٰ لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع، ولكنّه تعالىٰ يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة، تعالىٰ الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً» [٤].

الوصف الذي ينتزع من فعل الحق

فأيّ وصف يلزمه الانتقال أو يصاحبه الانفعال، فلابدّ وأن ينتزع من فعل الحقّ سبحانه، سواء في ذلك الانفعال المادّي كما في الحادث الزماني، أو الانفعال الذاتي كما في الحادث الذاتي المستوعب لجميع ما سواه تعالىٰ؛ لأنّ الانفعال إنّما يتحقّق في مورد الفقر الذاتي؛ لأنّ الغنيّ المحض لا يتأثّر عن الغير أصلاً، فلا انفعال، فلا شيء من الغنيّ الصرف بمنفعل، فلا شيء من المنفعل بغني، فلابدّ وأن يكون فقيراً ليحتاج إلىٰ غيره وينفعل عنه.

---

١. البقرة، ١٥. ٢. آل عمران، ٥٤. ٣. النساء، ١٤٢.

٤. مسند الإمام الرضا «ع»، ج ١، كتاب التفسير، ص ٣١٨، ح ٣٣.

الفهارس

فهرس المطالب و الموضوعات

الجنّة الثانية:

الجنّة الثالثة:
في تحضيض القرآن إلى التحقيق وطرد الأمنية ٩٩

الجنّة الرابعة: